التّفسير الجامع

فضيلة الشّيخ الدّكتور محمّد عبد السّتّار السّيّد

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

القرآن الكريم معجزةٌ خالدةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وعطاؤه متجدّدٌ لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم وعلومه ما يوافق التّطوّر العلميّ الّذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزة بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، وهو كتاب هدايةٍ فيه إشاراتٌ علميّةٌ لا يمكن أن تُصادم العقل البشريّ في أيّ زمنٍ من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله امتثالاً لأمره ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد]، متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد ﷺ، فهو الّذي عليه نزل وبه أخذ وعمِل، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله وبالعلم الّذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولةً عصريّةً للأخذ من عطاء القرآن الّذي لم يفرغ في زمن النّزول، وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبةً لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّصّ من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الّذي أمر به القرآن الكريم: (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون).

والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد السّتّار السيّد

الجُزءُ الأوّل

سورة الفاتحة/ سورة البقرة

من الآية (١-١٤١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي التّفسير

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على سيّدي رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]، ويقول نبيّنا الأعظم عليه وعلى آله أفضل الصّلاة والتّسليم: «**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**»(١).

وبعدُ: فهذه محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله ﷻ، وهي ليست تفسيراً للقرآن الكريم؛ لأنّ القرآن الكريم لم يفسّره رسول الله ﷺ وهو من نزل على قلبه، ولا يمكن أن نسمّي أيّ تدبّرٍ أو أيّ تبحّرٍ أو أيّة قراءة وفهم لكتاب الله ﷻ تفسيراً؛ لأنّ كتاب الله جاء لكلّ زمان ومكان، ولم يأت لمرحلة زمنيّة معيّنة، ولو أنّ النّبيّ ﷺ أراد أن يفسّر القرآن الكريم لفعل، فهو الّذي أخذ به وعمل، لكنّه ﷺ اكتفى بأن بيّنه وشرح محكمه، وترك العطاء القرآنيّ لبقيّة الأجيال لتكتشف كنوزه وإعجازه بحسب زمانها ومكانها، واكتفى عليه الصّلاة والسّلام بأن فسّر آيات الأحكام الضّروريّة للنّاس في ذلك الزّمان،

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه، الحديث رقم (٥٠٢٧).

وترك الآيات مكتنزة بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، كي يستطيع العقل البشريّ في كلّ مكانٍ وزمان أن ينهل منه حسب حاجته ومستوى فكره في كلّ عصرٍ وزمان.

ولو فسّره ﷺ لأفرغ عطاء القرآن كلّه في زمن واحد، والقرآن الكريم معجزة خالدة تتماشى مع العقول البشريّة بحسب زمانها وعصرها.

وقد اكتفى رسول الله ﷺ بأن بيّن للنّاس الأحكام التي يحتاجونها، بحسب ما تطيقه عقولهم في زمانهم، وترك الكثير من الآيات المتعلّقة بالعلم وأسراره.

والآيات التي تتعلّق بالعلم أتت مجملةً وغيرَ شارحة لكلّ الأبعاد العلميّة، مثل الآيات المتعلّقة بالهواء والماء وخلق الإنسان وخلق السّموات والأرض وغيرها، والقوانين الفيزيائيّة والعلميّة التي يمكن أن يستنتجها أو يكتشفها البشر في وقت من الأوقات.

فجاءت هذه الآيات بكلمات معجزة توائِمُ بين ما كان يعلمه النّاس في عصر التّنزيل وما يمكن أن يعلموه بعد مئات السّنين، وهذا ما لا يقدر عليه إلّا الله ﷻ.

فالقرآن الكريم هو كلام الله المعجز المنزل على عبده ورسوله ﷺ.

ومن هذا المنطلق نبدأ مسيرتنا، فنأخذ من فيوضات كتاب الله ما يناسب الزّمن الّذي نعيش فيه؛ لأنّ عطاء القرآن الكريم لا ينفد على مرّ الأزمنة، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم

وعلومه ما يوافق ذلك التّطوّر الّذي وصل إليه. ولا يمكن أن يُتصوَّر أنّ في كتاب الله تعالى آيةً صادمةً لصحيح العلم الّذي تبيّن وثبتت صحّته.

أمّا الآيات المتعلّقة بالأحكام والعبادات وما يحتاجه البشر في عبادتهم لله وما يتعلّق بأركان الإسلام، فقد أتت واضحةً، وقام النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام بتفسيرها. وعندما يفسّرها النّبيّ ﷺ فلا أحد يستدرك عليه، ولا يجوز لأحدٍ أن يأتي ويفسّر مِن بعده.

ولذلك فنحن نقول مجازاً: بأنّه تفسير للقرآن الكريم وهو في الحقيقة تدبّر للقرآن الكريم...

وهي فيوضات وخواطرُ حول القرآن الكريم وليست تفسيراً؛ إذ لا يمكن أن نقيّد كلام الله تعالى بتفسيرٍ واحد يكون صالحاً لكلّ زمانٍ ومكان؛ لأنّ معاني التّفسير يمكن أن تتبدّل من زمنٍ إلى زمن.

ولتوضيح الأمر ننظر في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [ق: من الآية ٧]، وهذه آية كونيّة تُشير إلى كرويّة الأرض، وهي آية علميّة مستمرّة من زمن التّنزيل إلى أن تقوم السّاعة، ولا يمكن أن يقول مثل هذا الكلام إلّا الله سبحانه وتعالى.

وقد تقبّل العقل البشريّ هذه الآية أوّل الأمر؛ لأنّه كان إذا نظر إلى الأرض وجدها ممتدّة في أيّة بقعةٍ منها ولم تكن هناك مشكلة في فهم الآية، ولكن عندما تطوّر العقل البشريّ ورأينا بالمنظار العلميّ الكرة الأرضيّة في فضاء الكون كرويّة، أدركنا أنّه ليس هناك أيّ شكل هندسيّ ممتدّ إلّا الدّائرة (الكرة)، فالمربع والمستطيل والموشور والمثلّث والهرم كلّها ذوات حرف وطرف

ولا يمكن أن تمتدّ. فالإعجاز القرآنيّ جاء بالحقيقة العلميّة ولم يصطدم مع العقل البشريّ في وقت التّنزيل.

وكلّما اكتشف العلم شيئاً جديداً فإنّه لا يجوز أن ينافي كلام الله في كتابه؛ لأنّه الخالق والقائل، وما دام القائل هو الخالق فإنّ الأمر ينطبق على الخلق تماماً.

وقد أخبر ﷻ بعلمه القديم عن الحقائق الكونيّة التي تتعلّق بالبشر في كثيرٍ من الآيات التي تتحدّث عن الخلق والإنسان، كما أخبرنا تعالى عن الرّياح اللّواقح، وعن الشّمس والقمر، وعن تكوير اللّيل والنّهار، وعن أمورٍ شتّى في نواحٍ علميّة لم تكن معروفة في زمن التّنزيل.

وأراد النّبيّ ﷺ أن يشغل النّاس بالعبادة وبحقائق الدّين، والقرآن الكريم في الأصل هو كتاب هداية وإعجاز وليس كتاب رياضيّات وفيزياء أو كيمياء، ولم يأت ليصدم النّاس بحقائق علميّة لا تتقبّلها العقول في عصر التّنزيل الأوّل.

وكما بيّن النّبيّ ﷺ ما يحتاجه العقل البشريّ في زمن التّنزيل يجب أن يكون المفسّرون وكلّ من شرّفه الله بهذا الشّرف العظيم في كلّ عصر، على درايةٍ تامّة بهذه الحقيقة قبل أن يتصدّوا لتفسير آيةٍ من القرآن الكريم أو أكثر، وعليهم أن يستندوا إلى ما جاء به رسول الله ﷺ، فهو من نزل عليه القرآن الكريم، وهو من فهم وطبّق وأفهم، وهو من أوحي إليه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النّجم].

وقد فسّر رسول الله ﷺ القرآن بسلوكه وأفعاله، فكان ﷺ قرآناً يمشي على الأرض كما وصفته السيّدة عائشة رضي الله عنها، أي إنّه جعل القرآن وكلماته جليّة في نهجه، وفي سيرته، وفي سنّته وهديه، وفي سلوكه وأخلاقه، وفي أقواله وأفعاله، وفي حركاته وسكناته.

وحين نجد اختلافاً في تفسير القرآن الكريم في هذا الزّمن عمّا كان عليه نهج العلماء المفسّرين، وحين نسمع المبطلين والمرجفين والتّكفيريّين والإرهابيّين يفسّرون القرآن وفق أهوائهم، فليس أمامنا إلّا أن نحتكم إلى نهج وسيرة وحياة رسول الله ﷺ.

وحين نزلت عليه أوّل آيةٍ في القرآن الكريم وناداه الوحي بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: من الآية ١]، أجاب: «**ما أنا بقارئ**»، وأعاد عليه سيّدنا جبريل عليه السّلام القولَ ثلاثاً ورسول الله ﷺ يقول: «**ما أنا بقارئ**»[(١)]؛ لأنّه يفترض أن يكون أمام القارئ كتاب يقرأ منه، أو أنّه يحفظ شيئاً فيتلوه. أمّا النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام فقد كان أميّاً، وإذا كانت الأميّة عند النّاس نقصاً واحتياجاً، فإنّها عند رسول الله ﷺ تمام الكمال والشّرف؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى أراد لنبيّه ألّا يعلّمه بشر، وأن يكون علمه ﷺ مستمدّاً من الله سبحانه وتعالى وحده. وحين صدر الأمر الإلهيّ إلى رسوله بالقراءة أعطاه القرآن وعلومه، وأنزله على قلبه.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدءُ الوحي إلى رسول الله ﷺ، الحديث رقم (٣).

فكلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ من الله ﷻ لرسوله ليست ككلمة (اقرأ) من بشر لبشر مثله، وحين أقول لك: (اقرأ) فأنت تقرأ ما تعلم وأعلم، أمّا الله ﷻ حين يقول: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ فإنّه يُصدِر أمراً، وأمر الله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: من الآية ١١٧]، وحين أمر الله ﷻ رسوله بالقراءة أصبح عليه الصّلاة والسّلام معلّمَ القراءة والعلوم لكلّ النّاس، وأصبح النّاس يأخذون عن علومه على مدى الأزمنة المتوالية.

ولهذا فإنّ نهجنا في تفسير القرآن الكريم سيعتمد أساساً على سلوك وسيرة رسول الله ﷺ كيف فهم القرآن الكريم؟ وكيف فسّره؟ وكيف سكت عن بعض آياته ليترك مجالاً لتطوّر العقل البشريّ من النّاحية العلميّة وما اكتنزته الآيات الكونيّة.

وقد وجّه الله ﷻ في القرآن الكريم العباد إلى وجوب طاعة رسوله ﷺ وذلك في العديد من الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: من الآية ٢٠]، وفي آية أخرى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النّساء: من الآية ٥٩] فدلّ العطف هنا على أنّ طاعة الله ﷻ كطاعة رسول الله ﷺ، كما قال ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[1] [آل عمران: من الآية ٣١]، فمن أراد أن يفهم كلام الله تبارك وتعالى فالنّبيّ ﷺ بتطبيقه وأخلاقه وسلوكه وسيرته، هو التّفسير الحقيقيّ لكتاب الله ﷻ.

وهذا هو المنهج الّذي سنتّبعه في التّفسير بدءاً من سورة (الفاتحة) إلى سورة (النّاس)، إذا وفّقنا الله تعالى لأعظم وأجلّ عملٍ وهو تفسير كتاب الله، وتدبّر آيات القرآن الكريم، وأخذ ما يناسب العقل البشريّ في هذا الزّمن منه.

وكما قلنا فإنّ العقل البشريّ لا يستطيع أن يصل إلى عطاءات القرآن كلّها في عصرٍ واحد، ولو كانت عطاءات القرآن محدودة في زمن واحد لتعطّلت المعجزة.

وممّا يعلم أنّ كلّ نبيّ كان له منهج وكانت له معجزة تدلّ على صدقه في نبوّته، باستثناء نبيّنا محمّد ﷺ. وهذه الفكرة أساسٌ في التّفسير؛ لأنّ البشريّة لم تكن قد وصلت إلى مرحلة الرّشد البشريّ منذ سيّدنا آدم إلى نوح وإدريس وهود وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى... عليهم السلام.

وحين نزلت التّوراة كانت العصا هي معجزة سيّدنا موسى عليه السلام ولا علاقة لها بالتّوراة وهي المنهج، وحين نزل الإنجيل على سيّدنا عيسى عليه السلام أيّده الله ﷻ أيضاً بمعجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص،

---

(١) وقال ﷺ فيما رواه التّرمذيّ عن أبي رافع: «**لا ألفينّ أحدكم متكئاً على أريكته يقول هذا كتاب الله ما وجدنا فيه حلالاً حلّلناه وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه، ألا وإنّي أوتيت القرآن ومثله معه**».

وهي غير المنهج الّذي أنزل عليه في الإنجيل، وكذلك في عهد سيّدنا إبراهيم عليه السّلام الّذي كانت معجزته في جعل النّار غير حارقة، وهي غير المنهج الّذي في الصّحف التي أنزلت عليه. وكلّ الأنبياء اختلفت معجزاتهم عن مناهجهم، وكانت لأهل عصورهم فقط، أي من عاصرهم من أقوامهم.

أمّا النّبيّ الخاتم محمّد عليه الصّلاة والسّلام فقد بعث حين بلغ العقل البشريّ رشده، فقال ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: من الآية ٣] ولا نبيّ يأتي بعد محمّدٍ ﷺ ولا دين بعد دينه، فقد بلغ الدّين من التّمام والكمال ما لا تحتاج البشريّة إلى دينٍ بعده.

وأيّة معجزة يأتي بها النّبيّ ﷺ من المعجزات المشاهدات ينتهي دورها في وقت النّزول، فجعل الله ﷻ معجزته الكبرى في المنهج الّذي جاء به، وهو القرآن الكريم الّذي سيبقى إعجازه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأنّه الدّين الخاتم، قال ﷻ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾ [الأحزاب]، فعلاقة سيّدنا محمّد ﷺ بنا ليست علاقة نسبٍ وأبوّة، وإنّما هي علاقة تبليغٍ عن الله في الرّسالة الخاتمة، فهو النّبيّ الخاتم، وقد قال عليه الصّلاة والسّلام: «**لا نبيّ بعدي**»[1].

ولن يأتي نبيٌّ بعده بكلامٍ آخر من عند الله، وستبقى معجزة القرآن الكريم باقيةً إلى يوم الدّين، وفيه المنهج والإعجاز، وكلّما قرأنا القرآن الكريم

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل، الحديث رقم (٣٢٦٨).

نجد فيه إعجازاً يناسب زماننا وما وصلت إليه عقولنا، ولا يستطيع أحدٌ أن يتحدّى هذا الإعجاز، قال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

وهذا القرآن الكريم الّذي نتعبّد الله به هو من حروف اللّغة العربيّة، ومن حروف الهجاء المعروفة عند العرب من الألف إلى الياء، فأين هو الإعجاز؟ هل هو شعر أم نثرٌ أم أدب أم علم؟ هو ليس واحدةً من ذلك، ومن عظيم الإعجاز أنّ المبلّغ له والمرسَل إليه والمُنزَل عليه كان أميّاً، ولم يكن شاعراً ولا أديباً، ولم يكن ساحراً، ولم يكن معلّماً، وإنّما كان أميّاً، واستطاع أن ينقل الوحي عن الله تبارك وتعالى بثلاثة أساليب لا يقدر عليها أحدٌ على وجه الأرض كما سيأتي.

وأكبر إعجازٍ هو نزول القرآن الكريم، وقد نقله سيّدنا جبريل عليه السلام وهو من الملائكة إلى سيّدنا محمّد ﷺ وهو من البشر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: من الآية ١١٠]. فهو بشرٌ استطاع أن ينقل إلى النّاس القرآن الكريم بأسلوب القرآن، كما نقل الحديث القدسيّ، والحديث النّبويّ، ولكلٍّ منها أسلوبٌ يختلف عن أسلوب الآخر، وليس هناك أحدٌ على وجه الأرض يمكن أن يعطي خطاباً للنّاس، أو أن ينشر علماً بثلاثة أساليب مختلفة ما بين القرآن والحديث القدسيّ والحديث النّبويّ.

وقد نزل القرآن الكريم على قلب رسول الله ﷺ كما قال ﷻ: ﴿عَلَىٰ

﴿قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشّعراء]، بينما لقّنه سيّدنا جبريل عليه السلام القرآن الكريم في أذنه، ورسخ القرآن في قلبه.

ولو أنّ بشراً مثلنا قرأ صحيفة من كتاب وطُلب إليه أن يعيدها بعد قراءتها بيومين أو ثلاثة فلسوف يتغيّر أسلوبه، حتّى لو كان هو مؤلّفها. أمّا النّبيّ صلى الله عليه وسلم فقد كان يصلّي بأصحابه وهو يتلو آيات القرآن الكريم، فلا يغيّر منها حرفاً ولا حركة مهما كرّرها في أيامٍ مختلفة، ولا يختلف عن الكلام المنزل من عند الله سبحانه وتعالى عن طريق سيّدنا جبريل عليه السلام، فنزلت الآيات في قلبه وعلى سمعه، وتكفّل الله سبحانه وتعالى له بجمعها في صدره، فقال جلّ وعلا: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة].

إذاً، هذا هو السرّ في القرآن الكريم، وهذه هي المعجزة التي لن يستطيع أحدٌ من البشر أن يتحدّاها في أيّ زمن من الأزمنة. وهو ليس إعجازاً بلاغيّاً ولا إعجازاً نحويّاً ولا إعجازاً علميّاً فحسب. بل الإعجاز كلّه مجتمع في كلام الله عزّ وجلّ، ومكتنز فيه، وما دام المنهج هو المعجزة، والمعجزة هي المنهج، فسيبقى القرآن الكريم صالحاً لكلّ زمان ومكان.

والمطلوب أن يستفيد البشر من القرآن الكريم ليمتثلوا أوامر الله سبحانه وتعالى وينفّذوا إرادته في إعمار الأرض، عقيدةً وشريعةً وعبادةً وأخلاقاً وسلوكاً، وهذا هو الأساس، ومن هنا يمكن أن ندخل إلى تفسير القرآن الكريم.

ولا يمكن لأحدٍ أن يجمع بين تفسير القرآن الكريم وبين تحقيق مآرب

شخصيّة أو لتحقيق أغراضٍ دنيويّة اقتصاديّةً كانت أو سياسيّةً أو اجتماعيّةً، أو غيرها، فمن سعى إلى ذلك فليتبوّأ مقعده من النّار، كما قال رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: «**ومن قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النّار**»[1]. فالقرآن الكريم لا يُقال فيه بالرّأي، ولا يُؤخَذ به بالرّأي.

فما هي الأسس التي نعتمد عليها في تفسير القرآن الكريم؟

❀ ❀ ❀

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب تفسير القرآن، باب الذي يُفسّر القرآن برأيه، الحديث رقم (٢٩٥١).

القواعد الأساسيّة المعتمدة في هذا التّفسير:

سنعتمد في هذا التّفسير القواعد العلميّة المعتمدة في كلّ التّفاسير:

أوّلاً: تفسير القرآن بالقرآن.

ثانياً: تفسير القرآن بأقوال النّبيّ ﷺ وأفعاله وسلوكه وسيرته.

ثالثاً: ما اعتُمد من أصول التّفسير وقواعده لدى كبار المفسّرين.

كما أنّنا لن نخرج عن المنهج العلميّ الّذي اعتدنا عليه، ولكن لا بدّ من مراعاة ما يناسب هذا الزّمان وفق المعايير العلميّة؛ لأنّ القرآن الكريم يشتمل على الآيات الكونيّة العلميّة، والآيات المتعلّقة بالأحكام التّعبديّة، والآيات المتعلّقة بالأخلاق، وآيات القصص القرآنيّ.

وسنتحدّث عن أهميّة كلٍّ من هذه المواضيع في حينها، ولكن السّؤال الّذي يُطرح، لماذا جاء القرآن الكريم على شكل آيات؟ لماذا هو آيات بيّنات؟ ولماذا سمّيت هذه المعجزات بالآيات البيّنات؟

إنّ كلمة (آية) في اللّغة العربيّة تعني المعجزة، فالقرآن الكريم في كلّ كلمة منه بل في كلّ حرف يحمل معجزة، وإذا لم يستطع العقل البشريّ أن يتوصّل إليها فبسبب قصوره وليس قصوراً في القرآن الكريم، وقد يكون قصوراً في التّفسير والمفسّرين وليس قصوراً في القرآن الكريم.

فإن استغلّ بعضهم القرآن الكريم وآياته على غير ما أراد الله ﷻ فهذا انحراف بشريّ عن فهم النّص الإلهيّ المقدّس المعجز الّذي قال عنه الله ﷻ:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

[فُصّلت]، من عزيزٍ حميد، من عليمٍ قدير، من رحمنٍ رحيم، من كلّ صفات الكمال والجلال لله ﷻ. فهو الكمال المطلق، وكلامه تعالى لا يأتيه الباطل، وإنّما يأتي الباطل من زيغ العقول.

فإذا جاء في زماننا هذا من يبرّر القتل والتّخريب واستند إلى آياتٍ قرآنيّة وقال: إنّه يقاتل المشركين، وهو من كفّرهم بحسب رأيه وهواه، فإنّنا نردّ التّكفير بصحيح التّفسير.

أمّا الدّين الموازي الّذي وضعه أعداء العرب والإسلام في الغرف المظلمة والأقبية، فهو لا يصحّ أبداً، ولا يمكن أن نعتمد في التّفسير إلّا على ما بيّنه سيّد البشر ﷺ.

وتُفهم الآيات التي نزلت في القتال، وسير أحكام الجهاد من خلال أفعال وتفسير وممارسات سيّدنا محمّد ﷺ.

ثمّ من خلال ما نهجه صحابته وآل بيته الكرام في الأمور التي طرأت بعد انتقال الرّسول ﷺ.

والسّؤال: من الّذي يتصدّى للحديث عن أحكام الشّريعة الإسلاميّة؟ فهي ليست تراثاً ولا ثقافة عامّة مفتوحة.

وللتّوضيح لا بدّ من أن نبيّن أنّ الثّقافات قد تتكوّن من خلال الأساسيّات، وهي العقيدة والشّريعة والعبادة والأخلاق، أمّا الشّريعة الإسلاميّة في أصلها فليست ثقافة وليست تراثاً، إنّما هي أصولٌ استُمدّت منها تلك الثّقافات وما يسمّى بالتّراث. وهذه قضيّة هامّة لا بدّ لنا من

توضيحها توطئةً لعلوم التّفسير أو ما يتعلّق بالتّفسير.

وحين تنزّل القرآن الكريم تحدّى العرب بإعجازه اللّغويّ، يوم كانوا سدنة الكلمة وعلماء النّثر والشّعر معاً، كما تحدّى غير العرب أيضاً؛ لأنّ القرآن الكريم لم ينزل للعرب خاصّة، -وإن كان فخراً وشرفاً لهم- ولكنّه جاء للبشريّة جمعاء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: من الآية ٢٨]، فقد أرسل الله تعالى رسوله للبشريّة جمعاء ولم يرسله للأمّة العربيّة فقط.

كذلك كان القرآن الكريم شرفاً للّغة العربيّة عندما أنزله الله تبارك بلسان عربيّ مبين، فجعلها وعاءً لكلامه، فأخذت رفعتها وقدسيّتها من قدسيّة كلام الله، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزّخرف]، أي أنّ العرب سيُسألون عن هذا الكتاب؛ لأنّهم أعلم النّاس بأسرار اللّغة العربيّة، وقد نزل القرآن بلغتهم، قال الله ﷻ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف].

وإذا كان الأمر التّكليفيّ مناط بالعقل، فإنّ ديننا دين العقل والعلم، وليس دين تخلّفٍ وجهلٍ وتكفير.

وبناءً على هذا الأساس نبدأ التّفسير، ونرجع كلامنا كلّه إلى الأصل.

ونحن اليوم أمام حملةٍ شعواء على الإسلام والمسلمين، وعلى القرآن وكلّ ما يتعلّق بالدّين الإسلاميّ، وعلينا أن نبيّن سياق الآيات وأسباب النّزول، ولا نتوقّف عند تفسير المفردات اللّغويّة، فلا يجوز بتر الآيات عن سياقها وزمانها وعن أسباب نزولها ومآلاتها، بل لا بدّ من النّظر في الكثير

من الأحكام والمصالح المرسلة، وإلى أحكام الفقه الإسلاميّ عموماً.

ومن لا يعرف ذلك كلّه فليعد إلى أهل الاختصاص، قال تبارك وتعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النّحل: من الآية ٤٣].

وقد روي أنّ الشّيخ محمّد عبده كان في بلد غربيّ فسأله سائل: أنتم تقولون في قرآنكم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: من الآية ٣٨]. فأعطنا المقدار الدّقيق من الماء في رغيف خبز؟ فقال لهم الشّيخ: نعم، إنّ الله ﷻ يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾، فجواب سؤالكم عند الخبّاز بناء على قوله تبارك وتعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾، فهو يردّنا إلى أهل الاختصاص.

فالقرآن الكريم لم يأت بمعادلات فيزياء وكيمياء، ولم يبحث في علم الوراثة؛ لأنّه كتاب هداية، ولكن فيه من الإعجاز العلميّ ما يناسب أيّ اختراع أو اكتشاف علميّ معجز إن ذكر في كتاب الله تعالى.

والقرآن الكريم هو حبل الله المتين، وقد بدأ تنزّله على رسول الله ﷺ بكلمة: ﴿ٱقْرَأْ﴾ ومصدر هذا الفعل هو (قرآن)، فهو يُحفَظ في الصّدور كما يكون مكتوباً في كتاب، فهو محفوظ في الصّدور، ومكتوب في السّطور. ولو قرأ قارئ في دمشق: (قل هو الله أحد، اللهَ الصمدَ)، بنصب الهاء والدّال، لصحّح له من عنده أدنى معرفة بكتاب الله تعالى من إندونيسية أو أسترالية مثلاً: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص] أي بضمّ الهاء والدّال بدل الفتحة في الكلمتين، وقد يكون السّامع والمصحّح ليس عربيّاً؛ وذلك مصداقاً لقوله

تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، فالحفظ الصّحيح هو مصدر القراءة الصّحيحة، وديننا أساسه العلم، وكلمة قرآن هي مصدر القراءة، ولو تأمّلنا في قوله ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق]... لوجدنا كلمات مثل: علّم وقلم وإنسان، ولا نجد كلمات: قتل وسيف وتخريب وتكفير.

ولا بدّ من البدء من هذا المنطلق في بداية رحلتنا مع القرآن الكريم، أي منطلق العلم والقراءة.

ولا بدّ من آداب يلتزم بها قارئ القرآن الكريم، فالقرآن الكريم ليس كتاباً يتصفّحه الإنسان وهو مستلقٍ على السّرير مادّاً رجليه، بل هو كتاب هداية له أسس وأصول في احترامه والتّعامل معه.

وأوّل الأسس والشّروط هو الطّهارة، وقد قال ﷻ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة]، فلا بدّ لنا من طهارة الظّاهر لتأتينا طهارة الباطن، فعلينا بالوضوء عند قراءة القرآن الكريم، ثمّ حضور القلب مع الله تعالى منزِّل القرآن؛ لأنّ من يقرأ القرآن الكريم يسمع من الله ﷻ، ويتكلّم مع الله ﷻ. فمن دخل على عظيم من عظماء الدّنيا، أو وجيه من وجهائها من ذوي السّلطان والمال كيف يكون مظهره؟ وكيف يكون أدبه خلال حديثه معه؟ ولا شكّ أنّ الله تعالى هو مالك الملك كلّه، وهو من يحيي ويميت، وبيده مقاليد كلّ شيء، ولا بدّ لنا من استعداد نفسيّ كي تأتينا فيوضات القرآن

الكريم، فلا بدّ لنا من تهيئة واستعداد لاستقبال هذه الفيوضات. وقد ورد في سيرة سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، أنّه قبل إسلامه علم بإسلام أخته وصهره فذهب إليهما لتأديبهما، وضربهما حتّى سال الدّم منهما، فتحرّكت في نفسه نوازع الرّحمة وهو في حالة انفعال، وعندما سمع بداية سورة (طه) وأصغى إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾ [طه]، قال: انطلقوا بي إلى محمّد، فذهب وأعلن إسلامه بين يديه صلى الله عليه وسلم.. فلماذا انفعل بآيات الله حين رقّ قلبه في بيت أخته، ولم ينفعل وهو في أسواق مكّة، وقرب الكعبة؟

لا شكّ أنّ في هذا دليلاً على أنّ القرآن الكريم يخاطب خلجات وخطرات النّفس الدّاخليّة، فهو ليس كتاب أدب أو شعر، ولا كتاب جغرافيا أو فيزياء أو ثقافة عامّة، بل هو كتاب تتحدّث من خلاله مع ربّك الخالق، والّذي قال هذا الكلام هو الّذي خلق القلب في جوفك، وهو الّذي أودع العقل في رأسك، فهناك تناغم، وهذا التّناغم لا يمكن أن يتمّ إلّا وفق الحالة التي تستقبل فيها القرآن الكريم.

ولا بدّ من استعدادات معيّنة كي تقرأ القرآن الكريم وتستفيد منه وتتلقّى فيوضاته.

وقد علّمنا الله ﷻ كيف نعيش مع القرآن الكريم ونُقبل على قراءته، وطلب من المؤمن أن يمتثل لذلك، فقال ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النّحل]. فالمطلوب أن تقول كلّما أردت أن تقرأ من كتاب الله تعالى، في أي وقت من الأوقات: (أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم)؛ لأنّ القرآن الكريم «هو حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ»(١) كما قال رسول الله ﷺ، طرفه بيد الله تعالى وطرفه الآخر بيدك، فعندما تريد أن تتلقّى فيوضات القرآن الكريم عليك أن تضع حاجزاً بينك وبين من هو عدوٌّ لك وللقرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: من الآية ٦]، وقد نذر الشّيطان نفسه لإغواء بني آدم وإضلالهم وإبعادهم عن خالقهم، كما أخبرنا الله ﷻ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص].

ولهذا علينا بتصفية جهاز الاستقبال القلبيّ للقرآن الكريم، وعلينا أن نستعيذ بالله ونلجأ إليه تعالى ونستعين به.

وبما أنّك مخلوق، والشّيطان مخلوق، وكلاكما من خلق الله، فأنت حين تستعين بالخالق على المخلوق تصبح الأقوى.

لذلك يتعيّن عليك إذا افتتحت التّلاوة أن تستعيذ بالله، من أيّة آية ابتدأت ولو من منتصف الصّحيفة، فتقول: (أعوذ بالله من الشّيطان

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن، الحديث رقم (٢٩٠٦).

الرّجيم)، أمّا البسملة فتكون في بدايات السّور. فالشّرط الأوّل للبدء بلقاء القرآن الكريم هو تصفية جهاز الاستقبال القلبيّ بأن نجعل حاجزاً بيننا وبين وسوسة الشّيطان؛ لأنّه هو العدوّ، وهو الّذي أخذ على نفسه عهداً كما أخبر الله ﷻ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، أمّا عزّة الله تعالى فهي استغناؤه عن عبادة خلقه، وقد أقسم إبليس بذلك؛ لأنّه يعرف أنّ الله تعالى ليس في حاجة إلى عبادتنا. وهذا ما جاء في الحديث القدسيّ: «**يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً**»[1]. فلو أنّنا قمنا جميعاً بين يدي الله نصلّي ليلنا ونهارنا لم يزد ذلك في ملك الله شيئاً، ولا ينقص في ملكه تركُنا للعبادة.

وقد دخل إبليس –لعنه الله– من هذه النّاحية وأقسم بعزّة الله تعالى، أي باستغنائه عن عبادة خلقه له، وقال كما أخبر ﷻ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، ولهذا لا نستطيع الاستفادة من القرآن الكريم إلّا إذا كنّا في جانب الله ﷻ، وأبعَدْنا الشّيطان عن طريقنا حتّى نهتدي ونسلك الطّريق المستقيم.

فنبدأ بالتّعوّذ من الشّيطان الرّجيم المطرود من رحمة الله تعالى، ثمّ نبدأ بسور القرآن الكريم التي تبدأ بسورة (الفاتحة) وتنتهي بسورة (النّاس). وهي مئة وأربع عشرة سورة.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

وكلّها تبدأ بالبسملة: (بسم الله الرّحمن الرّحيم) عدا سورة (التّوبة) كما سيأتي، والبسملة جزء من سورة (الفاتحة)، وسورة (الفاتحة) هي أوّل سورة في القرآن الكريم، وهذا يعني أنّ البسملة هي أوّل آية في القرآن الكريم.

أمّا السّور الأخرى فتبدأ بالبسملة، وهي ليست جزءاً منها، ما عدا سورة واحدة لا تبدأ بالبسملة وهي سورة (التّوبة)؛ لأنّها تبدأ بالبراءة من المشركين. ووردت البسملة بصيغتها في سياق سورة (النّمل) في الآية (٣٠): ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ [النّمل]، إضافة إلى البدء بها في أوّلها فبقي عدد البسملات في القرآن الكريم مئة وأربع عشرة، بعدد سور القرآن الكريم.

فلماذا كانت البسملة في مفتتح السّور؟ السّبب هو أنّ القرآن الكريم عندما أنزله الله تبارك وتعالى على قلب رسول الله ﷺ بأمر (كن) قال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق] فتمّ دخول القرآن إلى قلب رسول الله ﷺ بأمرٍ إلهيّ، فلا يمكن أن تكون هناك سورة في القرآن الكريم إلّا وتبدأ بـ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. والبسملة آية من سورة (الفاتحة)؛ لأنّها السّبع المثاني، ولا يتمّ عدد آياتها سبعاً إلّا بالبسملة، و(الفاتحة) هي أمّ الكتاب و: «**السّبع المثاني، والقرآن العظيم الّذي أوتيته**»[1] كما قال رسول الله ﷺ، ولا صلاة إلّا بأمّ الكتاب.

ويقول النّبيّ ﷺ: «**كلّ أمرٍ ذي بال لا يُبدَأ فيه ببسم الله الرّحمن**

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّفسير، باب سورة فاتحة الكتاب، الحديث رقم (٤٢٠٤).

الرّحيم فهو أقطع»[1] أي مقطوع النّتيجة. فمثلاً إذا أردت أن تشرب كوباً من الماء فلك أن تبدأ بـ بسم الله أو بدونه، فإن شربت من دون بسملة يكون لك عطاء واحد وهو أنّه أذهب الظّمأ عنك، وهذا عطاء دنيويّ، فلا تأخذ حظّك من الآخرة، ولذلك فهو أقطع ناقص، أمّا إذا بدأت بالبسملة وشربت فإنّك تنال من عطاء الدّنيا وعطاء الآخرة. فكلّ أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه بـ بسم الله فهو ناقص، فكيف بكتاب الله جَلَّ جَلَالُهُ وبكلام الله، وقد بدأ بالنّزول وأُدخل إلى قلب رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق].

فبدأت (الفاتحة) بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولم يقل: (باسم ربّك)؛ لأنّ لفظ (ٱللَّهُ) هو الاسم الدّالّ على الذّات الإلهيّة، لا يتسمّى به غيره: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: من الآية : ٦٥]، أمّا أسماء الله الحسنى فهي أسماء صفاته جلّ وعلا، فعندما تريد أن تقوم بأمرٍ تقول: (يا قويّ)، وعندما تريد أن تتعلّم تقول: (يا عالم)، وعندما تريد أن تزرع تقول: (يا معين)، أمّا إذا قلت: (يا الله) فهذا هو الاسم الجامع لكلّ صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنكون جمعنا كلّ الصّفات في كلمة واحدة.

لذلك كان البدء في سورة (الفاتحة) بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، فلماذا أتمّها الله باسميه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولم يختمها: بالقويّ العظيم، أو الغفور الرّحيم، أو التّوّاب الحكيم، أو القادر المقتدر؟

---

(١) طبقات الشّافعيّة الكبرى: الحديث رقم (٣).

لماذا اختار الله ﷻ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ للبدء بالقرآن الكريم وللبدء بفاتحة الكتاب، ولبدء كلّ أمرٍ يقوم به المسلم؟ والجواب: هو أنّ هذا عنوان رسالة الإسلام التي أُرسل بها محمّد رسول الله ﷺ، وقد قال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]. وفي اللّغة العربيّة (إلّا) أداة حصر وقصر، فقصر الرّسالة على الرّحمة، وقال النّبيّ ﷺ: «**إنّما أنا رحمةٌ مهداة**»(١)، وعندما كانوا يقولون له: ألا تدعو على قومك؟! يقول ﷺ: «**اللّهمّ اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون**»(٢)، فهو ﷺ جاء رحمة للنّاس ولم يأت لتكفيرهم أو إرهابهم أو قتلهم، لم يأت للحقد والكراهية والبغضاء والطّائفيّة، بل جاء رحمة واسعة للنّاس.. للعالمين، يسع الطّائع والعاصي، والمؤمن والمنافق والفاسق، يسع الجميع على كافَّة انتماءاتهم. بينما نجد اليوم من يقول لمن أراد أن يقرأ القرآن أو يصلّي: أنت كنت ترتكب المعاصي وتريد أن تقرأ القرآن الآن؟ أو يقول له: كنت تسرق وتزني فكيف تجرؤ على الصّلاة؟!.. والله ﷻ يقول: نعم؛ قل: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وتذكّر الرّحمن والرّحيم، وهو رحمن الدّنيا والآخرة، والرّحيم رحيم الآخرة، يعفو عن السيّئات وينادي عبده ويعده بالمغفرة، ويقول: أَقبِل عبدي، وانسَ ما

---

(١) سنن الدّارمي: المقدّمة، باب كيف كان أوّل شأن النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (١٥).

(٢) شعب الإيمان للبيهقيّ: ٢/١٦٤، الحديث رقم (١٤٤٧).

ارتكبت من ذنوب؛ فإنّ رحمتي وسعت كلّ شيء.. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾[الزّمر].

فهذا دين الرّحمة الّذي يبدأ كتابه في كلّ سورة منه بـ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولا تبدأ بأيّ اسم آخر من أسماء الله الحسنى على الإطلاق؛ لأنّ هذا الاسم يشدّ الإنسان إلى واسع رحمة الله ومغفرته وتوبته عليه.

والرّحمن مشتقّة من الرّحم، وهو المكان الّذي يأتي منه الغذاء والماء وكلّ مقدرات الحياة من دون أسباب، فالجنين في بطن أمّه تأتيه مقدّرات الحياة دون بذل أيّ جهد، واعتماده على المسبّب وليس على السّبب، ومن الرّحم اشتقّت ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم مِنْ أحدٍ يدخله عملُه الجنَّة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلّا أن يتغَمَّدني الله منه برحمة**»[1]، فلولا رحمة الله ﷻ ما دخل أحد الجنّة بعمله.

أمّا الفرق بين الرّحمن والرّحيم، فالرّحمن أشمل وأوسع. وقد يقول قائل: هل في صفات الله ما هو أشمل وأوسع من بعضها الآخر؟ والجواب: أنّ الّذي يخضع للزّيادة والنّقصان ليس صفات الله وإنّما المتعلّق بصفات الله. يقول النّبيّ ﷺ: «**جعل الله الرّحمة في مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم**

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب الشّين، شريك بن طارق بن سفيان، الحديث رقم (٧٢٢١).

الخلق حتّى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[1]، فرحمته في الآخرة واسعة، لكنّه خصّ بها عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: من الآية : ١٥٦]، أمّا رحمته بعباده في حياتهم الدّنيا فتشمل جميع خلقه؛ لأنّ الله ﷻ في الدّنيا يعطي المؤمن وغير المؤمن، وينزل المطر على الجميع، وتعمّ نعمه جميع عباده، ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك]، ولا يخصّ بقوله هذا المؤمن فقط، بل يرزق المؤمن وغير المؤمن. فالرّحمن في الدّنيا، والرّحيم في الآخرة؛ لأنّ الجنّة لا يدخلها غير المؤمن.

فهو ﷻ رحمن في الدّنيا رحيم في الآخرة، إذاً ليس المقصود أنّ صفات الله ﷻ تقلّ أو تزيد، وإنّما المتعلّق بصفات الله هو من يقلّ ويزيد.

وقيل: اسم الله (الرّحمن) يدلّ على جلائل النّعم، واسم الله (الرّحيم) يدلّ على لطائف المنن.

نعود إلى تدبّر القرآن الكريم، والسّؤال هو: كيف خاطب هذا القرآن البشر عبر العصور؟! وما بين عصر التّنزيل وعصرنا هذا مدّة زمنيّة طويلة، والعقل البشريّ الآن ليس هو العقل البشريّ في القرن السّابع الميلاديّ، ولسنا في نفس المكان والزّمان، فقد تغيّر المكان والزّمان والإنسان.

والقرآن الكريم يتألّف من ستّة آلاف ومئتين وستٍّ وثلاثين آيةً، منها

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب جعل الله الرّحمة في مئة جزء، الحديث رقم (٥٦٥٤).

خمس مئة آية فقط تتعلّق بالصّلاة والصّيام والزكاة والحجّ والميراث والقتال والجهاد، فما هي مواضيع الآيات الأخرى، وعددها أكثر من خمسة آلاف وسبع مئة واثنتين وثلاثين آية؟

إنّها تدور حول السّنن الكونيّة، والقوانين التي نظّم الله تعالى عليها هذا الكون، ومعظم آيات القصص التي نستنتج منها السّنن الحضاريّة، وفيها قوانين المعاش والأجل والتّسخير.. وغيرها.

كان أحد العلماء يتكلّم عن السّنن الكونيّة في درسه فقام أحد الحاضرين وقال له: أيّها الشّيخ! أعطنا درساً عن الطّهارة والوضوء والصّلاة، ما هذا الكلام عن السّنن الكونيّة؟ فأجابه الشّيخ: بالله عليك، كم آية في القرآن الكريم تتحدّث عن الوضوء؟ إنّها آية واحدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾[المائدة: من الآية ٦]، فهل يقتصر حديثنا عن هذه الآية ألف عام ونترك الآيات الأخرى؟

وهذه هي مشكلة الأمّة بسبب الجهل بالقرآن والكتاب.

فعلينا أن نأخذ حظّنا من تدبّر آيات القرآن الكريم كلّها كما أراد الله تعالى دون أن نقتصر على بعضها ونترك بعضاً.

أمّا آيات العبادات والأحكام فقد فسّرها رسول الله ﷺ ولا يمكن لأحد أن يستدرك أو يزيد على رسول ﷺ، فلا يأت مفسّر اليوم ويضيف على كلام النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، والله تبارك وتعالى يقول:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، وقد ترك النّبيّ ﷺ أكثر من (٥٧٠٠) آية للعقل البشريّ، وهي الآيات المتعلّقة بالسّنن الكونيّة والقصص القرآنيّ والآيات العلميّة.

وكلّنا يُجمع على أنّ القرآن الكريم هو كلام الله المعجز في كلّ آية منه، المنزل على سيّدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، المتعبّد بتلاوته، والّذي يبدأ بسورة (الفاتحة) وينتهي بسورة (النّاس).

ولا بدّ لكلّ من يتصدّى لتفسير القرآن الكريم من أن يكون ملمّاً بعلوم معيّنة مثل علوم اللّغة العربيّة بالدّرجة الأولى، فكيف يمكن لمن لا يعرف عن اللّغة العربيّة من ألفها إلى يائها شيئاً أن يفسّر القرآن؟! كيف يمكن للفئات التّكفيريّة الأجنبيّة التي لا تعرف العربيّة أن تفسّر القرآن الكريم وهم لا يمتلكون الشّرط الأوّل للتّفسير وهو العلم باللّغة العربيّة؟! ذلك أنّ القرآن الكريم نزل باللّغة العربيّة، واللّغة العربيّة فيها من الكلمات ما يحمل معانيَ كثيرةً، فمثلاً كلمة: (عين) قد تعني ما نبصر به، وقد تعني عين الماء، وقد تعني الجاسوس. فالكلمة الواحدة لها أوجه متعدّدة. لذلك لا يمكن أن يتصدّى لتفسير القرآن أيّ إنسان، ولا بدّ من امتلاك اللّغة العربيّة، ولا يمكن لمن يصعد منابر المساجد يخطب ويلحن في ضبط كلماته أن يفسّر القرآن الكريم. والخطأ في ضبط وتشكيل الكلمة الواحدة من القرآن الكريم قد يكون فادحاً فمثلاً في قوله ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبة: من الآية ٣] إذا قرأت: (ورسولِهِ) بالكسر بدلاً من الضمّ لتَغيّر المعنى كلّه.

فمعرفة اللّغة العربيّة أساس في تفسير القرآن الكريم.

ومثال آخر في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: من الآية ٥٦]، قد يقول قائل: لماذا لم يقل (قريبة) إذا كان المقصود هو رحمة الله ﷻ؟ والجواب: أنّ القريب هو الله ﷻ وليست الرّحمة.

وكلّ آية في القرآن لها معنى؛ لأنّ القرآن الكريم ليس فيه تكرار، بل فيه أسرار، فمثلاً يقول ﷻ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: من الآية ٣٨] ويقول جلّ وعلا: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾[النّور: من الآية ٢]، فلماذا قدّم السّارق على السّارقة وقدّم الزّانية على الزّاني؟ طبعاً لن يعرف الإجابة من لا يعرف اللّغة العربيّة ولا يعرف مرامي القرآن الكريم ومقاصده. وإنّنا نجد كمالات اللّغة كلّها موزونة في كتاب الله ﷻ المعجز في نظمه وبيانه، وقد قدّم السّارق على السّارقة؛ لأنّ السُّرّاق من الذكور أكثر من السّارقات من الإناث، بينما قد تكون الأنثى بتهتّكها وإغوائها هي السّبب في الزّنا، يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة]، قال الأصمعيّ: قرأت يوماً هذه الآية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ...﴾ وإلى جنبي أعرابيّ فقلت: (والله غفور رحيم) سهواً، فقال الأعرابيّ: كلام مَنْ هذا؟ قلت: كلام الله، قال: ليس هذا بكلام الله، أَعِدْ، فأعدتُ وتنبّهت فقلت: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، قال: نعم هذا كلام الله، قلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمت أنّي أخطأت؟ قال: يا هذا! عزّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

ومثال آخر من الإعجاز اللّغويّ في القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: من الآية ٣١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، والفارق بين الآيتين هو أنّه في الأولى لم يقع الفقر وإنّما يخشى من وقوعه وهم يقتلون أولادهم خشية الفقر، فوعد الله برزق الأولاد أوّلاً، وفي الآية الثّانية الفقر واقع فضمن الله الرّزق للأبوين أوّلاً ثمّ للأولاد.

ومن هذه الأمثلة وأشباهها تبيّن لنا أنّه لا يمكن أن يتصدّى لتفسير القرآن من كان لديه جهالة باللّغة العربيّة.

وهناك شروط أخرى يجب أن يعرفها من يفسّر القرآن الكريم؛ مثل علوم القراءات، والنّاسخ والمنسوخ، وأسباب النّزول، وآيات الأحكام وآيات الجهاد، وأحكام المعاملات والأخلاق. كما أنّه يجب أن يكون عالماً بعصره؛ لأنّنا اليوم في عصر العلم والتّطوّر، ونحن أمام قضيّة العقل والنّقل، والمقصود بالنّقل هي النّصوص المنقولة عن الله ورسوله بالتّواتر، أمّا العقل فهو مناط التّكليف، ولا بدّ للعقل أن يتوصّل للإيمان بالله أوّلاً، ثمّ للإيمان بالنّص ثانياً، ولفهم النّص وتطبيقه ثالثاً، فهذه ثلاثة شروطٍ هامّة جدّاً.

وارتباط الإيمان بالعلم أساسيّ؛ لأنّ معجزة القرآن هي العلم، وأوّل ما أُنزل من القرآن هو قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق]، وليست سورة (الفاتحة) هي أوّل ما نزل من

القرآن الكريم. فانظر إلى كلماتٍ مثل: اقرأ، علّم الإنسان، القلم.. يبدأ الله تعالى بها خطابه للبشر، وهذا يدلّ على علاقة الإيمان بالعلم.

والله ﷻ حين يدعونا إلى الإيمان يطلب منّا أن نعقل ونتفكّر، ونجد ذلك في مثل قوله تعالى في خواتيم سورة (آل عمران): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران]. فهم يتفكّرون ويذكرون ويستدلّون بالعلم، حتّى يصلوا إلى الخشية والتّسبيح وطلب الوقاية من عذاب النّار، فالعلم هو الأساس. وكذلك العقل، فلو أمسكتُ قلماً وكتبت به أمامكم فإنّكم توقنون أنّه قلم بالعلم والعقل والتّطبيق العمليّ، أمّا لو قلت عن القلم: هذا ثعبان، فلن يصدّقني أحد، فإذا دفعت مالاً لبعض الموجودين أو حملتُ السّلاح وأجبرتهم على القول بأنّه ثعبان فإنّهم قد يقولون ما أريد، لكنّ ذلك لن يكون صحيحاً! فلا المال ولا القوّة طريق للإيمان، بل العقل والعلم، والله تعالى يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، ويقول ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية]، فديننا ليس دين إجبار بل هو دين اختيار، فالدّين لا يكون بالإجبار؛ لأنّه عقيدة، والعقيدة تعني عقد الشّيء بالعقل، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، وقد وضع الله لنا أدوات للعلم فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:

من الآية ٣٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النّحل]، فهذه هي الأدوات التي يستنبط منها الإنسان إيمانه، العقل والسّمع والبصر، فعلاقة الإيمان بالعلم علاقة وثيقة ولا إيمان بدون علم. وفي القرآن الكريم ما يزيد عن ألف آية علميّة كونيّة، وهي كالكنوز تحتاج إلى من يستخرجها، واستخراج الكنز يحتاج إلى بحث، وكلّما تطوّر العقل البشريّ اكتشف مزيداً من الأمور العلميّة الموجودة في كتاب الله ﷻ، كقوله تعالى في سورة (الرّحمن): ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرّحمن]، فهي معجزات علميّة مخبوءة في القرآن الكريم.

وقد أخبر ﷻ عن حقائق علميّة كونيّة لا يمكن للعقل البشريّ أن يستوعبها في زمن التّنزيل؛ لأنّها جاءت لغير ذلك الزّمان، وأغلب المفسّرين قالوا: إنّ البحرين يفصل بينهما حاجز من الغيم. وفي زمن الأقمار الصّناعيّة تبيّن أنّ البحرين لا يختلفان في ملوحتهما وكثافتهما ووزنهما ولكن يفصل بينهما حاجز من المياه المختلفة في كثافتها وملوحتها ووزنها عن البحرين. فهذه قضيّة علميّة تُرِكَت حتّى تطوّر العقل البشريّ ليكتشفها، ولو قالها رسول الله ﷺ لأهل عصره لشغلهم عن الهداية؛ لأنّ العقل البشريّ لم يكن ليستوعبها في ذلك الوقت. وكذلك في قوله ﷻ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس: من الآية ٤٠]، فالعقل قد يُخدَع برؤية الشّمس أكبر، وأنّها يسبقها القمر، ولم تكن النّواميس الكونيّة قد اكتُشفت في ذلك الوقت وأنّ

لكلٍّ من الشّمس والقمر مداراً ومساراً، وأنّ دورة القمر أصغر وأسرع. ولو كان هذا القرآن من عند رسول الله ﷺ لما قال كلاماً قد تُثبت الأيّام عكسه، لكنّه كان واثقاً ممّا يبلّغ؛ لأنّه يبلّغ عن الله ﷻ الّذي أيّده بمعجزات علميّة، وبحقائق كونيّة، وبمغيبات تاريخيّة، ببلاغة لغويّة، كما تحدّى النّاس بأخبارٍ مستقبليّة قادمة، وتحدّى العرب من جنس ما نبغوا به في ذلك العصر وهو البيان والبلاغة. وكلّ ذلك ليؤيّد رسوله ﷺ ويُثبت للنّاس أنّه مبعوث من قبله تعالى، وما قوله وعلمه إلّا وحي يوحى. فالآيات القرآنيّة كانت تتنزّل عليه، ينزل بها جبريل عليه السلام ويبلّغها هو للنّاس كما جاءت، ويوجّه النّاس للهداية والعبادة. وتبقى الآيات الكونيّة المعجزة يكتشفها النّاس عبر العصور، قال تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصّلت]. ويبقى المنهج محميّاً بالمعجزة، والمعجزة محميّة بالمنهج، حتّى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن أمثلة الإعجاز التّاريخيّ ما جاء في سورة (الرّوم): ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرّوم]، وهذه الآية تتحدّث عن المعارك بين الفرس والرّوم، فما الّذي دعا النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام أن يقول للنّاس نتيجة المعركة قبل أن تحدث، وقد لا ينتصر الرّوم؟! وكيف يخبر عن غيب قادم في أدنى الأرض؟ كيف عرفت يا سيّدي يا رسول الله بأنّ المعركة بينهما حدثت في أدنى نقطة من الأرض؟ فهذا

إعجاز واضح، وقد تحقّق ما أخبر به ﷺ.

ومن الآيات التي نجد فيها الإعجاز العلميّ قوله ﷻ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النّساء: من الآية ٥٦]، لماذا خصّ الجلود؟ لأنّ الأعصاب تحت الجلد، والإحساس فيها.

ومن هذه الآيات نستنتج أنّ المعرفة العلميّة شرط أيضاً لمن أراد أن يتصدّى لتفسير القرآن الكريم، وعليه أن يكون عالماً بعلوم العصر، ولا يجوز للمفسّر المعاصر أن يكون جاهلاً، لا يعرف علوم الفضاء، ولا يعرف تقنيّات العلم الحديث.

نعم لا يُطلب من المفسّر أن يكون عالم فضاء مثلاً، ولكن على الأقلّ أن يكون مثقّفاً ويعرف ما يجري على الأرض، لا أن يخرج على الشّاشات الفضائيّة كما يفعل بعض الوهّابيّين فيصرّح بأنّ الأرض ليست كرويّة، ويستدلّ بالآية التي تدلّ على كرويّة الأرض بأنّها ليست كرويّة!! وقد يؤلّف بعضهم الكتب في ذلك، وما ذلك إلّا لأنّهم جاهلون بالعلوم.

فمن أراد أن يفسّر القرآن الكريم عليه أن يتحصّن بهذه العلوم، وأن تتوافر لديه أسس التّفسير وشروطه، وأن يكون عالماً باللّغة العربيّة، وبعلم النّاسخ والمنسوخ، وبأسباب النّزول، وأصول الفقه؛ لأنّ القرآن الكريم فيه كثير من آيات الأحكام، ومن لا يعرف أصول الفقه لا يمكن أن يتصدّى للتّفسير.

روي أنّ أبا حنيفة النّعمان عاد أبا يوسف في مرضه، فلمّا خرج قال: (وهو يعرف من هو أبو يوسف): "إن يمت هذا الفتى، فهو أعلم من عليها، ولو أنّنا فقدنا أبا يوسف لخسر العلم خسارة كبيرة"، وكان أبو يوسف من أنبل تلامذة أبي حنيفة وأعلمهم، لزم أبا حنيفة وتفقّه منه، ورويَ عنه ثلثا مذهب أبي حنيفة. و(المذاهب الفقهيّة): علوم استنباط لإنزال النصّ على واقعة معيّنة لاستخراج حكم الله ﷻ، وعلينا أن لا نجعل قدسيّة لفهم البشر، وإنّما القدسيّة لكلام ربّ البشر فقط، والمذاهب قضايا فكريّة وليست أفكاراً طائفيّة. وحين ألَمّ أبو يوسف بفقه أبي حنيفة أراد أن يجعل لنفسه درساً مستقلّاً في أحد مساجد بغداد، ولَمّا علم أبو حنيفة بذلك أراد أن يرسل له رسالة من باب اللّطف لا العنف؛ لأنّ ديننا دين اللّطف، وليس دين العنف، فأرسل إليه شخصاً يسأله: إذا أردت الدّخول إلى الصّلاة هل تدخل بفرضٍ أم بسنّة؟ وقال له: إن قال لك بفرض، قل له: أخطأت، وإن قال لك: بسنّة، قل له: أخطأت. فذهب ذلك الشّخص إلى أبي يوسف وسأله: إذا أردت الدّخول في الصّلاة هل تدخل بفرض أم بسنّة؟ قال أبو يوسف: بفرض، فقال له الشّخص: أخطأت، قال أبو يوسف: بسنّة، قال له الشّخص: أخطأت. وأدرك أبو يوسف أنّ أبا حنيفة هو من أرسل له من يسأله هذا السّؤال، فذهب إليه وقال له: علمت أنّ هذا السّؤال منك، وليس من أحدٍ غيرك، فقال له أبو حنيفة: كيف تبدأ بالتّدريس قبل أن تتقن أصول الفقه؟ فمن يتصدّى للتّدريس والتّفسير يجب أن يكون عالماً بأصول الفقه والقواعد الشّرعيّة.

والجواب على سؤال أبي حنيفة النّعمان: أنّ المسلم يدخل الصّلاة بفرض وسنّة معاً فالتّكبير فرض ورفع اليدين سنّة، وأنت تدخل الصّلاة بالاثنين معاً. وهذه القصّة تعلّمنا أنّ على الإنسان أن يعرف قدر نفسه ومقدار معرفته، فمن أراد أن يتصدّى للتّفسير عليه أن يراعي شروط التّفسير.

كيفيّة التّفسير وقواعده:

أوّلاً- تفسير القرآن بالقرآن: ولا نفسّره مثل الّذين يفسّرون آيات السّيف أو آيات القتال، ويَدّعون زوراً وبهتاناً أنّها تطلب من كلّ مسلم أن يقتل غير المسلمين. حتّى الحديث النّبويّ إذا أردنا أن نشرحه يجب أن نربطه بغيره من الأحاديث، فكيف بكتاب الله تعالى؟ فالقرآن الكريم يفسّر بالقرآن أوّلاً، فمثلاً حين يقول ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]، فكيف نفسّر هذه الآية بأنّ إبليس كان من الجنّ دون العودة إلى سورة (الكهف): ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: من الآية ٥٠]، فلا بدّ للمفسّر من الإحاطة بالقرآن كاملاً فلا يمكن تفسير سورة (الفاتحة) مثلاً مع الجهل بتفسير غيرها من السّور؛ لأنّ هناك الكثير من الآيات يفسّر بعضها بعضاً، فبعض الآيات تعطي المدلول للآيات الأخرى، ومثال ذلك: أنّنا لو أخذنا الآية التي تقول: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: من الآية ١٩١]، أو ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التّوبة: من الآية ٣٦]، فلا

يمكن أن نفصل هذه الآيات عن غيرها في التّفسير، ولا بدّ لمن استدلّ بها على معنى مقصود أن يكون ملمّاً بالظّرف الّذي نزلت فيه، والسّياق الّذي جاءت فيه، والمكان والزّمان اللذين نزلت فيهما. وفي آيات أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: من الآية ٣٢]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، ويقول جل جلاله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، فلا يمكن أن أقتطع الآية القائلة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التّوبة: من الآية ٣٦]، وأقول: إنّني أُمِرتُ بقتال المشركين جميعاً، فهذا تحريف للتّفسير عن المنحى الحقيقيّ وعن مقاصد الشريعة وحقيقة التّشريع الإسلاميّ عندما لا أفسّر القرآن بالقرآن. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أمرتُ أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، ويُقيموا الصّلاة، ويؤتوا الزّكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله**»(١)، فهل معنى هذا بأنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بأن يقاتل النّاس؟ وأنّ علينا أن نقتل كلّ من نقابله من غير المسلمين، وأن نرفع السّيف في وجهه حتّى يقول: (لا إله إلّا الله)؟! كيف يكون ذلك ونحن نقول: إنّ الإسلام لا يجبر النّاس على الإيمان؟ لأنّ الإيمان محلّه القلب فهو: «**ما وقر في القلب**

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، الحديث رقم (٢٥).

وصدّقه العمل»[1] كما قال رسول الله ﷺ، فهو عقيدة؛ والعقيدة تنعقد وتستقرّ في القلب كالعقدة المربوطة، ولا يمكن للإيمان أن ينعقد في القلب إلّا إذا اقتنع به العقل، وقد جعل الله لنا السّمع والأبصار والأفئدة من أجل أن نعقل ثمّ نؤمن نتيجة العلم اليقينيّ الّذي توصلنا إليه. والقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النّحل]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء]، ويقول ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[آل عمران: من الآية ١٥٩]، ولم يقل: (اقتلهم).

ولو فهمنا أنّ القرآن لا يفسّر إلّا بالقرآن أوّلاً لما استطاع هؤلاء الّذين أرادوا أن يستغلّوا الدّين لمصالح سياسيّة أن يقنعوا أحداً بمآربهم، من أمثال التّنظيمات الإرهابيّة. ونبيّنا ﷺ يقول: «**ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به**»[2]، ويقول ﷺ: «**دخلت امرأة النّار في هرّة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»[3] ولا يمكن لهذا الدّين أن يقرّ بقتل نملة فكيف بقتل إنسانٍ؟!! وعلى أيّ شيء؟ على

---

(١) مصنّف ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان والرّؤيا، الحديث رقم (٣٠٣٥١).

(٢) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب الألف، أنس بن مالك الأنصاريّ، الحديث رقم (٧٥١).

(٣) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الخلق، باب خمسٌ من الدّوابّ فواسق يُقتلن في الحرم، الحديث رقم (٣١٤٠).

دينه؟ والدّين اعتقاد، والدّين هداية، والله ﷻ يقول: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[النّحل: من الآية ١٢٥]، ولم يقل: (جادلهم بالسّيف)، ولم يقل: (اقتلهم)..

فإذا مرّت معنا آية من الآيات لا نحملها على كلّ الآيات؛ لأنّنا نفسّر القرآن بالقرآن والآيات يكمّل بعضها بعضاً، ويفسّر بعضها بعضاً.

ثانياً– تفسير القرآن بالسنّة: فالقرآن يفسّر بالقرآن أوّلاً ويُفسّر بالسنّة ثانياً، والرّسول مبلّغ عن الله ﷻ وهو الّذي لا ينطق عن الهوى، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال]، وفي آية أخرى يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾ [النّور: من الآية ٥٦]، وفي آية أخرى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، فلماذا نُطيع الرّسول ﷺ طالما أنّ الله ﷻ قال: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾[الأنعام: من الآية ٣٨]، الجواب: الله ﷻ يعلّمنا أنّ الرّسول ﷺ ليس مجرّد ناقل، بل هو مبلّغ عن الله ﷻ وحيه، وهو أيضاً الوحيد المشرّع للأمّة.

وكلمة (سنّة) مِن: (سنّ) فنقول: (سنّ سنّة حسنة...)، وسنّة النّبيّ تعني: أقواله وأفعاله وإقراره وكلّ ما يتعلّق به ﷺ، وقد قال ﷻ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: من الآية ٢١]، ولم يقل: (برسول الله)؛ لأنّ الباء تفيد التّبعيض، وعندها نأخذ عن رسول الله ﷺ ما جاء بالوحي فقط في القرآن الكريم، لكن قوله ﷻ: ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ تعني كلّ شيء عنه ﷺ،

كلامه وأفعاله وإقراره، كلّها فيها الأسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وليس لمن يطلب الحكم ويُنشئ التّنظيمات السّياسيّة والمجموعات المسلّحة ويقتل النّاس ويدّعي أنّه ينشر الدّين، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس]، وهذه الآية تجيب عن كلّ ما يطرح من الأسئلة، ولو أراد الله هدايتهم لهداهم من غير أن يأمرنا بأن نحمل السّيف ونقاتلهم.

وسلوك النّبيّ ﷺ هو الدّليل العمليّ والشّاهد النّاطق والمثال الحيّ لما في القرآن الكريم من أوامر وأحكام فسنّته خير تفسير لكتاب الله ﷻ.

وإذا مرّت معنا أثناء التّفسير آيات تحمل أوجهاً متعدّدة، أو آيات من متشابه القرآن، فإنّنا نبحث عن تفسيرها في القرآن الكريم أوّلاً، وفي السنّة النّبويّة وسيرة رسول الله ﷺ ثانياً. ولا يمكن لمن لم يدرس السّيرة النّبويّة أن يفسّر القرآن الكريم، فالقرآن الكريم نزل على رسول الله ﷺ وهو المكلّف بتبليغه وهو أولى النّاس بتفسيره. وفسّر النّبيّ ﷺ القرآن الكريم سلوكاً وحالاً ومعاشاً، ورفع الصّحابة الكرام إلى مستوى القرآن الكريم في عصره فكانت نهضة الأمّة، بينما نحن في عصرنا هناك من يريد أن يهبط بالقرآن الكريم إلى مستواه، وفي هذا انحطاط للأمّة، كأصحاب الإرهاب والتّطرّف.

والأمّة العربيّة والإسلاميّة في زماننا الحالي تمرّ بأزمة شديدة لم تواجه مثلها من قبل، تواجه فيها مؤامرة خطيرة على الإسلام عامّة، وعلى سورية والعرب خاصّة، وقد حدث دمار وخراب وقتل في بلادنا تحت شعارات

وآيات فسّرت الدّين وفق أهواء المتآمرين زوراً وبهتاناً بحجّة أنّهم يريدون الخلافة الإسلاميّة. وفي القرآن الكريم كلّه لم ترد آية واحدة تتعلّق بأحكام الخلافة، ولم يأت النّبيّ ﷺ بحديثٍ واحد يتحدّث فيه عن شروط الخلافة، أو عن شروط الخليفة من بعده. وفي كلّ كلمة وموقف منه ﷺ نستنتج قواعد ناظمة وضوابط عامّة، فنجده لم يضع برامج خاصّة، فقال عن أمور الدّنيا: أنتم أعلم بشؤون دنياكم. أمّا الأمور المتعلّقة بالسّياسة والحكم نراه قد نَظَم قواعد عامّة للحاكم والمحكوم من الشّورى والأخلاق والعدل والخير والإحسان وغيرها... ولم يضع قوالب جامدة تقيّدهم.

فإذا أردنا أن نفسّر القرآن الكريم يجب أن نعود في كلّ أمر إلى فعل النّبيّ ﷺ، وبالمقدار الّذي اهتمّ به القرآن واهتمّ به النّبيّ ﷺ يجب أن يكون اهتمامنا.

وفي القرآن الكريم هناك قضايا جاءت في آية أو آيتين فقط، وهناك قضايا أعطاها أربعة آلاف آية، مثل: قضيّة العلم التي شغلت حيّزاً كبيراً في القرآن الكريم، والله ﷻ يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾[العنكبوت: من الآية ٢٠].

نعود إلى تفسير القرآن بالسّيرة النّبويّة، فمثلاً عندما دخل رسول الله ﷺ إلى مكّة فاتحاً، ماذا فعل مع أهل مكّة، وماذا فعل عندما ذهب إلى المدينة، وكيف كان التّشريع المكّي، وماذا طلبت الآيات من المسلمين في المدينة، وكيف كان التّدرّج في الأحكام عند البدء بتحريم أمرٍ من الأمور مثل الخمر مثلاً التي حُرّمت بالتّدريج، وما هي السّنن والطّرائق

التي استخدمها رسول الله ﷺ بوحي من ربّه؟ وقلنا إنّ تمام عظمة رسول الله تكمن في أميّته؛ لأنّه أخذ العلم عن ربّه مباشرة: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النّساء: من الآية ١١٣]، بينما الأميّة نقص إن اتّصف بها غيره. ونحن نعيب على الأمّيّ أمّيته، ونمتدح رسول الله عليه الصّلاة والسّلام بأنّه أمّيّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [النّساء: من الآية ١١٣]، لم يعلّمه إلّا ربّه، ولم يدخل أيّ خلل على علومه، فصار معلّماً لكلّ علماء الأرض.

يا أيّها الأمّيّ حسبك رتبة في العلم أن دانت لكَ العلماء

وتلقّى القرآن عن ربّه فأدهش أكبر البلغاء في عصره، كما قال الوليد ابن المغيرة واصفاً القرآن الكريم: (ووالله إنّ لِقَولِهِ الّذي يقولُ حلاوةً، وإنّ عليه لطلاوةً، وإنّه لَمُثمرٌ أَعلاه مُغدِقٌ أسفله، وإنّه لَيَعلُو وما يُعلَى، وإنّه لَيَحطِمُ ما تحته)[1]، وقال ﷺ عن القرآن الكريم: «**هو الّذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرَّدّ، ولا تنقضي عجائبه...**»[2] فاستطاع مع أمّيّته ﷺ أن ينهل من كمال العلم الإلهيّ، ولولا الأمّيّة ما كان له ذلك. وما دام الله ﷻ قد أذن للنّبيّ ﷺ بالتّشريع فهناك أمور لم ترد في القرآن الكريم وإنّما جاءت في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، وجاء الأمر بأداء الفرائض مجملاً في قوله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ

---

(١) المستدرك على الصّحيحين: كتاب التّفسير، تفسير سورة (المدّثر)، الحديث رقم (٣٨٠٠).

(٢) سنن التّرمذيّ: كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن، الحديث رقم (٢٩٠٦).

﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: من الآية ٤٣]، أمّا دقائق الأحكام كعدد الركعات ونصاب الزكاة ومناسك الحجّ وأحكام الصّوم، وغير ذلك، فقد بيّنتها سنّة رسول الله، فلا يمكن فصل القرآن الكريم عن النّبيّ ﷺ كما لا يمكن فصل الرّسالة عن المرسَل إليه، وقد قال ﷻ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: من الآية ٧]، والآية تصلح لكلّ زمان؛ لأنّ رسول الله ﷺ موجود فينا بسنّته وتفسيره للقرآن الكريم، بأفعاله التي هي الشّرع الّذي يتوافق مع روح النّص ومقاصد التّشريع من (حفظ النّفس والعقل والمال والنّسل والدّين). وقد أوصى رسول الله ﷺ أمّته في حجّة الوداع قائلاً: «**فإنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربّكم، ألا هل بلّغت**»[1]. وسنّة الرّسول ﷺ وأحاديثه تعطي مؤشّرات التّفسير للآيات التي تحمل أوجهاً متعدّدة، فهي التي تفصّل المجمل وتقيّد المطلق من كتاب الله تبارك وتعالى.

وقد نتساءل لماذا جاءت هذه الآيات عامّة في ألفاظها ولم تأت مفصّلة مباشرة؟ والجواب: هو أنّها لو جاءت وفسّرت كلّ شيء في عصر التّنزيل لتوقّف عطاء القرآن في بقيّة العصور، وما دام عطاء القرآن سيبقى مستمرّاً، كان لا بدّ من أن يكون مكتنزاً يستخرج منه كلّ جيل عطاءه الخاصّ به، المناسب لعصره، المفيد لدنياه. وكان لا بدّ لمن يتصدّى للتّفسير أن يعرف **سنّة رسول الله** ﷺ وما ورد فيها من أقوال وأفعال وإقرار، فهي

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الحجّ، باب الخطبة أيّام مِنى، الحديث رقم (١٦٥٤).

جزء لا يتجزّأ من التّفسير.

ثمّ بعد ذلك لا بدّ من **معرفة أقوال الصّحابة**، فهم البيئة التي أحاطت بالنّبيّ ﷺ، وهم خير القرون، هم الّذين صدّقوه وأخذوا عنه، وعاشوا معه الأحداث الهامّة يوماً بيوم، هم الّذين عايشوا تنزّل آيات القرآن الكريم، مثل قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: من الآية ١٠]، وهي آية نزلت في فئة من المهاجرين والأنصار الّذين شهدوا بيعة الرضوان وذُكِرُوا في القرآن الكريم، فنأخذ من فهمهم لكتاب الله ﷻ.

ومن شروط التّفسير **المعرفة بعلوم العصر**، وهو أمر ضروريّ جدّاً؛ لأنّ مخاطبة النّاس في كلّ عصر تختلف عن مخاطبتهم في العصور الأخرى، فالإله واحد والقرآن واحد والتشريع واحد، لكنّ العقل البشريّ يختلف من عصر إلى آخر، والفهم البشريّ متجدّد ومتطوّر.

وهذه الكمالات الموجودة في كلام الله ﷻ تغذّي الأفهام والألباب في كلّ وقت، وتقدّم لها ما يناسب ظروفها وزمانها بما يزيد إيمانها، فمثلاً يصف الله تعالى الشّمس بالسّراج الوهّاج، والقمر بالمنير، ولم يكن النّاس يعرفون الفرق بين الصّفتين، بينما الآن صار يُعرف أنّ القمر تابع للأرض يدور حولها ويستمدّ نوره من الشّمس، وأنّ الشّمس كتلة نار متوهّجة مضيئة بذاتها. والّذي تلقّى هذا الكلام في عصر التّنزيل لم يصعد إلى القمر، ولم يكن عالماً بالفلك، لكنّ العصور التّالية كشفت هذا الإعجاز.

وهناك آيات من سورة (الأحزاب) تتحدّث عن أسس العلاقة بيننا

وبين رسول الله ﷺ فيقول ﷻ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]، فعلاقتنا مع النّبيّ ﷺ ليست علاقة نسب ونبوّة، بل علاقة رسالة ونبوّة، ولو كان هناك نبيّ بعد رسول الله ﷺ لما كان هناك خلود للرّسالة، فانظروا إلى هذا الإعجاز البسيط المعجز للألباب، وهذا الحديث عن غيب قادم سيحدث أمامهم وسيرونه يقيناً، وانظروا إلى قوله ﷻ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ ولم يقل من أبنائكم؛ لأنّه ﷺ كان أباً لابنه إبراهيم الّذي توفّي صغيراً ولم يكن رجلاً. ولم يكتف البيان القرآنيّ بالقول: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾، بل أضاف: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾، فما الفرق بين الرّسول والنّبيّ؟

الرّسول يحمل رسالة من الله ﷻ إلى النّاس ليبلّغهم إياها، أمّا النّبيّ فتأتيه النّبوءة من الله ﷻ ولا يؤمر بالتّبليغ، وكلّ رسول نبيّ وليس كلّ نبيّ رسولاً، أمّا خاتم النّبيّين والمرسلين فهو محمّد ﷺ، وليس هناك أحد غيره له هذه الصّفة على الإطلاق، فعلاقتنا معه ﷺ علاقة رسالة وختم للنّبوّات يعني خلود هذه الرّسالة، أي أنّ هذه الرّسالة ستبقى معجزة إلى آخر الزّمان: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

وفي قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب]، إشارة علميّة: فقد وصف الله ﷻ الشّمس بالسّراج ووصف القمر بالمنير، وجمع الصّفتين لرسول الله عليه الصّلاة والسّلام، ولم يصفه بالوهّاج؛ لأنّ الوهّاج يؤذي العين، أمّا أنوار

النّبيّ ﷺ فهي لا تؤذي، وهذا الكلام لا يمكن إلّا أن يكون من عند ربّ العالمين؛ لأنّه جمع في الكلمة بين المعنى والمبنى، والإعجاز اللّغويّ قد يكون في كلمة واحدة كما في قوله تبارك وتعالى عن الأرض: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: من الآية ١٩]، وليس هناك شكل هندسيّ ممدود إلّا الكرة، فهذه الكلمة تُثبت أنّ الأرض كرويّة، ولا يمكن تفسير القرآن لمن لا يعرف هذه الأمور.

وهذا القرآن من عند الله ﷻ، منزل على رسول الله ﷺ، فكيف نثبت بأنّ القرآن الكريم هذا هو نفسه الّذي نزل على النّبيّ ﷺ، وأنّه من عند الله ﷻ؟ ونجيب بقولنا: إنّ الله تبارك وتعالى تكفّل بحفظ كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، فإذا كان المحاوِر غير مؤمن بالله فأمامنا خطوتان، الأولى: أن نثبت له أنّ هذا القرآن من عند الله، والثّانية: أن نثبت بأنّه محفوظ بأمر الله كما نزل على رسول الله ﷺ.

أمّا الخطوة الأولى فنوصله إليها عن طريق الإعجاز البيانيّ واللّغويّ والتّشريعيّ والتّاريخيّ والعلميّ والبيئة التي نزل فيها القرآن الكريم، وكلّها تثبت أنّ هذا ليس ولا يمكن أن يكون من عند بشر: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النّساء: من الآية ٨٢]، وهناك مثال بسيط في القرآن الكريم عن الإعجاز في الكَلِم، فمثلاً: كلمة إبراهيم وردت في سورة (البقرة) بدون ياء: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: من الآية ١٢٤]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: من الآية ١٢٦]، وغيرها من الآيات التي وردت فيها كلمة إبراهيم، وفي سورة (إبراهيم) وردت مكتوبة

بالياء: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٥]، وفي كلّ القرآن الكريم ترد كلمة إبراهيم بالياء، إلّا في سورة (البقرة) وردت بلا ياء، وذلك لأنّ العرب كانت تتصرّف في الأسماء الأعجميّة، فتارة تقول عن إبراهيم: إبراهام أو إبرهم، فجاء رسم المصحف موافقاً في سورة (البقرة) لجميع ما يمكن أن يتصرّف من الكلمة، من دون ياء بين الهاء والميم، فإن زيدت ياء بينهما صارت إبراهيم، وإن زيدت ألف صارت إبراهام، وفي هذا دليل للعرب الأقحاح على معرفة القرآن لدقائق لغتهم(١).

ومثال آخر في كلمة (شجرة) وما ماثلها ممّا كتب بالتّاء من هاءات التّأنيث، وكتبت كلمة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من دون ألف، وكتبت كلمة: ﴿الٓمٓ﴾ متّصلة ونقرؤها بهجاء الحروف المقطّعة، وكذلك: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم].. وغيرها، وقد بعث النّبيّ ﷺ إلى قوم هم سدنة البلاغة وسادة اللّغة، ويجعلون المعلّقات على جدار الكعبة، فتحدّاهم الله ﷻ بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣﴾ [البقرة: من الآية ٢٣]، وهو ﷺ لم يغيّر شيئاً ممّا أنزل عليه، بل أمر كتّاب الوحي أن يكتبوا الكلمات بهذا الشّكل ليثبت أنّها من عند الله، وبقيت كما نزلت وكما كتبت.

وما زال رسم المصحف الشّريف إلى يومنا هذا محفوظاً بفضل الله تعالى كما نزل على قلب محمّد ﷺ، ولو كان هناك أيّ تحريف لتوحّدت

---

(١) قرأ هشام بن عمّار فيما رواه من قراءة عبد الله بن عامر الشّاميّ: إبراهام بالألف في مواضع سورة (البقرة) كلّها، وهي قراءة الشّاميّين.

المعايير ووحّدت كتابة هذه الكلمات، ولو كان من عنده لما عاتبه الله ﷻ كما جاء في بعض السّور، من مثل قوله ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التّوبة: من الآية ٤٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التّحريم: من الآية ١]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٧].

وكلّ ذلك يدلّ على أنّنا أمام إعجاز في النّظم والمعنى والعلم والبلاغة، ومنذ ذلك الوقت بقي القرآن معجزاً بتلاوته وكلامه وتحدّى العرب جميعاً. كما أنّه لا يمكن لأيّ إنسان على وجه الأرض أن يكتب كتاباً ويقول عنه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[البقرة]، فلا يجرؤ إنسان على قول هذا عن كتابه. وكلّ هذه الكلمات إلهيّة المصدر وتثبت أنّ هذا الإعجاز لا يزال محفوظاً على مرّ الزّمان، محفوظاً في الصّدور أكثر من السّطور، ومئات الآلاف من الحفّاظ يحفظونه مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

❀ ❀ ❀

تفسير سورة (الفاتحة)

تفسير سورة (الفاتحة)

بعد أن وضعنا الأسس والقواعد الأساسيّة لفهم وتدبّر القرآن الكريم، والآداب المتّبعة عند قراءة وتلاوة وتدريس وتفسير القرآن الكريم، نقف عند قوله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[العنكبوت: من الآية ٤٩]، فلماذا خصّ الله ﷻ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾؟ لأنّ أهل العلم وحدهم المخوّلون بتفسير القرآن الكريم، وقد حذّر النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام ممّن يقول في القرآن الكريم برأيه.

وديننا دين العلم، فبدأ الإسلام بقوله ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ﴾[العلق: من الآية ١]، وأمر بالإيمان بقوله ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: من الآية ١٩]، ويتوصّل إلى الإيمان بالقراءة والعلم، ولا يكون بالقهر والإجبار، ولا بالإكراه والتّرهيب، وإنّما بالعلم.

وأوّل سورة في ترتيب المصحف الشّريف هي سورة (الفاتحة)، وليست ﴿ٱقْرَأْ﴾، وترتيب المصحف توقيفيّ إلهيّ من الله ﷻ عن طريق جبريل عليه السلام.

وهذا القرآن هو كلام الله ﷻ المنزل على عبده محمّد ﷺ، وهو كلام معجز في تلاوته ورسمه ونظمه وترتيبه.

وترتيب الآيات في القرآن الكريم لها علاقة بالقائل، والقائل جلّ شأنه هو الله ﷻ، «... **وفَضلُ كَلامِ اللهِ على سائرِ الكَلامِ كفَضلِ الله على خَلقِه**»(١)، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب فضائل القرآن، باب رقم (٢٥)، الحديث رقم (٢٩٢٦).

خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الحشر]، فإذا كان الجماد يخشع فكيف إذا نزل القرآن على قلب بشر؟ سيكون الخشوع أكبر، والاستفادة من كتاب الله أكثر.

فترتيب سورة (الفاتحة) ووصفها له أسرار، وهي السّورة التي لا تصحّ الصّلاة بدونها لحديث: «لا صلاة إلّا بأمّ الكتاب»[1]، يكرّرها المصلّي في كلّ ركعة، وهي أمّ القرآن، والأمّ أصل الشّيء، فسورة (الفاتحة) أصل القرآن الكريم. وهي سورة قصيرة تتألّف من سبع آيات.

(الآية ١) - ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾:

البسملة جزء من (الفاتحة)، افتتحت بها، ووضعت في بداية بقيّة السّور من غير أن تكون جزءاً منها، بينما هي آية من (الفاتحة).

والرّحمة مشتقّة من الرّحم، والرّحمن أوسع من الرّحيم؛ لأنّ الله يتجلّى باسمه (الرّحمن) فتشمل رحمته المؤمن والكافر، والدّنيا والآخرة، وهي صفة لا يتّصف بها إلّا الله ﷻ، ولا يمكن لأحدٍ أن يسمّي نفسه (رحمن) بل نقول عن الإنسان إنّه (عبد الرّحمن)، أمّا الرّحيم: فيمكن أن يتّصف بها البشر، وقد قال ﷻ يصف رسول ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التّوبة]، فلم يقل عنه: إنّه (رحمن رحيم)، فليس لأحد من البشر أن يكون (رحماناً)، لكنّه

---

(١) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب الحيض، باب من قال يقرأ خلف الإمام فيما يجهر فيه بالقراءة بفاتحة الكتاب، الحديث رقم (٢٧٦٢).

يستطيع أن يكون (رحيماً) له نصيب من الرّحمة. وإنّ صفات الله ﷻ لا تزيد ولا تنقص، له الكمال المطلق، ولكنّ المتعلّق بالصّفة يزيد وينقص، ورحمة الله ﷻ في الدّنيا تشمل المؤمن والكافر، والعاصي والفاسق، فالشّمس تشرق على كلّ النّاس ولا تخصّ المؤمنين، والغيث يصيب كلّ الناس، وليس للمصلّين منهم، والهواء موجود يتنفّسه المؤمن وغير المؤمن، فالله ﷻ رحمن في الدّنيا لكلّ البشر، أمّا في الآخرة فهو رحيم، يُدخل المؤمنين الجنّة، ويُدخل الكافرين النّار، فمتعلّق الرّحيم بالآخرة هو المؤمن فقط.

وقد رأينا أنّ كلَّ كلمة في كتاب الله ﷻ لها أسرارها، وقد جاءت العبادات والمعاملات والعقائد والأخلاق في القرآن الكريم مكتملة، وفسّرها النّبيّ ﷺ، فلا تحتاج إلى زيادة ولا نقصان: فالصّلاة خمسة أوقات، فلا يأتِ أحدٌ فيفسّرها على أنّها أربعة أوقات.. ولا يخرج أحدٌ في رمضان إذا كان الجوّ حارّاً ليجعل صوم اليوم مثلاً ثلاث عشرة ساعة بدلاً من أن يكون من الفجر إلى الغروب...

فقد قال ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[المائدة: من الآية ٣]، فهذا هو التّمام والكمال في العبادات، وليس لأحدٍ أن يستدرك على رسول الله ﷺ. ولكن هناك أكثر من (٥٠٠٠) آية في القرآن الكريم هي آيات علميّة كونيّة، هي من كنوز القرآن الكريم، فمن يستطيع أن يستخرجها؟ إنّهم أولو العلم حصراً، وكلمة آيات تعني معجزات، فهي معجزات في صدور الّذين أوتوا العلم، وبما أنّ العقل البشريّ يتطوّر فإنّه

يستطيع أن يستخرج من كنوز القرآن ما يُناسب ذلك التّطوّر في كلّ زمان، ولا يستطيع أن يفعل ذلك من لم يكن عالماً باللّغة العربيّة وبعلوم الكون.

لذلك وقع كثير من أهل الضّلال في الخطأ حين أرادوا أن يفسّروا القرآن الكريم وفق أهوائهم الشّخصيّة، فانحرفوا بضلالاتهم وانحازوا عن الطّريق القويم، وعن الصّراط المستقيم، فضلّوا وأضلّوا.

(الآية ٢-٣) - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾:

هنا يَرِدُ سؤالٌ: هل هذا تكرار؟! وقد قلنا: إنّ القرآن الكريم ليس فيه تكرار بل أسرار، وهذا الإعجاز لا يمكن أن يكون في غير كلام الله تعالى، وهناك أمثلة تدلّ عليه مثل قوله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: من الآية ١١]، وهذه آية نزلت على قلب سيّدنا محمّد ﷺ، وفي وقت النّزول لم تكن هناك مشكلة في فهم الآية، ولكنّ العقل محدود التّصوّر، والقرآن الكريم ليس له حدود، فكلام الله من صفات الله ﷻ، ولذلك رفض الإمام أحمد بن حنبل أن يقول: إنّ القرآن الكريم مخلوق؛ لأنّه من صفات الله ﷻ، وهو محقٌّ في موقفه ذلك.

ونعود إلى قول الله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لم يقل: (على الأرض)، مع أنّنا قد نقول: إنّنا نسير على الأرض، وقد سمع العرب هذه الآية حين نزولها وهم أهل بلاغة، سمعوها وقبلوها؛ لأنّها لا تُصادم العقل البشريّ في القرن السّابع الميلاديّ في شبه جزيرة العرب، فحملوها على المقصود لغة، أي: سيروا في كلّ أماكن الأرض، أمّا الآن وفي القرن الواحد

والعشرين أصبحنا نعلم أنّ الأرض ليست هي الكرة الأرضيّة فحسب، وإنّما تشمل الغلاف الجوّيّ المحيط بها، فهو جزء من الأرض، فأنت لا تسير على الأرض، وإنّما في الأرض، ولا تخرج من الأرض إلّا إذا خرجت مخترقاً الغلاف الجوّيّ المحيط بها. والقائل هو الله ﷻ، وهو العالم والخالق والعليم، وكلّ حرفٍ يأتي به له دلالة، ولا بدّ من أن نفسّر كلّ كلمة بالمعنى الحرفيّ اللّغويّ والاصطلاحيّ، وبالمعنى العلميّ بما يُناسب العلم.

ومثالٌ آخر على إعجاز القرآن في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشّورى: من الآية ٢٥]، فلماذا لم يقل: (يقبل التّوبة من عباده)؟ والقرآن الكريم ليس هو كلماتٍ صيغت من أحرف الهجاء فقط، وإنّما هو روح تسري داخل هذه الكلمات، وقد قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، قال: ﴿رُوحًا﴾ ولم يقل: كلمات؛ لأنّ الكلمات تُستعمل أحياناً ويُهجر بعضها أحياناً أخرى، شأنها شأن الكائنات من إنسان وحيوان ونبات، ولكن كلمات القرآن الكريم باقية أبداً، حيّة منذ نزولها حتّى الآن؛ لأنّها روح تشعّ. والّذي يقبل التّوبة (عن عباده)، وليس (من عباده)، هو الله ﷻ، وهذا يثبت أنّ القرآن الكريم ليس من عند رسول الله ﷺ، وليس هو من قول البشر، والله ﷻ يقول: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: من الآية ٢٣]، فمن يستطيع أن يتحدّى عطاء القرآن؟ أمّا قوله ﷻ: ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فلأنّه ربّ البشر، وفي الآية دعوة للمسيء إلى المبادرة بالتّوبة، أي: التّوبة من

عباده وعن الّذين لم يتوبوا بعد، فتوبوا حتّى أقبل توبتكم. فهذه دعوة إلى التّوبة أشار إليها حرف واحد (عن).

وهناك مثال آخر عن الإعجاز في قوله ﷻ في خطاب عيسى عليه السلام لربّه في سورة (المائدة): ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]، ولم يقل: (فإنّك أنت الغفور الرّحيم)، ولو قال ذلك فكأنّه يجبر الله ﷻ بأن يغفر لهم ويرحمهم، وهذا يتنافى مع الأدب في خطابنا مع الله عز وجل، فقال: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الّذي يستغني عن عبادة خلقه، فقال: العزيز: أي إنّك مستغنٍ عن عبادتهم، وأنت حكيمٌ في قرارك: تضعهم في النّار أو تغفر فتضعهم في الجنّة، وهذا أدب الخطاب الإلهيّ.

فهذا القرآن كلام الله ﷻ، وهو كلامٌ مقدّسٌ معجِزٌ، ولا يمكن للفصحاء والبلغاء والعلماء في كلّ الأزمان أن يصلوا إلى عطاءات وكمالات كتاب الله ﷻ كلّها.

ومثالٌ آخر في قوله ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشّعراء]، ولا يمكن لأيّ بشر في الدّنيا أن تخطر في باله هذه اللّطائف البسيطة الدّقيقة المعجزة الهامّة جدّاً، فعند قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أتى بكلمة (هو) للتّأكيد على أنّ الهداية من عند الخالق ﷻ؛ لأنّ الكثير من البشر قد يقول: أنا أهدي، فالمعلّم قد يقول: أنا أهدي، وعالم الشّريعة

قد يقول ذلك، والخطيب والواعظ... ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ [النّمل: من الآية ٨١]، فأراد الله ﷻ أن يؤكّد بأنّ الهداية الأصليّة من عنده، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾، ومن ثمّ قال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾، ولم يقل: أبي وأمّي هما اللّذان يأتياني بالطّعام والمال والرّزق، بل قال: (هو) يعني (ٱللَّهُ)؛ لأنّ الرّزق من الله ﷻ، ثمّ قال: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾؛ ليؤكّد على أنّ الشّافي ليس هو الطّبيب ولا الدّواء، مع أنّنا نحتاج إلى الطّبيب والدّواء، فالطّبيب يُداوي بعلمه والشّافي هو الله ﷻ، كما قال الشّاعر:

إنَّ الطّبيبَ لهُ علمٌ يُدِلُّ بِه ... إن كان للمرءِ في الأيّامِ تأخيرُ
حتّى إذا ما انتهت أيّامُ رحلتِه ... حارَ الطّبيبُ وخانتــه العقاقيرُ

فأنت مأمور باستشارة الطّبيب، ولكنّك تؤمن في قلبك بأنّ الشّافي هو الله، فاستخدم: ﴿فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ للتّأكيد على ذلك، أمّا في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾، فلم يستخدم (هو)، ولم يقل: (هو يميتني وهو يُحييني)؛ لأنّ الإماتة والإحياء لا ينسبهما أحدٌ لنفسه، وعندما قال النّمرود كما أخبر ﷻ: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]، قال له سيّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِۖ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]، فهذه حالة شاذّة خاصّة وفرديّة بالنّمرود، فمن طبيعة البشر أن لا يقول أحدٌ لغيره: أنا أميتك وأنا أُحييك، فلا

الوالدان يقولان ذلك، ولا غيرهما، ولذلك لم يكن هناك من داعٍ للتّأكيد بكلمة (هو)، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾؛ لأنّه لا أحد يقول: أنا أغفر الخطايا، فالله ﷻ وحده هو الّذي يغفر ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٥]، وليس هناك داعٍ أيضاً لكلمة (هو)، وهذا في منتهى الدّقة من التّعبير، وهي دقائق مهمّة جدّاً في كلّ مناحي التّفسير.

وفي سورة (إبراهيم) يقول ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، وفي سورة (النّحل) يقول جلّ جلاله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النّحل]، والقرآن غنيّ بالأسرار وليس فيه تكرار، والآية الأولى انتهت بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾، والثّانية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لأنّ الحديث عن النِّعم يتعلّق بأخذٍ وعطاء، فالمعطي هو الله ﷻ، والآخذ هو الإنسان، ففي المرّة الأولى كان الحديث عن الآخذ، وكثير من النّاس يجحدون نعمة الله تبارك وتعالى فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾، وفي الآية الثّانية كان الحديث عن المعطي، فناسب أن يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. وفي سورة (التّوبة) يقول ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾[التّوبة]، وإذا كانت الواو حرف عطف فلا يكون عطف مرفوع على منصوب، ولو كانت الآية من عند أحدٍ من البشر لنصب (كلمةُ) الثّانية؛ لأنّ (كلمةَ) الأولى مفعول به منصوب، ولكنّ الله ﷻ هو القائل، ولا تُقارن (كلمة الله) مع ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فجعل (كلمةُ) الثّانية مضمومة على الابتداء(١).

وفي سورة (طه) يقول ﷻ: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾[طه: من الآية ٦٣]، فلم تعمل (إن) بمعنى (إنّ) فلم تنصب الأولى؛ لأنّ السّحر لم يفعل مفعوله في موسى عليه السلام، ومن المناسب أن لا تعمل (إن) فلا تنصب، وهناك قراءة أخرى وردت فيها (إن) عاملة فقرئت (إنَّ هذين لساحران)(٢).

وهناك آيتان في القرآن الكريم عن السّحرة الّذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ [الأعراف]، وفي آية أخرى جاءت: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه]، فلماذا جاء ذكر هارون هنا قبل موسى عليه السلام، وهو الرّسول وصاحب الرّسالة ومن الأنبياء أولي العزم، وهارون ليس صاحب رسالة، وجاء ذكره مرّة قبل موسى ومرّة بعده؟

---

(١) لذلك الوقف أولى عند قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ﴾، ومن ثمّ الابتداء بـ ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾.

(٢) قرأ أبو عمرو البصريّ: ﴿إنّ هذين لساحران﴾، وقرأ غيره عدا حفص وابن كثير: ﴿إنّ هذان لساحران﴾، وقرأ حفص وابن كثير: ﴿إنْ﴾ بنون ساكنة مخفّفة.

لأنّ السّحرة كانوا جماعة كبيرة، وليس من المعقول أن يكون جميعهم قال كلمة واحدة؛ فقسم منهم قالوا: آمنّا بربّ هارون وموسى، وقسمٌ آخر قالوا: آمنّا بربّ موسى وهارون... وأيضاً روعي في قوله: (هارون وموسى)، و(موسى وهارون) تناسب فواصل الآيات.

وبعد هذه الإضاءات لا نزال في بدايات سورة (الفاتحة)، نجول في خواطرنا حول عطاءات وكمالات كتاب الله ﷻ؛ لنستطيع أن نسير في التّفسير سيراً علميّاً دقيقاً موزوناً يناسب عصرنا، ونستمدّ من كلام الله تعالى ما أراده الله ﷻ من هدى ومن خيرٍ للبشريّة، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحج]، فدعوتنا هي دعوة الخير للغير والمحبّة والتّسامح لكلّ النّاس. ومجامع الخير ومفاتيحه هي في كلام الله في القرآن.

وقد تحدّثنا عن الإعجاز العلميّ واللّغويّ في هذا الكتاب.

وقد جاءت رسالة كلّ نبيّ من الأنبياء السّابقين لمجتمع معيّن لتعالج داءً معيّناً. وقد يكون في العصر الواحد أكثر من داء فيأتي أكثر من نبيّ في الفترة الزّمنيّة نفسها، كما اجتمع سيّدنا إبراهيم وسيّدنا لوط في عصرٍ واحد، وكلّ منهما عالج داءً معيّناً في عصره، وكما اجتمع سيّدنا عيسى وابن خالته يحيى بن زكريّا، وقد تعدّدت الرّسالات لتعدّد الأدواء مع انقطاع وسائل المواصلات والاتّصالات. فجاء سيّدنا لوط عليه السلام لمعالجة فساد أخلاقيّ اجتماعيّ بينما جاء سيّدنا إبراهيم عليه السلام لمعالجة قضيّة تتعلّق بالعقيدة.

وقد سبق القرآن الكريم الزّمان ووحّد الدّواء لكلّ الأدواء في المجتمعات، وهذا الدّواء هو القرآن نفسه فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: من الآية ٢٨]، فبعد أن توافرت وسائل الاتّصال الحديثة والمعلوماتيّة، وأصبح العالم بمثابة قرية صغيرة، توحّدت الأدواء من: (الإلحاد والفساد الأخلاقيّ والرّبا والاحتكار والرّشوة والزّنا والشّذوذ الجنسيّ والإيدز) وكان القرآن الكريم قد سبق بتوحيد الدّواء، وهو هذه الرّسالة الخاتمة، وهذا القرآن الصّالح لكلّ زمان ومكان.

وسورة (الفاتحة) لا تصحّ الصّلاة إلّا بها، ونقرؤها على الموتى، وعند الخطبة، وعند عقد القران لافتتاح حياة أسرة جديدة، وعلى نيّة الشّفاء للمرضى، وهي السّورة الوحيدة التي تقرأ لكلّ هذه الأمور، في القبور وفي المساجد، في الأفراح والأحزان، في المستشفيات للمرضى.. وفي كلّ مكان، فهي أعظم سورة في القرآن الكريم، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر]، فأطلق هذه الصّفة على سورة (الفاتحة) فقط، وقال النّبيّ ﷺ في الحديث القدسيّ: «**قال الله تعالى: قسمتُ الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا**

قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، **قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**»[1] وقد قال عن (الفاتحة): (الصّلاة) فلم يقل: قسمت (الفاتحة)، بل قال: قسمت الصّلاة، فالصّلاة هي (الفاتحة)؛ ولذلك فإنّنا نكرّرها في كلّ ركعة من ركعات الصّلاة، ونقرأ بعدها آيات أخرى من سور متعدّدة، والسّبب هو أنّها تشمل الدّين كلّه، ففيها الثّناء والولاء والدّعاء، فالثّناء هو الحمد لله، والولاء هو تنفيذ أوامر الله ﷻ، فالاستجابة للمؤذّن الّذي ينادينا بقوله: حيّ على الصّلاة، حيّ على الفلاح، خمس مرات كلّ يوم تعني استدامة الولاء لله ﷻ.

وحين نقرأ الفاتحة فإنّنا نجدّد العهد مع الله لتنفيذ كلّ ما أمرنا به، أمّا الدّعاء فهو عبادة.

فالدّين كلّه موجود في سورة (الفاتحة)، وقال بعض العلماء: إنّ الدّين كلّه موجود في آية واحدة من القرآن الكريم وهي قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ فإنّها هي الدّين؛ لأنّ الإنسان ما بين الاستعانة والعبادة، بحسب مفهوم العبادة في الإسلام.

فالعبادة ليست في أركان الإسلام فحسب، بل هي في كلّ عمل خير يعود على الإنسان في نفسه أو أسرته أو أهله أو على جيرانه وحيّه، أو على وطنه وأمّته، أو على الإنسانيّة كلّها بالخير. وهذه هي العبادة؛ لأنّ الله ﷻ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الصّلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كلّ ركعة، الحديث رقم (٣٩٥).

يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾[الذّاريات]، فهل خَلَقَنا الله ﷻ فقط لنصلّي ونصوم ونزكّي ونحجّ؟

لا طبعاً؛ لأنّنا نأكل ونشرب ونتمتّع بمتع الحياة ونعمل، وطالبنا الله ورسوله بالعمل، فقال ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستّون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق**»(١)، فالعبادة هي كلّ عمل خير يعود على الغير، وطبعاً من باب أولى أن يعود على نفسه بالخير أوّلاً.

والمسلم عندما يتعدّى نفعه إلى غيره فذلك من أعظم العبادات التي يتقرّب بها (كصلة الرّحم والصّدقة وإصلاح ذات البين وغير ذلك).

وحين نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، نقصد بالعبادة عمارة الأرض والعلم والعدل والتّقدّم الحضاريّ والرقيّ، وتحقيق كلّ الكمالات العلميّة التي تؤدّي إلى خدمة البشريّة. فالعبادة ليست محصورة في الأركان التي عدّدها رسول الله بقوله ﷺ: «**بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وإقامِ الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، والحجّ، وصوم رمضان**»(٢)، ولم يقل: الإسلام خمس، فهذه أركان الإسلام، والأركان هي الأعمدة التي يقوم عليها البناء، فأركان هذا المسجد هي الأعمدة التي يقوم عليها، والأعمدة

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، الحديث رقم (٣٥).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النّبيّ ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، الحديث رقم (٨).

ليست هي المسجد كلّه، وكذلك الدّين لا يقوم إلّا بالأركان، لكنّ الدّين ليس هو الأركان فحسب.

كذلك لا يمكن أن نحصر العبادة في مفهومها الخاصّ؛ لأنّ الله ﷻ قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات]، ولو أراد العبادة في مفهومها الخاصّ فقط لخلق النّاس جميعاً طائعين من غير أن يجعل لهم الاختيار، لكن العبادة المقصودة هي كلّ الأعمال التي تؤدّي إلى سعادة البشريّة ونهضتها وخيرها.

ويقول الله ﷻ في بداية سورة (الفاتحة): ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ والحمد: هو الشّكر والثّناء، والله ﷻ يقول في سورة (إبراهيم): ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، أمّا سورة (الفاتحة) فلم تبدأ بالشّكر بل بالحمد، فما الفرق بين الشّكر والحمد؟ الحمد أوسع من الشّكر؛ لأنّ الحمد يكون على النّعم وعلى النّقم، فالإنسان تُصيبه مصيبة فيقول: الحمد لله ربّ العالمين. فالحمد أوسع، وفيه تنزيه لله ﷻ. أمّا الشّكر: فيكون على النّعمة فقط، أمّا عند النّقم والبلاء فنقول: الحمد لله.

وفي هذه الحياة يتعرّض الإنسان للابتلاء، وقد قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك: من الآية ٢]، أي ليمتحنكم ويختبركم.

والشّكر عند البلاء هو الحمد، وهو يشمل الشّكر على النّعم، وعلى القضاء والقدر، وعلى كلّ ما يعترض الإنسان من ابتلاء ومحن. ونحن نقول: الحمد لله على الحمد لله، لماذا؟ لأنّ الله ﷻ ساوى بين الخلق بذلك، فنحن

نتفاوت في شهاداتنا ودراستنا ومواهبنا وإمكاناتنا، فهذا عالِم وذاك جاهل وهذا غنيّ وذاك فقير. فإن دخلت على ذي سلطان، وقدّم لي خدمة فأردت أن أشكره فكيف أشكره؟ قد يقدّم الغنيّ مالاً والشّاعر قصيدة.. وهكذا يشكر كلّ إنسان صاحب الفضل عليه بحسب إمكاناته. أمّا الله ﷻ فقد وحّد لجميع عباده طريقة شكر واحدة هي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فقال العلماء: الحمد لله على الحمد لله، فقد علّمنا ﷻ كيف نحمده، وساوى بيننا جميعاً في صيغة الحمد.

أمّا العالمين: فتعني العوالم كلّها من إنس وجنّ وملائكة وطير وحيوان ونبات.

وحين نبدأ بقولنا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ فإنّنا نركن ونأوي إلى الله بصفتي الرّحمن الرّحيم؛ لأنّنا لا بدّ من أن نكون على بعض المعاصي المختلفة، فنطمئن إلى كون الله رحماناً رحيماً.

ومن رحمة الله ﷻ بنا أن علّمنا صيغة الحمد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وأوّل ما نحمد الله ﷻ عليه هو الرّحمة؛ لأنّ الإنسان يعيش في كنف رحمة الله ﷻ حتّى من قبل أن يولد. فحين يكون جنيناً في بطن أمّه، من كان يغذّيه ويطعمه ويحميه؟ من كان يعطيه الحياة وهو في ذلك الجوف من الرّحم؟ وعند ولادته من يرحمه ويلطف به؟ وحين يأتي إلى الدّنيا من الّذي رزقه طعامه من ثدي أمّه؟ من الّذي أعطاه الماء والهواء؟ فكلّ النّعم التي تحيط بالإنسان هي من عند الله ﷻ برحمته قبل أن يكلّفه، وقبل أن يكون طائعاً

أو عاصياً، وهي نِعَم يُعطيها للمؤمن ولغير المؤمن. فأوّل صفة نحمد الله عليها هي صفة الرّحمن في الدّنيا والرّحيم في الآخرة، وقد قال ﷺ: «**ما منكم مِنْ أحدٍ يدخله عملُه الجنَّة**»، فقال بعضهم: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلّا أن يتغَمَّدني الله برحمته**»[1]، وتفسير هذا الحديث هو أنّ الله ﷻ هو الّذي علّمنا أنّنا إذا عملنا هذا العمل ندخل الجنّة، وإذا لم نعمله ندخل النّار، وهو الّذي كتب أن يدخل المؤمن الجنّة وأن يدخل العاصي النّار، وهو الّذي أراد أن يدخلنا الجنّة بحسب أعمالنا، فرحمته هي التي تدخلنا الجنّة؛ لأنّه جعل الجنّة ثواباً للعمل.

(الآية ٤) - ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾:

والله ﷻ مالك يوم الدّين، والإيمان بالآخرة من أحد الأسباب الهامّة جدّاً لتوازن الحياة، وإلّا لعاشت البشريّة في فوضى الغابات يأكل القويّ الضّعيف، وحتّى مع إيماننا بالآخرة نجد أحياناً أنّ القويّ يسطو على الضّعيف، والغنيّ يأكل الفقير، والمحتكر يستأثر بالخير لنفسه، وهناك من يحرم الأنثى من الميراث... فلو لم يكن هناك يوم الدّين ومالك ليوم الدّين لحدثت الكوارث. فالحمد لله ﷻ بأنّه مالك يوم الدّين، وبأنّه جعل يوم الحساب؛ لأنّ الحساب في الدّنيا قد لا يكون كاملاً ويبقى في الدّنيا ظلم وحرمان من الحقوق، وفي يقين المؤمن أنّ الله ﷻ هو مالك يوم الدّين، وهو الرّحمن الرّحيم الّذي لا يظلم عنده أحد.

---

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: باب الميم، الحديث رقم (٦٧٢٧).

وهناك قراءات أخرى تقرأ: ﴿مَلِكِ يَومِ الدِّينِ﴾ -بدون ألف[1]- والمالك هو من يملك الشّيء، والملك هو الّذي يملك المالك وما يملك، فمثلاً أنا أملك وأنت تملك وعلى رأسنا كلّنا ملك. وبما أنّ القرآن من الله فمن الطّبيعيّ أن يكون الله ﷻ هو المالك الوحيد ليوم الحساب، وهو الّذي يحاسب، وهو الملك الّذي يملك كلّ موجود في هذا الكون.. فالقراءتان صحيحتان متواترتان. وعندنا في بلاد الشّام كانوا يقرؤون: (مَلِكِ يَومِ الدِّينِ)، ويروى أنّ عالماً من أهل الشّام كان يقرأ: (مَلِكِ يَومِ الدِّينِ) فرأى في نومه رجلاً يقول له: لماذا تقرأ ملك يوم الدّين؟ ألم تعلم أنّ من قرأ حرفاً من كتاب الله كُتبت له عشر حسنات؟ وجاء في الحديث: «لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرفٌ، ولكن ألفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ»[2]، فإذا قلت: (مالك) كسبت عشر حسنات. فصار بعدها يقرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بالألف.

(الآية ٥) - ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾:

لو أنّ هذا القرآن كتب بيد إنسان لقدّم الاستعانة على العبادة؛ لأنّ العبادة تحتاج إلى الاستعانة، لكنّ الله ﷻ يقدّم العبادة على الاستعانة كي

---

(١) هي قراءة نافع بن أبي نعيم وعبد الله بن كثير وأبي عمرو البصريّ وعبد الله بن عامر الشّاميّ وحمزة بن حبيب وأبي جعفر.

وقرأ ﴿مالك يوم الدّين﴾ بالألف عاصم بن أبي النّجود وعليّ بن حمزة الكسائيّ ويعقوب الحضرميّ وخلف بن هشام.

(٢) سنن التّرمذيّ: فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، (٢٩١٠).

يعلّمنا أنّ العبد عليه أن يقدّم أوّلاً أسباب الاستعانة وهي العبوديّة لله ﷻ، فينال المعونة منه. فمن الأدب أن نقدّم أسباب العبوديّة أوّلاً فيأتينا من الله العون، كما رأينا في قصّة سيّدنا أيوب عليه السلام الّذي قال لربّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: من الآية ٨٣]، ولم يقل: اشفني.. كذلك ذو النّون (سيّدنا يونس) عليه السلام حين كان في بطن الحوت، في ظلمات ثلاث، لم يقل: يا ربّ أخرجني من بطن الحوت، بل قال عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: من الآية ٨٧]، قدّم العبادة، فجاءته المعونة.

وفي قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، قدّم المفعول به على الفعل، وهذا يفيد حصر العبادة لله وحده، وأنّ الاستعانة لا تكون إلّا به ﷻ.

وقد وُضِعت كتب في شرح: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ مثل كتاب: (مدارج السّالكين) وغيرها، وقالوا: إنّها كلّ الدّين؛ لأنّ الدّين عبادة واستعانة، فلا يضرّ ولا ينفع إلّا الله ﷻ، ولا يصل ولا يقطع، ولا يفرق ولا يجمع ولا يخفض ولا يرفع إلّا الله ﷻ. والعبادة: هي عمل كلّ خير، ومن هنا قالوا: إنّ هذه الآية تشمل كلّ الدّين.

(الآية ٦) - ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾:

والقرآن طريق الهداية، وإذا طلبنا الهداية طلبنا الطّريق المستقيم.

والمستقيم هو أقصر طريق موصل للغاية، وأقصر طريق لبلوغ الجنّة وسعادة الدّارين هو الصّراط المستقيم.

(الآية ٧) - ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾:

والمغضوب عليهم هم الّذين ضلّوا وأضلّوا، فهم أسوأ من الضّالين الّذين اكتفوا بضلالهم، والضالّ قد يأتيه من يساعده على الهداية فيعود إلى الطّريق المستقيم، ونحن نسأل الله ﷻ ألّا يجعلنا من الضّالين ولا المضلّين، بل من الّذين أنعم الله ﷻ عليهم بالهداية إلى الطّريق المستقيم.

وفي آخر (الفاتحة) نقول: (آمين) وهي كلمة ليست في اللّغة العربيّة ولا في اللّغات اللّاتينيّة، وإنّما هي لغة الملائكة عليهم السّلام، وتعني: استجب يا ربّ.

فالملائكة تؤمّن على دعاء الإنسان، وجاء في الحديث الشّريف: «**إذا قال أحدكم آمين، وقالت الملائكة في السّماء آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**»(١).

وكلمة (آمين) لا تكتب في المصاحف، وهي موجودة في كلّ الأديان، ويقولها إخواننا النّصارى في آخر الدّعاء؛ لأنّ الله ﷻ واحد والدّين واحد، وقد قال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، فالدّين من عند الله ﷻ، وهذه سورة (الفاتحة) تشمل الدّين كلّه، وكان سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يرقي بها المرضى، ويكون التّأثير أقوى لمن

---

(١) سنن النّسائيّ: كتاب صفة الصّلاة، باب فضل التّأمين، رقم الحديث (٩٣٠).

عمل بها، ولذلك قال بعضهم: هذه هي (الفاتحة)، فأين عمر؟

ونحن نقول هذه هي (الفاتحة)، فأين من يقرأ (الفاتحة) ويفهمها ويعمل بها، حتّى نحقّق ما كان يحقّقه سيّدنا عمر رضي الله عنه بقراءتها؟!

❀ ❀ ❀

تفسير سورة (البقرة)

من الآية: (١ – ١٤١)

تفسير سورة (البقرة)

أوّل سورة في القرآن الكريم بعد (الفاتحة) هي سورة (البقرة)، وهي السّورة التي أوصى رسول الله ﷺ بأن تُقرأ في البيوت فقال ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنّ الشّيطان ينفر من البيت الّذي تُقرأ فيه سورة البقرة**»[1]، وهي فسطاط القرآن، وأطول سورة، وهي سورة مدنيّة.

والفارق بين السّور المكيّة والمدنيّة هو أنّ السّور المكيّة تهتمّ بتثبيت العقيدة، نزلت في السّنوات التي كان رسول الله ﷺ يواجه فيها مشركي مكّة، وكان يدعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والجنّة والنّار، أمّا السّور المدنيّة فقد كانت تبني المجتمع، فجاءت فيها آيات الأحكام، وهناك فارق آخر؛ وهو أنّ السّور المكيّة كانت تواجه في مكّة أعداءً أمّيّين وجهلة، بينما كانت السّور المدنيّة في المدينة المنوّرة تواجه اليهود الّذين لديهم علم، ولديهم التّوراة، كما كانت تواجه النّفاق، وهو أخطر الآفات التي تُصيب المجتمعات على الإطلاق. والمنافق هو الّذي يُبطن شيئاً ويُظهر شيئاً آخر، وهذا المرض لم ينشأ في مكّة؛ لأنّ مشركي مكّة كانت لهم الغلبة، فكانوا يؤذون ويَضطهدون كلّ من يتّبع محمّداً ﷺ، أمّا في المدينة فقد اختلف الأمر، وساد الإسلام، فكان النّاس يدخلون فيه، ومنهم من يُبطن العداوة للإسلام، وهم المنافقون.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النّافلة في بيته وجوازها في المسجد، رقم الحديث (٧٨٠).

وسورة (البقرة) مدنيّة، وفيها قصّة خلق سيّدنا آدم عليه السلام، وقصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام في بناء الكعبة، وفيها من الأحكام ما يتعلّق بالصّوم والحجّ وتحريم الرّبا وطريقة التّعامل بالمال في المجتمعات. أمّا سبب تسمية سورة (البقرة) بهذا الاسم فلورود قصّة بقرة بني إسرائيل فيها. وكلّ تسمية، وكلّ كلمة وحرف، بل وكلّ حركة في القرآن الكريم لها سرّ؛ لأنّ القائل هو الله سبحانه وتعالى. وصفات الكمال عند الله سبحانه وتعالى هي صفات كاملة تامّة ليس فيها نقص كالنّقص الموجود عند البشر، ولا يمكن أن يكون هناك تكرار فيها.

وقد وردت في القرآن الكريم أسماء سور تتعلّق بمخلوقات شتّى، مثل: سورة (الأنعام)، و(النّمل)، و(النّحل)، و(العنكبوت)، و(الفيل)، والسّبب أنّ هناك قضيّة إيمانيّة يريد المولى سبحانه وتعالى لهذه التّسمية أن تخدم هذه القضيّة الإيمانيّة، أو أنّ هناك قضيّة علميّة تخدم القضيّة الإيمانيّة عن طريق الإعجاز العلميّ، كما جاء في سورة (النّمل) قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [النّمل]، فكيف استخدم كلمة: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ والنّمل حشرة ليّنة؟! ولكن ثبت حديثاً، بأنّ النّمل يتكوّن أكثر من ثلثه من مادّة زجاجيّة قابلة للتّحطيم، فهي قضيّة علميّة تخدم قضيّة إيمانيّة.

وكذلك الجراد والقمّل والضّفادع والبعوض والذّباب، كلّها ذُكرت في القرآن الكريم، ولها خواصّ اجتماعيّة أو علميّة، لمعانٍ مرادة.

وكذلك سورة (البقرة) التي أراد الله سبحانه وتعالى فيها من خلال قصّة بقرة بني

إسرائيل أن يثبت لهم البعث والجزاء في اليوم الآخر، وبأنّ هناك حساباً وعقاباً، وأنّ هناك جزاءً وإلّا كانت الحياة غابة، ولا معنى للرّسالات السّماويّة كلّها إذا لم يكن هناك يوم آخر يحاسب فيه الإنسان.

وقد كانت البقرة لفتىً من بني إسرائيل بأوصاف معيّنة، وحدث أن قُتل شخص ولم يُعرف قاتله، فأمرهم الله ﷻ أن يذبحوا بقرة تطابقت أوصافها أخيراً مع أوصاف بقرة فتى بني إسرائيل، وأن يضربوا القتيل ببعض البقرة أو بجزء منها، فأحياه الله ﷻ فقام وسمّى قاتله ثمّ عاد إلى الموت. وسترد معنا القصّة حين نصل إلى قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: من الآية ٦٧].

ولم يكن البقر من الحيوانات المعروفة ضمن الأنعام في الجزيرة العربيّة عند نزول السّورة، لكنّ التّسمية خدمت قضيّة إيمانيّة كبرى هي قضيّة البعث.

(الآية ١) - ﴿الٓمٓ ۝١﴾:

تبدأ سورة (البقرة) بقوله ﷻ: ﴿الٓمٓ﴾، فما معنى هذه الحروف؟

وليس هناك كتاب على وجه الأرض يبدأ بحروف كهذه.

هذه أحرف مبنى، وليست أحرف معنى.. فحروف المعاني تُفيد المعنى، مثل: في: تُفيد الظّرفيّة، وعلى: تُفيد الاستعلاء، ومن: تُفيد الابتداء، وإلى: تُفيد الانتهاء، أمّا ﴿الٓمٓ﴾: فهي حروف مبنى لا نُسأل عن معناها، وليس هناك كتاب يبدأ بحروف لا معنى لها.

ولو أنّ القرآن من عند رسول الله ﷺ أو اجتمعت الإنس والجنّ على

أن يكتبوا الكتاب لا يخطر في بال أحدٍ أبداً أن يكتب كتاباً موجّهاً للنّاس إلّا بمعاني وأحرف لها معنى، كي لا يحدث إشكال.

فلماذا جاءت هذه الأحرف المقطّعة، وليس في القرآن حرف ولا كلمة ولا حركة إلّا ولها معنًى؟! وهذه الأحرف، وإن كنّا لا ندرك معناها، فإنّ لها عند منزِّلها معنى كبير، وهي من أكثر الآيات المتشابهات في القرآن الكريم التي تدلّ على إعجاز القرآن، وتدلّ على أنّه من عند الله ﷻ، وليس من عند رسول الله ﷺ. وهذه الأحرف تشبه كلمة السّـرّ التي تضعها الجيوش فيما بينها ولا يعرف معناها عامّة النّاس إذا سمعوها، أمّا عند من وضعها فإنّ معناها سرّ قد يؤدّي إلى حرب أو إلى قضيّة كبيرة.

وهنا كأنّ القرآن الكريم يقول لنا: اقرأ القرآن الكريم بسرّ الله ﷻ فيك، وبسرّ الله ﷻ فيه، اقرأه بالرّوح؛ لأنّها مفاتيحها، واقرأه بسرّ الله ﷻ فيه، علمتَ سرّ هذه الأحرف أم لم تعلم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «.. **فما كان من محكمه فاعملوا به، وما كان من متشابهه فآمنوا به**»[1]، فنحن لم ندرك المعنى حتّى الآن، وهناك اختلاف في تفسير فواتح السّور من الحروف المقطّعة، والمهمّ أنّها سرّ من الأسرار وليس كلّ ما لا تُدركه لا يستفاد منه، فأنت تستفيد من الكهرباء ولا تُدرك ماهيّتها، وكأنّ الله ﷻ هنا يقول لك: اقرأ القرآن الكريم بسرّ الله الموضوع في كتابه، وهذه من الأسرار التي

---

(١) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة: كتاب التّفسير، باب النّهي عن المراء والجدال في القرآن، رقم الحديث (٥٩٣٥).

وُضعت في القرآن الكريم، وهي مفاتيح الرّوح.

والقرآن لا يؤخذ على نسق واحد، ولو كان يؤخذ على نسق واحد لوجدنا البسملة مقطّعة أيضاً، فنحن نقرأ ونكتب: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (بسم): بثلاثة أحرف من غير ألف بين الباء والسّين، أمّا في سورة (العلق) فكتبت: ﴿بِٱسۡمِ﴾ مع وجود الألف، ونجد كلمة (تبارك) مرّة فيها ألِف: ﴿تَبَارَكَ﴾ [الفرقان: من الآية ١]، ومرّة من غير ألِف: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ [الملك: من الآية ١].

وعلينا أن لا نقرأ القرآن كأيّ كتاب عاديّ؛ لأنّ مُنزل القرآن الكريم هو الله ﷻ وليس بشراً مثلنا نتلقّى عنه.

وهذه الحروف المقطّعة التي ترد في أوائل كثير من سور القرآن الكريم مبنيّة على القطع وليس على الوصل، أمّا القرآن الكريم فهو كلّه مبني على الوصل، ونحن نجد في آخر كلّ آية آخر كلمة بالحركة التي نُظهرها إذا وصلنا الآية بما بعدها، مثلاً في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾[البقرة: من الآية ١٨٦]، انتهت كلمة (يرشدون) بالفتح وليس السّكون، ولو وُصلت الكلمة بما بعدها تُقرأ بالفتح، وإذا وُقف عليها يُوقف بالسكون... وهكذا في باقي الآيات ونهايات السّور، إذ الوقف يكون بالسّكون ولا يكون الوقف بالحركة الكاملة.

فالقرآن الكريم كلّه مبني على الوصل إلّا الأحرف المقطّعة مبنيّة على القطع، يعني: (ألف، لام، ميم)، ومن الّذي أدرانا أنّها هكذا تقرأ؟ طبعاً

القرآن الكريم يؤخذ بالتّلقّي، واسمه قرآن قبل أن يكون كتاباً، ولا نستطيع أن نقرأ القرآن إلّا إذا سمعناه. فمن علّمك يا محمّد بأنّ: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ في سورة (البقرة) تُقرأ: (ألف، لام، ميم)؟ بينما ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ [الشّرح]، ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]، تُقرأ (ألم)، والكتابة هي نفسها. هذا يعني أنّك سمعت القرآن قبل أن تؤمر بكتابته، ونحن لا نستطيع تعلّم القرآن الكريم قبل سماعه، فالقرآن يؤخذ بالتّلقّي من المقرئين.

وقد تلقّاه سيّدنا محمّد ﷺ من سيّدنا جبريل عليه السلام الّذي قال له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: من الآية ١]، وهو أُمّيّ، والأمّيّة عند رسول الله كمال وعند عامّة البشر نقص؛ لأنّه ﷺ لا يتعلّم إلّا من الله، والنّاس الأميّون قد يعرفون اسم الحرف ولا يعرفون مسمّى الحرف، فلا يقولون: (ألف) بل (أ)، أمّا مسمّى الحرف فهو (ألف، لام، ميم، حاء، خاء...) وهناك فارق كبير بين اسم الحرف ومسمّاه. فمن الّذي علّم رسول الله ﷺ بأنّ هذه الحروف تُنطق بمسمّى الحرف، وهذه الحروف تُنطق بأسماء الحروف؟ وهذا كلّه ضمن الأسرار المتعلّقة بموضوع ﴿الٓمٓ﴾، والقرآن يختلف عن كلّ الكتب، وهذه الحروف قالوا عنها: إنّها للتّنبيه، ومنهم من قال: إنّها حروف اللّغة العربيّة التي أُخذ منها القرآن الكريم، فلا يمكن تأليف مثله، ولا حتّى سورة أو آية من هذه الحروف، ولذلك ضرب فيها المثل، فهي للتّحدّي والإعجاز، وكلّ هذه الأقوال صحيحة، ولكن تبقى هناك معجزة روحيّة وأسرار لا نعلمها.

وقد جاءت الحروف المقطّعة في القرآن الكريم بدءاً من سورة (البقرة): ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿الٓر﴾، ﴿الٓمٓر﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ﴿طه﴾، ﴿طسٓمٓ﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿يسٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿حمٓ﴾، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾، وكلّها موجودة في حروف الهجاء التي يبلغ عددها في لغتنا العربيّة ثمانية وعشرين حرفاً، وعدد الحروف التي تأتي مقطّعة في فواتح السّور أربعة عشر حرفاً، أي نصف الحروف الأبجديّة، وهذا ليس أمراً عشوائيّاً، فكيف تمّ اختيارها بشكل دقيق، وهذه الحروف إذا جمعناها تُعطينا عبارة: **(نصّ حكيم له سرّ قاطع)**، وقد اختيرت هذه الحروف من الأبجديّة بترتيب مذهل. فلو أخذنا الحروف التّسعة الأولى من الأبجديّة لوجدنا أنّه اختار منها اثنين (ألف، حاء)، ولو أخذنا الحروف العشرة التّالية، لوجدنا أنّه أخذ حرفاً وترك حرفاً بحسب تسلسلها، وقد أُخذت الحروف غير المنقوطة: (ر، س، ص، ط، ع)، وتُركت الحروف المنقوطة: (ز، ش، ض، ظ، غ)، وفي المجموعة الثّالثة أُخذت سبعة أحرف وتُرِك حرفان، أُخذ: (ق، ك، ل، م، ن، هـ، ي)، وتُرك: (ف، و)، فهل كان الاختيار عشوائيّاً، أو أُخذت الحروف بشكل اعتباطيّ؟ بالطبع لا.. أوّل تسعة أحرف أُخذ منها اثنان وتُرك سبعة، وآخر تسعة أحرف أُخذ منها سبعة وتُرك اثنان، والعشرة في المنتصف أُخذت منها الحروف غير المنقطة، وتُركت الحروف المنقّطة، وقد بينت نظم هذه الحروف في الجدول المرفق في الصّحيفة الآتية:

الحروف المقطّعة في القرآن الكريم

وهي أربعة عشر حرفاً من أصل ثمانية وعشرين حرفاً من حروف الأبجديّة العربيّة، مجموعة في جملة معجزة المبنى، مفيدة المعنى،

(نصّ حكيم له سرّ قاطع)

التّسعة الأوائل	ا	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	
العشرة المتوسّطة	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ
التّسعة الأخيرة	ف	ق	ك	ل	م	ن	هـ	و	ي	

وهي منظّمة ومرتّبة بشكل مبهر أيضاً، وليست عشوائيّة وعلى النّحو الآتي:

التّسعة الأوائل أخذ اثنان وترك سبعة

أمّا العشرة التي في الوسط فقد أخذ غير المنقوط وترك المنقوط

والتّسعة الأخيرة أخذ سبعة وترك اثنان

أي نصف الحروف الأبجديّة

فهي ليست قضيّة حسابيّة ولا رقميّة ولا هندسيّة، ولا تتعلّق بالكمبيوتر، وإنّما هي قضيّة لغة عربيّة، وسرّ من أسرار (نصّ حكيم له سرّ قاطع)، ونحن ندخل إلى سورة (البقرة) بمفتاحها: ﴿الٓمٓ﴾.

(الآية ٢) - ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾:

ذا: اسم إشارة يُشير إلى القرآن، **واللّام** للعلوّ، يدلّ على قربه وعلّوه، فهو قريب منك عالي المصدر، **والكاف:** لمخاطبة النّاس، كلّ النّاس.

﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾: ولم يقل القرآن؛ لأنّ القرآن يُحفظ في الصّدور ويُكتب في السّطور، فهو كتاب بعد أن كُتب، وكان النّبيّ ﷺ عندما يتعجّل بترديد الآيات بعد جبريل يقول له ربّه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة]، فكان القرآن يدخل إلى قلبه فيحفظه، ثمّ كان يأمر بكتابته في السّطور، ثمّ قال الله ﷻ: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، ولا يوجد إنسان على وجه الأرض يجرؤ أن يكتب وأن يقول: لا ريب فيما كتبت؛ لأنّه إنسان، والإنسان أغيار، يعني قد يكون اليوم في حال وغداً في حال آخر، ويكون اليوم شابّاً ثمّ كهلاً، ويكون اليوم حيّاً ثمّ ميّتاً، فالإنسان أغيار، فلا يقل: كتابي لا ريب فيه، أمّا الّذي لا يتعرّض للأغيار فإنّه يقول ﷻ: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، يعني مهما كانت هناك متغيّرات فلا شكّ فيه، ولا شكّ في كلماته، ويصحّ الوقوف عند: ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾ لنبدأ بعدها بقولنا: ﴿فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾، ويصحّ أن نكمل بقولنا: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ فيكون للآية معنيان.

﴿فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾: وهل القرآن الكريم هدى للمتّقين، أم لجميع النّاس؟ للجواب على هذا السّؤال، وبناء على القاعدة التي قلنا فيها: إنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً ننتقل إلى آية أخرى من سورة (البقرة)،

وهي قوله ﷻ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٥]، وهذا يعني أنّ القرآن الكريم هدى للنّاس جميعاً، وليس فقط للمتّقين، فلا يمكن أن نقول بالرّأي في كتاب الله تبارك وتعالى، ولا يمكن بتر الآيات عن مواضعها.

وأولئك الّذين يحتجّون بكتاب الله ظلماً وزوراً وعدواناً لا يعرفون شيئاً من التّفسير. فالقرآن هدى للنّاس جميعاً وخصوصاً للمتّقين، ويجب في البداية أن نعرف ما هي الهداية؟ ومن هم المتّقون؟

هناك هداية دلالة وهداية معونة.

أمّا **هداية الدّلالة:** فهي دلالة النّاس على طريق الوصول، مثل الإشارات التي توضع على الطرق كي يهتدي بها المسافرون.

وهداية الدّلالة تدلّ على الغاية، فإذا لم تكن هناك غاية فما معنى الهداية أو الغاية؟ الغاية هي الصّراط المستقيم الّذي يقود إلى سعادة الدّارين وإلى الجنّة، والّذي يحدّد الغاية مِن خَلْق الإنسان هو مَن خَلَق الإنسان.

أمّا **هداية المعونة:** فهي العون على السّير بعد اختيار الطّريق.

والقرآن الكريم فيه بيّنات للذين اختاروا الطّريق واختاروا هداية الدّلالة، فمن أخذ هداية الدّلالة تأتيه هداية المعونة.

وقد خاطب الله ﷻ نبيّه عليه الصّلاة والسّلام قائلاً: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: من الآية ٥٦]، وفي آية أخرى يقول له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، أي

إنّك يا محمّد تهدي إلى الصّراط المستقيم لكنّك لا تستطيع أن تُدخل الهداية إلى القلوب، بل الله وحده من يستطيع ذلك، وهذه هداية المعونة التي تأتي من الله ﷻ، أمّا رسول الله ﷺ فهو من يهدي هداية الدّلالة: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية]، أي أنّنا لا نحمل السّوط على النّاس لنجبرهم على دخول الدّين، ولا نحمل السّيوف لنخيف النّاس من عذاب القبر ومن عذاب النّار، وإنّما بالهداية والدّلالة التي أشار إليها القرآن الكريم، فقوله ﷻ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني هداية المعونة.

فمن هم المتّقون؟ وقد ذُكرت كلمة التّقوى في القرآن الكريم كثيراً، وهي أن تجعل بينك وبين الشّيء حاجزاً، كما قال ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران]، ويقول ﷻ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: من الآية ٢٧٨]، والفرق بين الآيتين هو أنَّ تقوى النّار أن تجعل بينك وبينها وقاية، وذلك بأن تلتزم بأوامر الله، وأمّا تقوى الله فأن تجعل بينك وبين صفات الجبروت لله مثل: المنتقم، الجبّار، القهّار.. أن تجعل بينك وبينها حاجزاً بالغفور، الرّحيم، التّوّاب.. أي بالمغفرة والرّحمة والتّوبة..

وقد سئل الإمام عليّ -كرّم الله وجهه- عن التّقوى، فقال: (التّقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتّنزيل، والرّضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرّحيل)، أي: للدّار الآخرة، وقد استند في تعريفه إلى القرآن الكريم.

(الآية ٣) - ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾:

وأوّل صفة للمتّقين هي الإيمان بالغيب، والغيب هو ما لا تدركه حواسّك، والحواسّ هي: (البصر والسّمع والشّم واللّمس والذّوق)، والغيب هو ما غاب عنك، ووجود الشّيء يختلف عن إدراك الشّيء، وليس كلّ ما لا تدركه حواسّك غير موجود، فالجراثيم مثلاً لا تدركها الحواسّ، وكان الإنسان في وقت نزول القرآن يمرض وترتفع حرارته ويُعالج دون معرفة الجراثيم، ولا سبب المرض، مثل جرثومة الملاريا أو التّيفوئيد.. لكنّها كانت موجودة، فعدم معرفتها لا ينفي وجودها.

وأوّل عناصر الإيمان هي الإيمان بالغيب، **والغيب له ثلاثة أنواع:**

١- ما غاب عنك وله مقدّمات للوصول إليه، وهذا ليس غيباً، مثل الأرصاد الجويّة التي تخبرنا عن حالة الجوّ.

٢- ما غاب عنك وعُرف للآخرين، وهذا لا يُسمّى غيباً.

٣- الغيب المطلق الّذي ليس له مقدّمات، ولم يُعرَف للآخرين.

وهناك من ينكر وجود الجنّ مثلاً؛ لأنّه لا يراهم، فلماذا لا ينكر وجود الجراثيم إذن؟ والجنّ لا تعلم الغيب، وإن عَلِمَتْ بأمرٍ موجودٍ في مكانٍ ما على الأرض، وليس معنى ذلك علمها بالغيب، وقد قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: من الآية ١٤]، فالجنّ لا يعلمون الغيب، والملائكة لا تعلم الغيب، بدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة]،

والأنبياء لا تعلم الغيب، إلّا إذا أراد الله ﷻ أن يطلع ملكاً أو نبيّاً على غيب كما أطلع النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام على كثير من الأمور ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجنّ: الآية ٢٦، ومن الآية ٢٧]، فالإيمان بالغيب هو قمّة الإيمان، وأوّل صفة للمتّقين هي الإيمان بالغيب.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: والصّلاة تتعلّق بالإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب يعني الإيمان بالله والملائكة والرّسل، ونحن لم نشاهد رسول الله ﷺ، وحتّى من شاهده في زمن التّنزيل لم يعلم أنّه مرسل إلّا من خلال إيمانه بالغيب؛ لأنّه لا يرى جبريل عليه السلام وهو يتنزّل عليه.

وفي الصّلاة استدامة الولاء لله ﷻ، وهي أهمّ أركان الإيمان بالله.

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾: والإنفاق من صفات المتّقين، والرّزق هو كلّ ما ينتفع به، وكأنّ الله ﷻ يريد منّا أن نفهم: بأن ما يتعلّق بالإيمان بالغيب هو صلاح العقيدة، وإقامة الصّلاة فيها صلاح الفرد؛ لأنّها صلة مع الله فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، أمّا الإنفاق من الرّزق ففيه صلاح المجتمع.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ فالإيمان بالغيب يشمل كلّ عناصر الإيمان، والصّلاة تشمل كلّ أركان الإسلام؛ لأنّ في الصّلاة توحيداً لله ﷻ وشهادةً لسيّدنا محمّد ﷺ بالرّسالة والنّبوّة، وفيها صوم بامتناعنا عن الطّعام والشّراب خلال الصّلاة، وفيها حجّ؛ لأنّنا نتوجّه إلى الكعبة في صلاتنا، وفيها زكاة؛ لأنّنا نقتطع جزءاً من وقتنا لأداء الصّلاة،

والوقت ثمرته العمل، والعمل ثمرته الرّزق، وحين يدعونا المؤذّن لأداء الصّلاة بقوله: الله أكبر.. الله أكبر نأتي؛ لأنّ الله أكبر من الدّنيا وما فيها، ونُقيم الصّلاة خمس مرّات في اليوم، فإقامة الصّلاة فيها كلّ أركان الإسلام.

وإقامة الصّلاة لها شروط من طهارة وسترٍ للعورة وتوجّهٍ إلى الكعبة، والأداء يكون أداء أيّ شيء، فلم يقل: (يؤدّون الصّلاة) بل قال جلّ وعلا: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. وقد جاء الإسلام لإسعاد النّاس وهو دعوة الخير للغير، فعندما قال ﷻ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فالإنفاق يكون بالمال والعلم.. وبكلّ منفعة يمكن أن نعود بها على الغير، فالقرآن الكريم يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجّ]، فالدّعوة في القرآن الكريم إلى فعل الخير وليس إلى إيذاء الغير، ولا قتلهم، ولا إهانتهم، ولا شتمهم، ولا ضربهم، ولا إلغائهم، ولا إقصائهم.. بل هو فعل الخير للغير، وهذا من معاني قوله ﷻ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

(الآية ٤) - ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾:

لأنّ الرّسالة الخاتمة تشمل كلّ الرّسالات السّماويّة، ونحن نؤمن بهذه الرّسالة وبكلّ الرّسالات السّماويّة فلا نرفض إخوتنا المسيحيّين وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]،

فكلّ دعوة فيها تفريق باسم الدّين باطلة، والدّين بريء منها؛ لأنّ الدّين يجمع ولا يفرّق لأنّ الله جلّ وعلا واحد، وهو الّذي أرسل إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وهو الّذي ختم بسيّد الأنبياء محمّد ﷺ.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ فمناط التّكليف في الدّنيا مرتبط بوجود الآخرة، فالدّنيا زائلة والآخرة باقية، فهذه حياة دنيا، وتلك حياة عليا. ولو لم يكن هناك حساب لانتشر الظّلم والفساد.

وفي الآخرة يلقى الظّالم جزاء ظلمه، وحين يكون هناك يقين بوجود الآخرة والحساب والثّواب والعقاب يكثر فعل الخير. وقد يقول قائل: إنّ المجتمعات الغربيّة لا تؤمن بالآخرة، ومع ذلك هم يفعلون الخير! والجواب: هم يفعلون الخير في الدّنيا من أجل سعادتهم فيها، ونضرب مثلاً لذلك: نحن نعلم أنّ أوّل خير يجب أن يكون للوالدين، ونحن ننظر إلى ما يفعلون من رعاية اجتماعيّة ورعاية للأيتام، ولكن ما وضع الوالدين في المجتمعات الغربيّة؟ وما علاقة الأبناء مع الآباء والأمّهات؟! نحن نعرف أنّ هذه العلاقة ليست كما يريد الله سبحانه وتعالى، ونحن نسمع في كلّ يوم عن الانتحار في مجتمعاتهم، ممّا يدلّ على عدم وجود سعادة حقيقيّة، فالسّعادة تكون للإنسان الّذي يؤمن بالآخرة، وبأنّ هناك حساباً وعقاباً وثواباً وجزاءً.

(الآية ٥) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾:

الّذين يُقيمون الصّلاة، ويؤمنون بما أُنزل على سيّدنا محمّد ﷺ وبما أُنزل من قبله، ويؤمنون بالآخرة، ويؤمنون بكلّ الدّيانات، ولا يرتكبون

الجرائم، ولا يسرقون ولا يرتشون ولا يزنون ولا يكذبون ولا ينمّون ولا يعقّون والديهم، أولئك هم المتّقون، وهذا هو الدّين الّذي يدينون به، ورسول الله عليه الصّلاة والسّلام يقول: «**إنّما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق**»[1].

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: من الفلاح، وهم الفائزون، والكلمة من الفلاحة، فالفلّاح يحصد الزّرع من الأرض بعد بذرها وتعهّدها، وقد قال ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦١]، فالحبّة عندما تلقى في الأرض تعطي سبع مئة حبّة، ومن هنا تأتي قضيّة الفلاح، والله ﷻ يُضاعف العطاء لمن يشاء.

(الآية ٦) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾:

الكفر في اللّغة العربيّة هو السّتر، وليس في الكلمة ما يوحي بما سوَّغه بعضهم من جرائم قتل وإرهاب وذبح للبشر، وليس هناك ارتباط بين كلمة (كفر) وبين القتل. فالكفر عمليّة عقليّة فقط، وقد قال ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، فأنت تستر ما أعتقد، ولا تؤمن بما أؤمن. فهذه هي الكلمة، وأمّا

(١) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب الشّهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، رقم الحديث (٢٠٥٧١).

الّذين يكفّرون النّاس ويمارسون القتل والإجرام والإرهاب، ويُسمّون أنفسهم بالإسلاميّين فهم ليسوا من الإسلام في شيء، ولا علاقة لهم به.

ومما تجدر الإشارة إليه أن فواتح سورة (البقرة) ذكرت صفات المؤمنين في ثلاث آيات، وآيتان فقط عن الكافرين، وثلاث عشرة آية متتالية تتعلّق بالمنافقين، فعدد الآيات التي تحدّثت عن المنافقين يُعطينا مدى خطورة النّفاق، وتأثيره على المجتمع، وعلى الدّين، وعلى أتباع هذا الدّين، فالنّفاق مرض خطير، وداء يُصيب المجتمعات، وهو أخطر من العداوة الظّاهرة الواضحة، فهو عداوة مبطّنة، وهناك من استغلّ مصطلح الكفر والتّكفير بشكل خطير ليبرّر لأعداء الإسلام من صهاينة وغيرهم قولهم: إنّ دين الإسلام هو دين التّكفير والقتل، لذلك يجب علينا أن نكون واعين حتّى لا يلتبس الأمر ويُشكل على الأجيال القادمة من النّاشئة والشّباب. والخطر ليس في تغيير مفهوم المصطلح، وإنّما من أدعياء العلم والدّين الّذين لا يعرفون تفسير الآيات المتعلّقة بالكفر، فيتركون الأمر مبهماً.

وإنّ في صفات المؤمنين ما فيه صلاح العقيدة، وصلاح الفرد، وصلاح المجتمع، وفيها قبول للآخر، واحترام للرّأي الآخر. فالإيمان بالغيب فيه صلاح للعقيدة؛ لأنّ العقيدة مرتبطة بالغيب. والإيمان بالله ﷻ إيمان غيبيّ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر وبالملائكة، وصلاح العقيدة يؤدّي إلى إقامة الصّلاة، وفي الصّلاة صلاح الفرد؛ لأنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصّلاة هي صلة الفرد مع ربّه، صلة المخلوق مع خالقه، أمّا الإنفاق من الرّزق فهو يؤدّي إلى صلاح المجتمع، وإلى التّكافل بين أفراد المجتمع.

ومن صفات المتّقين أنّهم يؤمنون برسالة سيّدنا محمّد ﷺ وبالرّسالات السّابقة، وهذا يعني القبول بالآخر، ويدلّنا على كيفيّة العلاقة مع المسيحيّين.

أمّا الكفر ففيه مشكلتان:

الأولى: مشكلة التّكفير، أي اتّهام الآخرين بالكفر، والكفر في اللّغة العربيّة معناه السّتر.. ستر ماذا؟.. ستر وجود الله سبحانه وتعالى، ولا يستر الإنسان ما ليس موجوداً، فهم يسترون وجود الله، وهذا يعني أنّ الإيمان سابقٌ للكفر. أي أنّه كان هناك إيمان، وجاء السّتر، ولولا الإيمان لما كان هناك كفر.

وقد أُهبط سيّدنا آدم عليه السلام إلى الأرض وهو مؤمن بالله سبحانه وتعالى، وبعد مدّة من الزّمان، وبعد قتل قابيل لهابيل.. ظهر الكفر. واستخدام كلمة (كفر) بمعنى (السّتر) لا يعني القتل، وقد جاء في القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: من الآية ٢٠]، والكفّار هم الزرّاع، فالزّارع كافر؛ لأنّه يستر البذرة في الأرض، فاستخدم القرآن كلمة كفّار عن الزرّاع. وكلمة كفر هنا تعني ستر وجود الله سبحانه وتعالى.

الثّانية: هو أنّ هذا دين، وليس مجرّد ثقافة، وقولنا دين يعني عقيدة وتشريع وعبادة وأخلاق، فلا بدّ من وجود طرفين للدّين، فهناك من يريد الإيمان به، وهناك من يريد الكفر، والكفر لا يستخدم فقط للدّين، فهناك من يكفر بالنّعم، والله عز وجل يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم]، فالكفر هنا هو جحود النّعمة.

وهذا يدلّ على أنّ الكفر قضية عَقَديّة وليست سلوكيّة، والعقوبة تكون على السّلوك لا على المعتقد، بدليل أنّ القرآن الكريم قال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، وقال: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، أي لا تُعاقب أحداً على العقيدة، ولا تُعاقب على الدّين، ولا تُعاقب على الاختيار؛ لأنّ الله ﷻ ترك للإنسان حريّة الاختيار وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية]، فالدّين عقيدة وتفكير وليس قتلاً وتقتيلاً، وليس إكراهاً وإجباراً.

وقد قاتل المسلمون المشركين لأنّهم كانوا معتدين وليس لأنّهم مشركون، والدّليل على ذلك في قوله ﷻ: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة]، والبرّ أكبر من الخير، بل هو من أعلى عناصر الخير بدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة]، فالبرّ يشمل كلّ هذا، والقسط هو العدل.

والله ﷻ يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التّوبة: من الآية ٦]، ولم يقل: (فاقتله)، فالقتال لا يكون إلّا للمعتدين فقط، قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التّوبة: من الآية ٣٦]، ويقول ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ٩٠﴾ [النّساء: من الآية ٩٠]، أي لا يحقّ لكم قتال أحدٍ لأنّه مشرك أو كافر.

وهذه هي نصوص القرآن الكريم، فإذا أتى أشخاص في زمان ما برأي ما بتفكير ما، وحوّلوا التّكفير إلى تقتيل، وقتلوا كلّ من هو مشرك، وكلّ من هو كافر، أو اتخذوا منه موقفاً، فليس هذا من الدّين، وقد أمرنا ديننا بأن نقاتل المعتدين ونردّ العدوان، والجهاد يأتي من باب ردّ العدوان وليس الجهاد من أجل نشر الدّعوة بالإجبار والإكراه، ودليلنا على ذلك بالإضافة إلى آيات القرآن الكريم سيرة رسول الله ﷺ. ونحن نفسّر القرآن بالقرآن وبسيرة رسول الله ﷺ وسنّته.

وحين دخل رسول الله ﷺ إلى مكّة فاتحاً قال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطّلقاء**»[1]، ولم يقاتلهم، ولم يأمر جيوشه بأن يقتلوا أحداً.

وفي خطبة عرفات الأخيرة التي سمّيت بخطبة الوداع، أو وصية الوداع، والوصية تكون دائماً أصدق وآخر كلام يصدر عن الإنسان، وفيها قال

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، ج٤، ص ٣٢.

عليه الصّلاة والسّلام: «**فلا ترجعوا بعدي كفّاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض**»[1]، إذن فالّذي يضرب الرّقاب ليس مسلماً وليس مؤمناً، فالمسلم لا يحقّ له أن يضرب الرّقاب، ولا يحقّ له أن يقتل إلّا بالحقّ، والحقّ هو ردّ الاعتداء وردّ العدوان. وعندما قامت جيوش الفتح الإسلاميّ بفتح العراق والشّام ومصر والمغرب العربيّ لم يرفعوا السّيف لإجبار النّاس على الإسلام، بل تركوا النّاس على دياناتهم.

والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: من الآية ١٦]؛ لأنّ الدّين عقيدة، مناطها العقل والتّفكير، وليس الإجبار والإكراه والتّقتيل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النّحل]، وكلّ هذه الدّلائل منافية لنهج القتل والتّكفير، وقد غيّر بعضهم مصطلحات الدّين وعلينا أن نشرح ونوضّح هذه المصطلحات..

وهناك أحزاب لا إسلاميّة وهي تسمّي نفسها إسلاميّة تقسم المجتمع إلى: مجتمع مؤمن، ومجتمع جاهليّ كافر، فقسّموا المجتمع إلى أقسام وهذا لم يكن في زمن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الّذي هاجر إلى المدينة ووضع دستوراً جديداً وحّد فيه النّاس من مسلمين وأهل كتابٍ ومشركين، وحّدهم لحماية الوطن ولم يمزّقهم، فنحن لا نُقاتل إلّا المعتدي، ولا يجوز للمسلم أن يُقاتل أحداً إلّا عندما يردّ العدوان عن نفسه أو عن عرضه أو عن وطنه فقط. ولذلك يجب

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الحجّ، باب الخطبة أيّام مِنى، الحديث رقم (١٦٥٤).

أن يكون التّكفير في الدّين واضحاً. وقد يأتي أحدهم ويقول: هؤلاء تكفيريّون؛ لأنّهم غيّروا معنى التّكفير إلى التّقتيل والإجرام، وليست العلّة في كلمة الكفر والتّكفير، وإنّما العلّة في مَن يستخدم الكلمة في غير ما أراده الله ورسوله. وهناك من يرفع شعار الحريّة، وهي قضيّة عظيمة ومطلوبة لكلّ النّاس، ولكن هل الحريّة إذا حوّلتها إلى فوضى واعتداء على الآخرين يبقى اسمها حريّة؟ وهناك من اعتدى على الآخرين وقال: (أنا حرّ).. فهل أقتل وأسرق وأزني.. وأقول: هذه حريّة!! فالمشكلة هنا ليست في كلمة حريّة، وإنّما المشكلة في مَن غيّر مصطلح الحريّة وحوّلها إلى فوضى واستباحة، وهذا مشابه لمن غيّر كلمة كافر التي تعني ساتر، أي يستر معنى الإيمان بالله ﷻ، ولا تعني أن نلبس هذه الكلمة معنى الجرائم والقتل والتّقتيل، ونأخذ مواقف من النّاس تبرّر قتلهم بسبب كفرهم بديننا، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس]، إذن: لا قتال ولا قتل، لا إجرام ولا تكفير، بمعنى التّقتيل من قبل التّكفيريّين والإرهابيّين.

وعندما يتحدّث الله ﷻ عن الكفر وعن التّكفير يجب أن نفرّق بين أن يكون القائل هو الله تبارك وتعالى أو الإنسان. فأنت عندما تطلق على إنسان أنّه كافر فما أدراك؟! ربّما قام بعمل من أعمال الإسلام وهو غير مسلم، وربّما يؤمن قبل موته بلحظات.. وحين يتحدّث الله ﷻ عن الكافرين فإنّه يتحدّث بعلمه وليس بعلمك، بمقاييسه وليس بمقاييسك، وحين يقول

تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ فإنّه ﷻ يتحدّث بعلمه وأنت لا تستطيع أن تحيط بعلمه بالحوادث، وحين يكلّف سيّدنا محمّداً ﷺ بالدّعوة والإنذار فإنّه يقول له: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾[فاطر: من الآية ٨]؛ لأنّني أعلم أنّهم لن يؤمنوا.

ومثل هذا نجده في سورة (المسد): ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾ والكلام عن عمّ النّبيّ ﷺ.. وقد قال الله ﷻ عنه أنّه: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣﴾ [المسد]، فماذا لو كان أبو لهب أسلم بعد نزول هذه الآيات؟؟ لكنّ علم الله القديم سَبقَ أنّ أبا لهبٍ لن يقول شهادة التّوحيد مع أنّه كان حرّاً في أن يقولها أو لا يقولها. والله ﷻ يحاسبك على عملك وليس على علمه الكاشف، فأنت مسؤول عن عملك: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾ [النّجم]. وقد يقول الإنسان: أنا مكتوب عليّ أن أكون فاسقاً أو كافراً.. فلماذا يُحاسبني الله؟ هذا سؤال خاطئ؛ لأنّه لا يمكن أن نقارن الرّب بالعبد، والخالق بالمخلوق، وكان يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحاً لو أنّ الّذي سيحاسبك هو نظيرك، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. فالله ﷻ له صفات الكمال التي لا تدركها: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام]، والله يُدرك بعلمه مستقبل الأشياء، لكن الإنسان لا يُدرك الغيب، وقد قال له ربّه: هذا طريق الخير، سِر فيه لأجزيك الجنّة، وهذا طريق الشرّ، إن سِرت فيه تذهب إلى نار جهنّم.

ونحن مخلوقات، ولا ندرك صفات الكمال عند الله ﷻ، ولا نعرف أنّه يعلم مسبقاً، فأنت تعمل وتُحاسَب على عملك، ولا تُحاسَب على علم الله الكاشف للأشياء؛ لأنّها من صفات الكمال التي لا يُدركها الإنسان.

وعندما يتحدّث المولى ﷻ عن صفات معيّنة في الكافرين لا يقول للنّبيّ ﷺ: (لا تُنذِر يا محمّد)، بل يقول: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية]، أنت مطلوب منك أن تذكّر، ومطلوب منك أن تُنذر، ومطلوب منك أن تبشّر، لكن أنا أعلم بهؤلاء الّذين كفروا وما هو مصيرهم.

وهذا يتعلّق بالتّعميم والتّخصيص في القرآن الكريم. وتفسير القرآن الكريم شيء دقيق وهامّ وخطير، ولا يجوز أن يتصدّى للتّفسير إلّا أهله.

وحين يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾، قد يُعمّم على فئة معيّنة، وليس على كلّ الّذين كفروا؛ لأنّ كثيراً من الّذين كانوا كافرين آمنوا، فهو يخصّ في هذه الآية فئة معيّنة يعلمها بعلمه الكاشف، وليس بعلمك ولا بعلمهم، وليس بالرّؤية التي تراها أنت في حياتك الدّنيا، فالقائل هو الله، فانسبوا القول إلى القائل، وانسبوا الفعل إلى الفاعل.

(الآية ٧) - ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾:

الختم: يعني إغلاق منافذ القلب والإدراك.

ووسائل الإدراك هي الحواسّ، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم

مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النّحل]، والقلب (الفؤاد) والسّمع والبصر أدوات إدراك، تسمع بها وترى آيات الله ﷻ، تسمع الدّعوة إلى الله، تسمع القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ، فهذه هي الأدوات التي يُدرك بها الإنسان، ويُتوصل من خلالها إلى الإيمان.

ولماذا قلنا: القلب وليس العقل؟ هل القلب يعقل؟ الجواب: أنّ القلب يتلقّى كل ما يعقده العقل ويستقرّ كثابت في العقل، ويعقد عليه، فيصبح عقيدة في القلب. فالعقل يتفكّر فيما يرد إليه عن طريق الحواسّ، وبعد أن يستنتج ويؤمن ويتوصّل إلى الحقائق، تستقرّ في القلب لتصبح عقيدة.

فالعقل مقدّمة القلب، لذلك يقول ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجّ: من الآية ٤٦]، فكلّ أمرٍ يمرّ على العقل أوّلاً. وهؤلاء الّذين ستروا الإيمان، وعَلِمَ الله ﷻ بعلمه القديم الكاشف أنّهم لن يؤمنوا، هؤلاء أبان الله ﷻ لهم الطريق، وبيّن لهم الهداية من الضلال، فاختاروا الضّلال، فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة.

والقرآن الكريم غالباً ما يقدّم السّمع على البصر في مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: من الآية ٣٦]، وغالباً ما يأتي بالآيات بالسّمع مفرداً، وبالأبصار مجموعة، فالسّمع يكون من مصدر واحد، ولا يجتمع مصدران؛ لأنّ السّمع هو انضغاطات الهواء

الواحدة، أمّا البصر فصوره متعدّدة، لذلك يأتي بالسّمع مفرداً وبالبصر متعدّداً. ومردّ تقديم السّمع على البصر:

١- أنّ السّمع قد يغني عن البصر، والبصر لا يُغني عن السّمع.

٢- تتوقّف عند النّوم حاسّة البصر، لكنّه يبقى قادراً على السّمع.

٣- وأنّ الإنسان حين يولد تعمل لديه حاسّة السّمع أوّلاً، بينما تحتاج حاسّة البصر إلى أربعين يوماً كي تكتمل.

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة ﴿خَتَمَ﴾ على قلوبهم وعلى سمعهم، أمّا على الأبصار فقال: ﴿غِشَٰوَةٞ﴾، وهذا مِن دقّة القرآن الكريم؛ لأنّ الختم ضرب يمنع من دخول الإيمان. أمّا البصر فهو يرى كلّ آيات الله في الكون، فإذا كانت هناك غشاوة على البصر لا تُرى الأمور على حقيقتها، وقد تُرى ضبابيّةً، تُرى صور وجود الله ﷻ في الكون، الشّمس في شروقها وغروبها، القمر، النّجوم، السّماء، الأرض، الجاذبيّة، ولكن حين تكون هناك غشاوة لا يُتوصّل إلى الخالق؛ لأنّ من كانت هذه حاله، يكون هو من اختار الضّلال، كما قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصّلت: من الآية ١٧]، هديناهم لكنّهم هم استحبّوا الضّلال فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم.

ويأتي وصف العذاب مرّة بأنّه أليم، ومرّة عظيم، ومرّة شديد، ومرّة مهين. وهذا يعني أنّه يوجد أنواع للعذاب، والعذاب ينسب إلى صاحبه كما ينسب الفعل إلى فاعله، وحين يقول الله ﷻ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

فهذا عظيم بمقياس الله، وعندما يقول: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي أنّ هذا الإنسان الّذي كان على رفعةٍ في الحياة الدّنيا أهانه الله ﷻ في الآخرة على رؤوس الأشهاد.

ونأتي إلى آيات النّفاق التي استغرقت ثلاث عشرة آية؛ لأنّه ليس هناك ما يُسبّب خراب المجتمع مثل المنافقين، وقد قلنا: إنّ النّفاق ظهر في المدينة المنوّرة، ولم يكن هناك نفاق في مكّة بسبب ضعف المسلمين الّذين كانوا مضطهدين، أمّا في المدينة المنوّرة وقد ساد الإسلام فأصبح بعضهم يتظاهر بالإسلام ويُبطن الكفر، هؤلاء هم المنافقون. ففي المدينة ظهرت قضيّة ثالثة غير الإيمان والكفر، وهي قضيّة النّفاق. والمنافق مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وإنّما إلى مصلحته.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن المؤمنين في ثلاث آيات، وعن الكافرين في آيتين، وأفرد ثلاث عشرة آية للحديث عن المنافقين، كما أسلفنا.

(الآية ٨) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾:

هذه أولى صفاتهم، وهناك نفاق اعتقاديّ ونفاق سلوكيّ، والنّفاق الاعتقاديّ هو أن يُبطن الإنسان الكفر ويُظهر أمام النّاس الإيمان. أمّا النّفاق السّلوكيّ فيتمثّل في ذي الوجهين: (وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً). وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾ [النّساء]، وقال ﷺ: «**أربعٌ من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً،**

ومن كانت فيه خصلةٌ منهنّ كانت فيه خَصلةٌ من النّفاق حتّى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1]، فهذا نفاق سلوكيّ.

وقول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ من الّذي يكشف بأنّهم غير مؤمنين؟

علم الله القديم هو الّذي يكشفهم، فهو يعرف من أبطن الكفر وأظهر الإيمان. وفي مجتمع المدينة كان رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول. وقد أفرد القرآن الكريم سورة كاملة عن المنافقين وهي سورة: (المنافقون)، ممّا يدلّ على خطر النّفاق في المجتمعات. وفي بداية سورة (المنافقون) يقول ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ فهم يشهدون أنّه رسول الله، والله يشهد أنّهم كاذبون.

وحين يقرأ المستشرقون مثل هذه الآيات تلتبس عليهم الضّمائر فيها فلا يدركون عائديّتها، وتختلط عليهم الأمور، فالمنافقون، يقولون ما لا يؤمنون به. والصّدق هو أن يطابق القول الاعتقاد الموجود في القلب، فمن خالف قوله اعتقاده فهو كاذب، والّذي يكشف الكذب هو الله ﷻ، وهو الّذي يتحدّث بعلمه القديم، وهو يقول: إنّهم لكاذبون، ليس في قولهم، بل في اعتقادهم، فهم كاذبون؛ لأنّهم يقولون غير ما يعتقدون.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، الحديث رقم (٣٤).

(الآية ٩) - ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾:

الخداع في لسان العرب لابن منظور: إظهار غير ما تُبطن. فكيف نوفّق بين هذا المعنى وقول الله ﷻ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النّساء: من الآية ١٤٢]، ومثل ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران]، والله ﷻ ليس في حاجة إلى الخداع والمكر؟

ولا بدّ من امتلاك اللّغة العربيّة لمن يتصدّى للتّفسير، والمعنى: أنّ المكر الأوّل في الآية هو مكرهم، والمكر الثّاني في الآية هو أنّ الله يكشف مكرهم ويُبطل آثار مكرهم. وهنا في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لأنّهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله، وقد يخدعون المؤمنين، ولكن لا أحد يستطيع أن يخدع الله ﷻ؛ لأنّ الله ﷻ يعلم السرّ وأخفى كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه]، والسّرّ عادةً يكون بين اثنين، فما الّذي هو أخفى من السّرّ؟ هو ما تُضمره في نفسك دون أن تطلع عليه أحداً، فأنت لا تستطيع خداع الله ﷻ، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾، وفي آية أخرى يقول: ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [البقرة: من الآية ١٣]، والفارق بينهما هو أنّه حين يكون الحديث عن الإيمان يقول: ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾، وحين يكون الحديث عن النّفاق يقول: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ لأنّ الإيمان غيبيّ ويحتاج إلى علم، أمّا النّفاق

والخداع فهو شيء ملموس حسّيّ فناسبه القول بأنّهم: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

(الآية ١٠) - ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾:

أمراض القلوب تختلف عن أمراض الجوارح، فأمراض الجوارح تعطي إنذاراً بالألم، بينما أمراض القلوب لا تُعطي إنذاراً.

والإنسان قد يكون مفسداً ويظنّ نفسه أنّه يُصلح، وقد يكون بخيلاً ويقول: ليس هناك من هو أكرم منّي، وقد يكون فاجراً ويقول: ليس هناك من هو أهدى منّي، وقد يقول: أنا لا أحسد أحداً، ويكون أكبر الحاسدين.

فأمراض القلوب من عُجب وكبر وضغينة وحقد، لا إنذار لها.

والمنافقون في قلوبهم مرض وهم لا يشعرون، وأوّل سبب لذلك هو عدم الانسجام وعدم التّوافق بين الملكات، فهناك ملكة الكلام، وملكة الاعتقاد، وغيرها، وإذا أظهر الإنسان شيئاً وأبطن شيئاً آخر فهذا دليل على عدم الانسجام بين الملكات النّفسيّة، وعدم الانسجام مرض في القلب، وزادهم الله مرضاً ليس ظلماً منه (سبحانه)، بل لأنّهم اختاروا الضّلال والكذب واختاروا الفجور وعدم الأمانة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]، ويقول: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، فالله سبحانه وتعالى وضع أمام الإنسان الاختيار، فإمّا أن يختار خيار المرض فيزيده الله مرضاً لاختياره، وإمّا أن يختار الصّحة والسّلامة فيوفّق إليها.

وإذا نصح الطّبيب مريضاً بألّا يأكل السّكّر كي لا يزيد معدّله في

دمه، فأكلَ الحلوى، فهو الّذي اختار ولم يجبره أحد، وهكذا من اختار المرض فزاده الله مرضاً.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ والكذب أسوأ الصّفات، سئل رسول الله ﷺ: يا نبيّ الله هل يزني المؤمن؟ قال: «**قد يكون ذلك**»، قيل: هل يسرق المؤمن؟ قال: «**قد يكون ذلك**»، قيل: هل يكذب؟ قال: «**لا**» ثمّ أتبعها نبيّ الله ﷺ حيث قال هذه الكلمة: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النّحل: من الآية ١٠٥]»[1]، فالكذب أخطر الصّفات، وهو صفة ملازمة للنّفاق.

(الآية ١١) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾:

هذه هي مشكلة المنافقين، فهم يظنّون أنفسهم مصلحين.

والفساد على أضرب، فساد في القيم، وفساد في النّعم، وفساد في البدن. وفساد القيم يعلّم النّاس الانحلال والنّفاق والفجور والسّرقة والكذب والرّشوة. أمّا فساد النّعم فهو سوء التّصرّف بالنّعم التي أعطانا الله إيّاها، فمثلاً: إذا أعطاك الله ﷻ بئراً فردمته بدلاً من أن تصلحه وتستفيد منه، فقد أفسدت ما كان صالحاً في الكون. وفساد البدن مثاله لو أنّ إنساناً قيل له: لا تأكل كثيراً فيسقم بدنك، فأكثر من الأكل وتناول الأطعمة التي تضرّ بجسمه، ومَن قيل له: لا تشرب الخمر؛ لأنّه يؤدّي إلى تشمّع الكبد، فشرِبَ

(١) كنز العمّال: ج٣، الحديث رقم (٨٩٩٥).

الخمر.. فهذا فساد البدن. وفساد القيم والنّعم أخطر؛ لأنّ علاقتهما مع المجتمع بأكمله، فإذا ظهر الفساد في قومٍ فقد أحلّوا بأنفسهم عذاب الله، وإذا شاعت الموبقات كالزّنا والرّبا.. التي هي من فساد القيم فإنّها تضرّ بالمجتمع.. وهذه من صفات المنافقين. والمنافقون يُفسدون بحجّة الإصلاح، وباعتقادهم أنّهم مصلحون، وهم يُفسدون القيم والنّعم والبدن.

(الآية ١٢) - ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾:

المنافقون مفسدون، وهذه من صفات المنافقين، وهم لا يشعرون بالفساد، فاستخدم القرآن الكريم صفة ﴿لَّا يَشۡعُرُونَ﴾؛ لأنّ الفساد شيء حسّيّ ظاهريّ.

(الآية ١٣) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾:

جاء هنا قوله: ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنّ الأمر متعلّق بالإيمان -كما ذكرنا-، فإذا قيل لهم: آمنوا كما يؤمن النّاس، أي: بشكل صحيح سليم، قالوا: أنؤمن كما آمن السّفهاء؟ وهم يقصدون هنا الفقراء، أمّا السّفيه في اللّغة فهو ضعيف العقل.

(الآية ١٤-١٥) - ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾:

النّفاق هو من أخطر الأدواء التي تُصيب المجتمعات، وهو داء موجود

في كلّ مجتمع وفي كلّ زمان، لذلك عالج القرآن الكريم هذه المفسدة الكبرى، وهذا المرض القلبيّ الخطير الّذي يُظهر فيه الإنسان غير ما يُبطن، وخطر النّفاق على أيّ مجتمع هو خطر هدّام من الدّاخل؛ ذلك لأنّ العدوّ الظّاهر أو العدوّ الخارجيّ مُظهر لعداوته، أمّا الّذي يُبطن العداوة ويُظهر الصّداقة والمحبّة فهو ذلك الإنسان المنافق.

(الآية ١٦) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾:

وقوله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعني المنافقين الّذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾، وكلمة شراء في التّجارة يُقابلها البيع، والباء تدخل على المتروك، وهو الهدى. فهؤلاء أخذوا الضّلالة وتركوا الهدى، وهي عمليّة تجاريّة خاسرة؛ لأنّهم دفعوا الهدى ثمناً للتّجارة.

وقد نتساءل هنا: أيّ هدىً كان عندهم فيدفعُونه مقابل الضّلالة؟ وقد قلنا: إنّ هناك هداية الدّلالة التي يدلّ بها الأنبياءُ النّاسَ إلى وجود الله ورسالاته والآخرة والحساب.

ومن اختار هداية الدّلالة جاءته هداية المعونة، أمّا الهداية التي باعها المنافقون مقابل الضّلالة فهي بداية الهداية، أي هداية الفطرة الإنسانيّة التي يُخلق عليها الإنسان: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف]، وكان هذا في عالم الذرّ حين أخذ

الله من بني آدم إقرارهم على أنفسهم، فهذه هداية مركونة في فطرة الإنسان كما قال النّبيّ ﷺ: «**ما من مولود إلّا يولَد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه...**»[1]، فيأخذونه في هذا الاتّجاه أو ذاك، فالفطرة هداية من الله ﷻ. والمنافقون باعوا فطرتهم مقابل الضّلالة، ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾: فما عادت تُفيدهم هداية الدّلالة ولا هداية المعونة. ولا يستطيع أحدٌ أن يُدخل إلى قلوبهم هداية المعونة؛ لأنّهم اختاروا الضّلالة، ولهذا قال الله ﷻ مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، وهذه هداية دلالة، أمّا قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: من الآية ٥٦]، فمعناها: أنّك لا تستطيع أن تُدخل هداية المعونة في قلب مَن اختار الضّلالة على الهدى.

(الآية ١٧) - ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۝١٧﴾:

وهذا مثل من أمثال القرآن الكريم، والله ﷻ يقول: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر: من الآية ٢١]، ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت]، وقال تبارك

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصّبيّ فمات هل يُصلّى عليه؟ وهل يُعرض على الصّبيّ الإسلام؟، الحديث رقم (١٢٩٢).

وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٦]، وقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾[النّور: من الآية ٣٥].

ويضرب الله المثل ليقرّب إلى أذهاننا أموراً غير محسوسة، فيشبّهها بأمور محسوسة كي نفهمها، وفي هذه الآيات جاء الحديث عن النّفاق وهو شيء غير محسوس فضرب الله له مثلاً محسوساً. وقد ضرب الله الأمثال المحسوسة لنور الله ﷻ، أو للإيمان بالله، أو وحدانيّة الله، ولم يضرب مثلاً لذاته العلية ﷻ؛ لأنّه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾[النّحل: من الآية ٧٤]؛ لأنّك لا تستطيع أن تقيس صفات الله ﷻ وأفعاله على قياس العقل البشريّ.

والأمثال هي قياس، والإسلام هو أوّل من علّم النّاس القياس، وهي قضيّة علميّة.

والأمثال في اللّغة العربيّة كثيرة، وقد تدلّ على قصّة أو حادثة فتُختصر في كلمتين، كقولهم: (وافق شنٌّ طبقة)، وقصّة هذا المثل أنّ رجلين سافرا معاً أحدهما سمين، والآخر نحيف، واسمه (شنّ)، فقال للسّمين: أحملك أم تحملني؟ فنظر إليه السّمين بازدراء ولم يُجبه، وتابعا المسير فمرّا بأرضٍ زراعيّة، وإذ بزرعٍ قد حان وقت حصاده، ولم يحصد بعد فقال شنّ: أَتُرى هذا الزّرع قد أُكل أم لا؟!، فقال له الرّجل: يا جاهل! ترى نبتاً مستحصداً فتقول: أُكل أم لا؟! فسكت عنه شنّ، حتّى إذا دخلا قرية لقيتهما جنازة، فقال شنّ: أَتُرى صاحب هذا النّعش حيٌّ أو ميّتٌ؟ فقال له الرّجل: ما رأيت

أجهل منك، ترى جنازة تسأل عنها أميّت صاحبها أم حيّ؟ فسكت عنه شنّ، فأراد مفارقته فأبى الرّجل أن يتركه حتّى يصير به إلى منزله، فمضى معه، فكان للرّجل بنت يُقال لها: طبقة، فلمّا دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه، فأخبرها بمرافقته إيّاه، وشكا إليها جهله، وحدّثها بحديثه، فقالت: يا أبت، ما هذا بجاهل، أمّا قوله: (أتحملني أم أحملك؟) فأراد أتحدّثني أم أحدّثك حتّى نقطع طريقنا؟ وأمّا قوله: (أَتُرى هذا الزّرع أُكل أم لا؟) فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا؟ وأمّا قوله في الجنازة، فأراد هل ترك عقباً يحيا بهم ذكره أم لا؟ فخرج الرّجل فقعد مع شنّ فحادثه، ثمّ قال: أتحبُّ أن أفسّر لك ما سألتني عنه؟ قال: نعم، ففسّره، قال شنّ: ما هذا من كلامك، فأخبرني عن صاحبه، قال: ابنة لي، فخطبها إليه، فزوّجه إيّاها، وحملها إلى أهله، فلمّا رأوها قالوا: (وافق شنٌّ طبقة) فذهبت مثلاً.

ونحن في هذه الآية أمام أوّل مثل في ترتيب القرآن الكريم، يريد الله تعالى أن يقرّب به إلى أذهاننا العقليّة والبشريّة قضيّة النّفاق الخطيرة في المجتمع، والتي هي من أكبر أسباب فساد المجتمع، وخاصّة النّفاق السّلوكيّ الّذي آيته كما قال رسول الله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[1]، وفي رواية: «**وإذا خاصم فجر**»[2]. وفي هذه الآية يشبّه الله ﷻ المنافق بالّذي استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، الحديث رقم (٣٣).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، الحديث رقم (٣٤).

ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، وهذا تشبيه لا يخطر في بال بشر، فالّذي يستوقد ناراً يفعل ذلك إمّا للحصول على النّور، أو من أجل الطّهي، أو من أجل الدّفء، فهو يطلب منفعة معيّنة، فمثله مثلُ المنافق الّذي يحاول أن يجد ما ينفعه.. ولمّا جاءت الرّسالة واليهود الّذين كانوا يقولون: إنّ هناك نبيّاً اقترب زمانه، وإنّ الهداية آتية على يد نبيّ مبعوث من الله ﷻ، فعندما جاءت الهداية والأنوار بالرّسالة السّماويّة الخاتمة وهي الإسلام، ذهب الله بنورهم أي بضوئهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون؛ لأنّ أبصارهم لم تر النّور الّذي يأتي إلى الدّماغ عن طريق العين، فيعطي الدّماغ انعكاس الصّورة. وقد استخدم الله ﷻ كلمة (نورهم)؛ لأنّ الّذي تُرى فيه الأشياء هو النّور وليس الضّوء، والضّوء قد يكون مؤذياً، فهذه الكلمة الدّقيقة العلميّة الصّحيحة في القرآن الكريم الّذي سبق علم البشر.

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ١٧﴾ لماذا في ظلمات؟ لأنّه إذا لم يكن هناك نور تكون الظّلمة، وحين يكون هناك نور وينطفئ تكون الظّلمة أحلك، وتصبح ظلماتٍ. والنّفاق ظلماتٌ، ظلمة الكذب والحسد والرّياء... وهذا مثل المنافقين الّذين حاولوا أن يستوقدوا ناراً، أي أن يطلبوا منفعة، فلمّا أضاءت الدّنيا بنور هذه النار لم يهتدوا بها ولم ينتفعوا منها، فتركوا الخير كلّه بسبب الصّغائر المحيطة من رعد وبرق، فهم كمن يريد الهداية من غير ابتلاء ولا امتحان، ويريد النّجاح من غير تعب، والرّزق من غير عمل، والعطاء من غير إعطاء.

(الآية ١٨) - ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾:

لا يسمعون كلام الله ﷻ، ولا يتحدّثون بآيات الله، وعميٌ لا يرون آيات الله ﷻ، ولا ترجع هذه الحواسّ إليهم بشيء.

(الآية ١٩) - ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾:

فهم ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾: لم يلتفتوا إلى الغيث الّذي أحيا الله ﷻ به الأرض بعد موتها، ولا إلى الخير المحيط بهم، بل جعلوا أصابعهم في آذانهم من شدّة الخوف، والله محيط بالكافرين.

الصّيّب: المطر الّذي فيه خير، وهو الغيث، ومع هذا الخير ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ، فالخير من المطر، والخوف من الرّعد والبرق والظّلمة.

وقد تصيب الإنسان بعض الابتلاءات أثناء نزول الخير، فالمطر يحيي الأرض والنّاس، وهو من أعظم النّعم التي أنعم الله ﷻ بها على البشر، فإنْ صاحَبَها بعض الرّعد والظّلمة.. إذا بالإنسان يترك الخير كلّه ويلتفت إلى هذه الصّغائر المحيطة بالخير، فهو يريد الهداية من غير ابتلاء، والنّجاح من غير تعب.

﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾: لم يقل الله تبارك وتعالى: يجعلون أناملهم، ولكن من شدّة الخوف شبّه الله ﷻ شدّة خوفهم، وكأنّهم قد أدخلوا أصابعهم كاملة في آذانهم، خوفاً من الصّاعقة، والله ﷻ محيط بالكافرين.

(الآية ٢٠) - ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾:

ما زالت الآيات تتحدّث عن المثل الّذي ضربه الله ﷻ عن المنافقين، فهم يريدون الخير صِرفاً من غير صعوبة ولا ابتلاء، وهذا المطر فيه الرّعد والبرق، والظّلمات، ولا بدّ من تحمّل المشقّة للحصول على الخير.

وليس هناك دين بلا تكليف، ومن أراد ديناً بلا تكليف فهذا ليس ديناً. والتّكاليف الشّرعيّة ليست عبادة فقط، افعل ولا تفعل، بل يعني هذا حلال وهذا حرام، وهذا يجوز وهذا لا يجوز. وليس هناك دين بلا تكاليف ووظائف، ولا بدّ من ترجمة الإيمان بالأفعال، ولا بدّ من الصّبر على تحمّل الابتلاءات.

والمنافق يريد أن يحصل على الخير من غير أن يتحمّل عبءً، وأن تأتيه المكاسب من غير مقابل، فهو لا يريد أن يتحمّل أيّ تكليف مقابل المكسب الّذي يحصل عليه. ولذلك ضرب الله ﷻ لهم هذا المثل: كصيّب أي مطر وهو خير يَنزل من السّماء ومع الخير ظلمات ورعد وبرق.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ﴾: وهذا يعني أنّهم يرون، والآية السّابقة قالت إنّهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ﴾، أي لا يسمعون ولا يتكلّمون ولا يرون. وفي هذه الآية يقول: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ﴾ فهذا المطر والخير الكثير يأتيه برق لمدة ثوانٍ فيخطف البصر، وتتّجه أبصارهم إليه: ﴿كُلَّمَآ

أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ﴾ فهم لا يتّبعون إلّا المنافع، ولا يتّبعون الحقائق: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾ وكان تعطّل حواسّهم معنويّاً، فالحاسّة تبقى، لكنّ فائدتها تذهب، أي تسمع ولا تتّعظ، ترى ولا تعتبر، فصاحبها كالأعمى الأصم، وحين يقول الله ﷻ: ﴿صُمُّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ﴾ أي عن الحقائق والعظات والعبر. وإذا بدت لهم منفعة معيّنة تتبّعوها، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم الحقيقيّة وليست المعنويّة.

ففي الآية السّابقة كان يقصد البصر والسّمع والنّطق المعنويّ، وفي هذه الآية يقصد السّمع والأبصار الحسيّة، فهناك عمىً معنويّ وعمى حسّيّ كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجّ: من الآية ٤٦]. وهذه هي صفات المنافقين في سورة (البقرة) التي تحدّثت أوّلاً عن صفات المؤمنين المتّقين، ثمّ عن صفات الكافرين، وأخيراً عن صفات المنافقين. وهذا الاختلاف في مواقف النّاس هي طبيعة خلق الله ﷻ؛ لأنّ الله ﷻ خلق النّاس على اختلافٍ ولم يجعل النّاس كلّهم في طبيعةٍ واحدةٍ ومواقف واحدةٍ، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾ [هود: الآية ١١٨، ومن الآية ١١٩].

(الآية ٢١) - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ﴾:

هذا خطاب لكلّ البشر، وفي مواضع أخرى يقول ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: من الآية ٢٦]، ليذكّرهم بأبيهم آدم عليه السلام، وفي مواضع أخرى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: من الآية ١٠٤]، ويأتي بعدها تكليف؛ لأنّ الّذي آمن ارتبط بعقد وعهد مع الله ﷻ، فيأتيه أمر بالصّلاة والصّيام والزكاة وسائر التّكاليف، كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٣]، والّذي لم يؤمن بعد لم يكتب عليه الصّيام.. والصّلاة.. فهذه الفرائض هي نتيجة الدّخول في عقد مع الله، وهذا العقد بالاختيار وليس بالإجبار، فمن اختار الإيمان أُلزم بالتّكاليف من أوامر ونواه عليه أن يلتزم بها، فأنت لست مجبراً على الإيمان، أنت حرّ في اختيار دينك: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، ولكن ليس لك أن تقول: أنا مؤمن وأريد أن أسرق، وأكذب، وأزني، ولا أريد أن أصلّي؛ لأنّ الحريّة قبل اختيارك للتّكليف، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب]، والأمانة هي اختيار التّكليف. فقد أودع الله في الإنسان عقلاً يختار بموجبه، فإذا اختار الإيمان فإنّ من موجبات الإيمان التّكليف. والّذي يدّعي الإيمان ولا يلتزم بتكاليفه من غير عذر يكون فتنة لغيره، والّذي يقوم بالموبقات والتّكفير والقتل والإرهاب وسبي النّساء وجهاد

النّكاح وسلب أموال النّاس وقطع الطّرقات وارتكاب الفواحش، فإنّه يُسيء للدّين، وليس له علاقة بالدّين؛ لأنّ أوامر وتكاليف الدّين واضحة صريحة لا تقبل التّأويل، فالصّلاة صلاة ولا تُفسّر بغير ذلك، ولا أقول إنّ الصّلاة في القلب، وكذلك الصّوم شروطه معروفة، وآيات الأحكام واضحة بيّنة للناس جميعاً. وقد بيّن الله ﷻ في آيات سابقة صفات المؤمنين، وصفات الكافرين، وقولنا: هذا كافر، ليس معناه أن يُقتل، وقد أمرنا الله ﷻ بقتال المعتدين وليس بقتال الكافرين ولا المشركين، ونبيّنا لم يُقاتل النّاس على دينهم، وإنّما قاتلهم على عدوانهم، فقال ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحجّ: الآية ٣٩، ومن الآية ٤٠]، وسبب الإذن بالقتال هنا هو الظّلم الواقع على المؤمنين. وفي هذه الآية وفي أمثالها والتي يُخاطب الله ﷻ فيها النّاس جميعاً ويبدؤها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يأتي بعدها أمر عامّ للنّاس جميعاً، المؤمنين منهم وغير المؤمنين: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، والعبادة طاعة عابد لمعبود. والطّاعة تعني أن تلتزم أوامر الله ﷻ، وأن تنتهي عمّا نهى عنه.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، الطّاعة لله؛ لأنّه خلقنا، وهذا يدلّ على أنّ القرآن الكريم يتعاطى مع الإيمان عقليّاً، فهو يبيّن سبب العبادة ويخاطب ملكة العقل قبل كلّ شيء. والخالق هو سبب كلّ النّعم التي يتقلّب فيها الإنسان، وقد عدّد بعض النّعم التي أعطانا إيّاها بشكل يُثبت أنّه ﷻ هو الّذي أوجدها، وبكلمات مقتضبة قاطعة ستبقى

خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهي آية تُثبت وحدانيّة الله ﷻ وأنّه الخالق الوحيد. ومنذ أن قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ لم يأت أحدٌ ويدّعي بأنّه الخالق.. عبر كلّ الأجيال التي مرّت وحتّى هذه اللّحظة، ولو قالها أحد لاتُّهم بالجنون، ولم تأت دولة أو عظيم ليقول: أنا خلقت البشر، وبحسب العقل يبقى (الله ﷻ) هو الخالق حتّى يأتي من يُثبت غير ذلك. ومثاله: أنّني لو قلت أمام جمع من النّاس: هذا القلم لي، فالقلم ملك لي ما لم يأت أحد ويُنازعني ملكيّته. والله ﷻ أعطى الأدلّة والإثباتات الكونيّة بأنّه هو الخالق وهو الموجد وهو الّذي لا إله إلّا هو في كثير من الآيات، وهنا يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾.

التّقوى كما سبق تعريفها: هي أن تجعل بينك وبين صفات الجلال حاجزاً. وقد قلنا: إنّ هناك صفاتِ جلالٍ وصفاتِ جمالٍ لله تعالى، ومن صفات الجلال: المنتقم، شديد العقاب، الجبّار، القهّار... ومن صفات الجمال: الغفور، الودود، الرّؤوف، الرّحيم.. التّقوى إذاً أن تجعل بينك وبين صفات غضبه حاجزاً يحجز غضبه عنك.

(الآية ٢٢) - ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

قوله ﷻ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾: أي هيّأ للإنسان من قبل أن

يولّد ظروف عيشه وراحته وسعادته، فجعل الأرض مهاداً، وفراشاً، وذلولاً ليعيش عليها الإنسان.

الفراش: المكان الّذي يستريح فيه الإنسان، والمهد الّذي يرتاح فيه الطّفل.. وهذا يعني أنّه هيّأ كلّ المكوّنات التي تجعل حياة الإنسان صالحة على الأرض.. فجعلها كرويّة تدور حول نفسها وحول الشّمس، وجعل فيها نسب الهواء المتوازنة، وجعل فيها البحار.. والغلاف الجويّ المحيط بالأرض.. وبالاختصار جعل الأرض وما عليها صالحاً لعيش الإنسان ومسخّراً لراحته.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: الماء سبب الحياة، والله خلق الأرض ويشكّل الماء منها ثلاثة أرباع مساحتها.. وذلك كي تتبخّر المياه من مسطّحات مائيّة واسعة تؤدّي إلى تجمّع الغيوم وتشكّل المطر، وخذ مثالاً: عندما نضع الماء في كأس مساحة سطحه صغيرة ونتركه خمسة أيّام نجد أنّ كمية الماء قد نقصت قليلاً، بينما لو سكبت كأس الماء على الأرض لوجدت سرعة التّبخّر أكثر؛ لأنّ السّطح أوسع. قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾[الأنبياء: من الآية ٣٠]. وقد جعل الله في الأرض كلّ مقوّمات الحياة، وخلق السّماء، وكلُّ ما علاك فأظلّك فهو سماء.. يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذّاريات]، أي بنيناها بقوّة، أي متماسكة، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: من الآية ٤١]، فيطمئنّ الإنسان لهذا البناء القويّ المتين. وخلق الله ﷻ الكون وخلق الأرض، وكانت هناك نظريّة تحدّثت عن خلق الكون، فقالت:

إنّ الكون أزليّ، ثمّ ثبت بالعلم القاطع أنّ الكون ليس أزليّاً، بل وُجِد فجأة قبل ثلاثة عشر ملياراً من السّنين، حيث حدث انفجار كونيّ ضخم. فالكون بما فيه من الأرض والسّماء والشّمس والماء والهواء... ليس أزليّاً، بل وُجِد في وقت ما، ولا بدّ له من موجد.. ولا يمكن أن يكون قد وُجِد صدفة. وقد مرّ القرآن الكريم على هذه الفكرة ببساطة فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾[الأنبياء]، فذكر الله ﷻ الماء في حديثه عن الانفجار الكونيّ الضّخم.. وكلّ المجرّات الكونيّة وُجدت ولم تكن أزليّة.. وجِدت في لحظة معيّنة وفي وقت معيّن منذ ملايين السّنين.. وحين خُلِقَ الإنسان كان جميع هذا الكون مهيّأً لاستقباله. ولا يمكن أن يكون كلّ ذلك صدفةً، وأنت ترى هذه المجرّات وهذه الدّقّة المتناهية والتّوازن في المسافات.. فلو قَرُبت الشّمس من الأرض أكثر لاحترقت الأرض، ولو بعدت قليلاً لتجمّدت.. وكلّ شيء بحساب، وكلّ شيء بمقدار. وعندما خلق الله ﷻ الإنسان جعله متناسباً مع مكوّنات الأرض، وحين خلق الهواء جعل للإنسان رئتين يتنفّس بهما الهواء.. وحين خلق الضّوء جعل له عينين لانعكاس الصّورة ونقلها إلى الدّماغ لرؤية الأشياء وإدراكها. وحين أوجد ثمرات الأرض جعل للإنسان أسناناً في فمه، وجعل له معدة تهضم الطّعام. وهذا كلّه يدلّ على أنّه تعالى أعدّ الكون لاستقبال الإنسان وجعل الإنسان في أحسن تقويم، وجعله متناسباً مع ما أعدّ له على الأرض من هواء وماء

وطاقة وشمس وثمار.. وحين يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي أطيعوه، فهو الّذي رزقكم، والرّزق هو كلّ ما ينتفع منه الإنسان، فالعلم رزق ينتفع به، وكذلك الصّحّة والمال.. ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وهذا الكلام يُخاطب العقل، والإسلام دين العقل وليس دين الإرهاب والقتل والإكراه والجهل والتّخلّف. وقد سلكت آيات القرآن طريقاً واحداً لمخاطبة الإنسان وهو العلم، فقال ﷻ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق]، وقال جلّ وعلا: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [القلم]، فالعلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة كما قال النّبيّ ﷺ: «**طلبُ العِلم فريضةٌ على كلّ مسلم..**»[1]، وقد جاءت الآيات تُخاطب العقل، والله ﷻ لم يُجبر النّاس على الإيمان، ولو أراد لفعل.. لكنّه خاطبهم بالعقل والإقناع وتعداد نعمه وآياته.. وكلّ المخلوقات طائعة بالقهر إلّا الإنسان الّذي كرّمه الله ﷻ بالعقل، ووهبه القدرة على التّفكير. وهو عقل التّفكير لا التّكفير، وهو مطالب بالتّفكّر، وبطاعة الله ﷻ مختاراً بإرادته، فأمّا الجمادات فقد جعلها الله ﷻ مقهورة لمشيئته، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصّلت]، وأمّا الإنسان فقد طلب منه الإيمان، وأثبت له طريق الإيمان عن طريق العلم والحواسّ.

---

(١) سنن ابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصّحابة والعلم، باب فضل العلماء والحثّ على طلب العلم، الحديث رقم (٢٢٤).

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: النّدّ: هو النّظير والشّبيه. أي: لا تعبدوا البشر ولا الحجر ولا الشّمس أو القمر أو الشّيطان أو الشّهوات...

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي: أنّ طريق العلم سيؤدّي بكم إلى الإيمان بالله.

(الآية ٢٣) - ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

الرّيب: هو الشّكّ، وهذا تحدٍّ إلهيّ حيث يقول للبشر: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟﴾، وقد نزل القرآن الكريم من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا جملة واحدة في ليلة القدر من شهر رمضان، فقال ﷻ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر]، وقوله ﷻ: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يقصد رسول الله ﷺ، وهذا تكريم له. وقد كانت أعظم معجزة لرسول الله ﷺ هي القرآن الكريم، وكانت له معجزات مشاهدة مثل الإسراء والمعراج وانشقاق القمر وتكثير الطّعام القليل بين يديه ونبع الماء من بين أصابعه وحنين الجذع إليه وتسليم الحجر عليه ﷺ، قال ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: من الآية ١]، وهنا في سورة (البقرة) يقول ﷻ: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.. والعبوديّة لله ﷻ عِزٌّ وليست ذلّاً، قال أحد الشّعراء:

حسب نفسي عزّاً بأنّي عبدُ يحتفي بي بلا مواعيد ربُّ

وأيّ عزٍّ أن يدخل إنسان على مالك الملك، على من بيده مقاليد

السّموات والأرض، ومن بيده الموت والحياة والرّزق والمنع والعطاء، ومن بيده كلّ شيء، في أيّ وقت وأيّ ساعة ومتى شاء، وأن ينهي لقاءه مع الله في أيّ وقت شاء.. أليس هذا عزٌّ للعبد؟! بل هو قمّة العزّ؛ لأنّك تركت العبوديّة للبشر وجعلت عبوديّتك لله ﷻ، وهذه هي قمّة الحريّة؛ لأنّك تتحرّر من نظائرك من البشر، ولا تعبد إلّا ربّ البشر.

والله ﷻ يتحدّى الّذين يشكّكون في آيات وسور القرآن الكريم بأن يأتوا بمثلها، والتّحدّي عادة يكون من جنس ما يملك الآخر الّذي نتحدّاه، فمثلاً: أنا لا أستطيع أن أتحدّى طبيباً لست في مثل تخصّصه، وهذا قياس فاسد، وإذا كان لا بدّ من تحدٍّ فيجب أن يكون من جنس واحد، أي من نفس الاختصاص. وفي هذه الآية يتحدّى القرآن النّاس جميعاً، ويخصّ الّذين نزل عليهم القرآن، وهم يتميّزون بالبلاغة، وكانوا يتبارون في الشّعر والمعلّقات، ويحفظون آلاف الأبيات من الأشعار والقصائد. وهؤلاء هم العرب الّذين كانوا سدنة الكلمة في بيئة البادية الصّافية، وهذه الآية تتحدّى النّاس الّذين كانوا في عصر التّنزيل، كما تتحدّى النّاس حتّى هذه اللّحظة، وإلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها. وما دام قد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو يتحدّى العرب في الأمور التي نبغوا بها، ويتحدّى غيرهم.. يتحدّاهم بالبلاغة وبالعلم وبكلّ ما يمكن للإنسان أن يتحدّى به القرآن الكريم.

وفي أيّام سيّدنا موسى عليه السلام كان قومه قد نبغوا في السّحر فتحدّاهم بفعل يشابه ما نبغوا به، وإن لم يكن هو السحر بعينه.

وفي أيّام سيّدنا عيسى عليه السلام كان النّاس قد برعوا في مجال الطّبّ فجاءهم بمعجزة إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

وفي وقت نزول القرآن الكريم كان العرب نابغين في البلاغة فتحدّاهم بمعجزة القرآن الكريم، ولم يستطيعوا أن يواجهوا هذا التّحدّي مع أنّهم كانوا أعظم الشّعراء وأعظم البلغاء وسدنة الكلمة؛ لأنّ القرآن الكريم يتضمّن الإعجاز البلاغيّ والبيانيّ، فقال لهم: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾: أي لن تفعلوا في وقت النّزول ولا في المستقبل. وقد حكم الله عز وجل أنّهم لن يستطيعوا؛ لأنّه منزل القرآن الكريم، وهو خالق البشر، والقرآن كلام الله، ولا نقول عن القرآن الكريم: إنّه مخلوق؛ لأنّ هذا القول فتنة، وقد نافح الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن القرآن الكريم، وجابه الّذين قالوا: إنّه مخلوق.. وعُذِّب من أجل ذلك.

والقرآن الكريم كلام الله؛ ولأنّ الكلام صفة المتكلّم لا يمكن أن نقول: إنّه مخلوق. وقد حدثت حرب فكريّة حول هذه الكلمة، وأثبت الإمام أحمد ابن حنبل للنّاس أنّ القرآن كلام الله وصفة من صفاته وليس مخلوقاً.

وإذاً الله سبحانه وتعالى تحدّى العرب من جنس ما نبغوا به، وكان العرب يتذوّقون الكلمة، ولو أنّهم وجدوا ثغرة في القرآن الكريم لأشاروا إليها، ولو استطاعوا أن يؤلّفوا قرآناً لفعلوا. وقد حاول مسيلمة الكذّاب وطليحة الأسديّ وسجاح تأليف قرآن ففشلوا أيّما فشل؛ لأنّه –مقارنة مع ما كان

ينبغ به العرب- لم يكن على مستوى التّحدّي.

وحين أراد مشركو مكّة التّحدّث مع رسول الله ﷺ ليكفَّ عن تبليغ دعوته جاءه عُتبة بن ربيعة وكان سيّداً حليماً، قال ذات يوم -وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحده-: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمّد فأكلّمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها، فنعطيه أيّها شاء، ويكفّ عنّا؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلّمه، فقام إليه عُتبة حتّى جلس إلى رسول الله ﷺ: فقال: يا بن أخي، إنّك منّا حيث قد علمت من السّطة في العشيرة والمكان في النّسب، وإنّك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعِبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرتَ به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله ﷺ: «**قل يا أبا الوليد أسمع**»، قال: يا بن أخي، إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنّما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتّى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا.. فلمّا فرغ من قوله -ورسول الله يستمع منه- قال ﷺ: «**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**»، قال: نعم، قال: «**فاستمع منّي**»، قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ

﴿ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصّلت]، ثمّ مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلمّا سمعها منه عُتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثمّ انتهى رسول الله ﷺ إلى السّجدة منها فسجد، ثمّ قال: «**قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك**». وفي رواية: أنّ عتبة استمع حتّى وصل رسول الله ﷺ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ فقام مذعوراً، فوضع يده على فم رسول الله ﷺ يُناشده الله والرّحم أن يكفّ عنه، وذلك مخافة أن يقع النّذير. وقام عُتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الّذي ذهب به، فلمّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال لهم: ورائي أنّي سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قطّ، وما دريت ما أردّ عليه، والله ما هو بالشّعر، ولا بالسّحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرّجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الّذي سمعت منه نبأ عظيم[1]. فالنّبيّ ﷺ جاءه بالمعجزة، وتلا عليه القرآن، ولم يقل له: آمن وإلّا فإنّ الله ﷻ سيحرقك بالنّار!!، فكان التّحدّي بالقرآن..

وهناك أمثلة كثيرة عن بلاغة وإعجاز القرآن الكريم، ففي سورة (يوسف) صوّرت الآيات واقعة معيّنة حدثت مع إخوة يوسف، وذكر القرآن الكريم قولهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا

(١) سيرة ابن هشام: ج١، ص٣١٣، وسطة: أي كان من خيار قومه نسباً، وأرفعهم مجداً.

﴿مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٧٨﴾ [يوسف]، ولو جاء بلغاء العالم كلّهم لما استطاعوا اختصار هذا الموقف في ثلاث جمل، وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: من الآية ٨٠]، أي يئسوا وتردّدوا وساورهم اليأس أكثر من مرّة، وحاولوا فاستيأسوا، وخلصوا منه، ولم يعرفوا كيف تخلّصوا، وكانوا يتناجون.. فصوَّر القرآن الكريم مشهداً كاملاً في ثلاث جمل مقتضبة تعطي معانيَ متعدّدة وحركة. فإنّك تشعر عندما تقرأ القرآن الكريم بأنّ هذا القرآن يتحرّك، وقد قال أحد المستشرقين: (أردت أن أقرأ القرآن فقرأني القرآن)، فالقرآن متحرّك، وقد كان النّبيّ ﷺ قرآناً يمشي على الأرض، أي أنّ القرآن يدخل إلى كلّ ملكات النّفس البشريّة من جرّاء هذا الأسلوب العظيم البلاغيّ المبدع المعجز، ونجد مثالاً آخر في قوله ﷻ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨﴾ [النّمل: من الآية ١٨]، فهذه النّملة الصّغيرة خاطبت وأمرت ونهت وعمّمت واعتذرت في جملة واحدة. فإعجاز القرآن الكريم واضح في كلّ سورة. ونجد في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ٢٢﴾ [التّكوير]، فمن يستطيع الإتيان بمثل هذه الجمل؟! وعندما يُريد الله ﷻ أن يتحدّث عن حجم جهنّم واتّساعها يقول: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ٣٠﴾ [ق]، فهل يخطر على بال إنسان عندما يريد أن يعبّر عن الاتّساع أن يأتي بمثل هذه الآية؟!!

وحين تحدّث ﷻ عن ساعة الاحتضار قبيل الموت قال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الواقعة]، لاحظوا دقّة الآيات.

وفي سورة (القيامة) حين قال ﷻ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة]. أفتعجبون من سجود المشركين مع المسلمين لعظمة هذه البلاغة وهذا الكلام؟!

(الآية ٢٤) - ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

الحجارة هنا هي الأصنام التي كانوا يعبدونها. وكلّما تحدّث القرآن الكريم عن النّار يتبعها بالحديث عن الجنّة، فبعد الإنذار بشارة.

(الآية ٢٥) - ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾:

البشارة: خبر سارّ يأتيك، والقرآن يبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات، ولم يكتفِ بالإيمان وحده؛ لأنّ الإيمان هو الرّصيد السّلوكيّ للإنسان، ونحن نعبّر عن الإيمان بالسّلوك. وعندما انفصل المسلمون بسلوكهم عن إيمانهم أضاعوا دينهم، فتجد من يصلّي ويصوم ويحجّ ويصلّي على النّبيّ.. ثمّ يكذب ويغتاب ويمشي بالنّميمة ويرتشي ويقتل فذلك لا يمكن طبعاً؛ لأنّ الإيمان هو الرّصيد القلبيّ للسّلوك، والإيمان هو «**ما وقر في القلب وصدّقه العمل**»[1] كما قال رسول الله ﷺ، فلا إيمان بدون ترجمان. والإيمان الصّحيح يعكس الأخلاق، وقد امتدح الله ﷻ رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم]، فاجتمعت فيه صفات الكمال، وهذه أعظم صفة لبشر، وهي الأخلاق.

وكأنّما عبّر ﷻ عن الدّين والشّرائع السّماويّة جميعاً من إسلام ومسيحيّة.. بأخلاقه، وقد قال ﷺ: «**إنّما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق**»[2]،

---

(١) مصنّف ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان والرّؤيا، الحديث رقم (٣٠٣٥١).

(٢) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب الشّهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، رقم الحديث (٢٠٥٧١).

فديننا دين أخلاقٍ وسلوكٍ، ويجب أن تتطابق السّلوكيّات مع المعتقدات.

ومن يدعو النّاس للتّحلّي بالأخلاق بدون دِين فلا فائدة من هذه الأخلاق، كما أنّ الإيمان بدون عمل صالح لا يكفي. فالإيمان هو رصيد القلب للسّلوك الّذي يُحاسَب عليه الإنسان، كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «**الإيمان بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستّون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق**»[1]، وقد فهم صحابة رسول الله ﷺ وآل بيته الأطهار وجيل الرّعيل الأوّل الإسلام على حقيقته، وأدركوا ذلك جيّداً، حتّى يقول سيّدنا عمر رضي الله عنه وقد كان جبّاراً في الجاهليّة يعبد الأصنام، وحين أسلم وتولّى الخلافة قال: "والله لو عثرت شاة على طريق الفرات لخفت أن يسألني عنها الله يوم القيامة، فيقول لي: يا عمر! لمَ لم تعبّد لها الطّريق"، وهذا أبو بكر الصّديق رضي الله عنه يوصي جنده قبل فتح بلاد الشّام: "أيّها النّاس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنّي، لا تخونوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرّقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلّا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام فرّغوا أنفسهم في الصّوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له"، وهذا الكلام يدلّ على فهم للإسلام بأنّه رسالة خير وعطاء، ورسالة أخلاق وقيم للإنسان ورفق بالحيوان والنّبات والجماد.. وليس للقتل والتّخريب والتّكفير.. هكذا فهموا الإسلام فاستطاعوا أن يفتحوا البلدان

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، الحديث رقم (٥٤).

ويعمروا البنيان ويرتقوا بالإنسان.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما هي الصّالحات؟ هي كلمة جمع، مفردها صالحة وعكسها الفاسدة. ومن الواجب علينا أن نحارب ونكافح الفساد، وعلى الأمم كلّها من دول متقدّمة ومتخلّفة ومن بلدان العالم الأوّل والثّاني والثّالث.. أن ترفع شعار (محاربة الفساد)، وقد سبقهم الإسلام إلى ذلك فربط الإيمان بالعمل الصّالح وهو ضدّ الفساد.

ما هو الفساد؟ هو اختلال الموازين وانفلات الشّهوات مثل: (شهوة التّملّك الّذي يؤدّي إلى السّرقة، وشهوة الجنس التي تؤدّي إلى الزّنا ...)، وقد جاء الإسلام ليضبط الشّهوات، وليس ليُطْلِقَها كما يدّعون حين يتحدّثون عن تعدّد الزّوجات، وسنتحدّث عن هذا في حينه. والإسلام أرقى التّشريعات، وكلّما ارتقى التّشريع البشريّ اقترب من تشريع الإسلام.

والفساد أنواع:

فهناك فساد في القيم، وفي النّعم، وفي البدن. والواجب محاربة الفساد بأنواعه الثّلاثة، وعلى رأسها فساد القيم؛ لأنّ اختلال الموازين والقيم يؤدّي إلى شيوع الفساد، قال ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الرّوم: من الآية ٤١]، وقد سخّر الله تعالى الأرض والسّماء والهواء والبحار والأنهار والآبار.. وكلّ شيء أعطانا إيّاه صالحاً، فأفسده الإنسان حين أطلق للشّهوات العنان. ولذلك جاءت الشّريعة الإسلاميّة لضبط حركة الإنسان في الحياة، كي لا يبغي على غيره، ولا يكون ظالماً حاسداً حاقداً

سارقاً زانياً مرتشياً نمّاماً كذّاباً.. فكيف يكون الإنسان مقيم الصّلاة وهو مفترٍ كذّاب قاتل..؟!! فمثلُ هذا لا يمكن أن نحسبه على الإسلام، والله تبارك وتعالى يقول في سورة (يونس): ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥﴾ [يونس: من الآية ٨٥]، والفتنة هي أن نقول عكس ما نفعل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصّف].

نكون فتنة للنّاس حين لا يتطابق سلوكنا مع عقيدتنا، عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر. والإسلام دين وليس مجرّد ثقافة، وهو عقيدة، وحين يتطابق السّلوك مع العقيدة لا نكون فتنة للنّاس؛ لأنّ من خالف سلوكه عقيدته يقدّم للنّاس صورة منافية عن الإسلام (كالإرهابيّين المتستّرين وراء ستار الإسلام) الّذين يخلطون الأمور ويأتون بشعارات إسلاميّة، ويُبطنون الجرائم والإرهاب والكذب على الله ورسوله، ممّا يؤدي إلى حدوث تشويه لعظمة هذا الدّين الّذي يجب أن نأخذه من مصادره الصّحيحة، كما قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النّحل: من الآية ٤٣].

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: وهذا وصف الجنّات، وهي كلمة مفردها جنّة، وتعني مجموعة أشجار وحدائق. والله ﷻ حين يتحدّث عن الجنّة يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرّعد: من الآية ٣٥]، فيقرّبها لنا بتشبيهها بجنّات الدّنيا من أشجار وأنهار وثمار.

ونحن لا نستطيع أن نصف شيئاً ليس له وجود في حياتنا الآن، فعندما أقول: (تلفاز) قبل اختراعه لا يستطيع أحد أن يتصوّره، وكذلك لو قلنا: (كهرباء) قبل اكتشافها لا أحد يستطيع معرفتها، والإنسان عدو لما يجهل. وقد وصف رسول الله ﷺ الجنّة بقوله: «**قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1]، وعندما يصف الله ﷻ لنا الجنّة يسبقها كلمة: (مثل)؛ لأنّ الحديث عن غيب يقرّبه إلى أذهاننا، فمثلاً الجنّة فيها خمر، ولكن ليس هو كالخمر المعروف في الدّنيا..

وحين يحدّثنا المولى ﷻ عن غيب ما نأخذه كما نزل في القرآن دون اجتهاد فيه؛ لأنّنا لا نعرفه.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ جاء مثل هذا المقطع من الآية في سورة (التّوبة) ولكن دون حرف الجرّ (من): ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التّوبة: من الآية ١٠٠]، وفي اللّغة العربيّة حروف الجرّ: (من، إلى، عن، على)، وقد قلنا: إنّ آيات القرآن الكريم ليس فيها تكرار وإنّما هي أسرار.

فإذا جاءت (من) في باقي الآيات فلها معنى إضافيّ، وقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾: أي تنبع من تحتها.

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنّة وأنّها مخلوقة، الحديث رقم (٣٠٧٢).

﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: وقد يأتي السّؤال حول ﴿أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾، وكيف نكون في الجنّة مع ذريّتنا وأحفادنا؟

وحين يتحدّث القرآن الكريم عن الحور العين ربّما يسخر بعضهم من غير فهم، والله ﷻ يسخر منهم: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ [هود: من الآية ٣٨ والآية ٣٩].

وحين يتحدّث القرآن عن أزواج مطهّرة، وحور عين.. فهذا ليس له علاقة مع ما يفكّر به الإنسان هنا على الإطلاق؛ لأنّ تركيبة الإنسان عندما يكون في العالم الآخر تختلف عن تركيبته في الحياة الدّنيا؛ كي يستطيع أن يكون من أهل الجنّة، فإذا خطر على باله شيء فإنّه يأتيه مباشرة، لكن استعداده الجسميّ والنّفسيّ يكون مختلفاً، ولا نسأل عن سبب ورودها في القرآن الكريم، فالكلمة في القرآن إن لم نفهم معناها فذلك لا يعني عدم إفادتنا منها، وإنّما نأخذها كما وردت، فمثلاً: قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه]، لا نتوقّف عنده كثيراً، وهو من القضايا الغيبيّة التي نأخذها من غير اجتهاد، كما قال الإمام مالك: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول). أمّا الأزواج فقد جاءت في صيغة الجمع، فالإنسان هناك يرزق بزوجة أخرى، ومن لم يتزوّج يرزق بزوجة، فالجنّة متعدّدة النّعم...

والقرآن الكريم ورسول الله ﷺ يجيبان عن التّساؤلات بحسب ما يُفيد،

فحين سألوا رسول الله ﷺ عن الأهلّة؛ لكي يحرجوه لعدم معرفته بها، إذ لم يكن ﷺ عالِم فيزياء ولا عالِم فضاء، فكانت إجابة القرآن الكريم: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٩]، فهذا ما يفيدهم منها.

(الآية ٢٦) - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

لماذا ضرب الله ﷻ مثل البعوضة، ولم يذكر الفيل وهو أكبر الحيوانات وأعظمها؟! وهم استصغروا البعوضة؛ لأنّ عقلهم البشريّ في ذلك الوقت لم يدرك أهميّة ضرب المثل بها، أمّا الصّحابة فقد كانوا يتلقّون القرآن كما يتلوه عليهم رسول الله ﷺ، ويؤمنون به؛ لأنّه من عند الله ﷻ، أمّا أهل الكفر فقد كانوا يجادلون ويتساءلون عن غير فهم.

وكلّما تقدّم العلم صغرت الأشياء ودقّت المخترعات أكثر، فعندما اختُرعت السّاعة على سبيل المثال كانت ضخمة، وحين تطوّر العلم صغرت وصغرت؛ لأنّهم استطاعوا أن يضعوا أعقد الأجهزة في مساحة صغيرة.

والبعوضة فيها من الأجهزة الدّقيقة ما يعجز عنه أهل الأرض جميعاً من حيث الدّورة الدّمويّة، والإبرة التي تحقن وتجعل الدّم ينزف ثم تقوم بتحليل الدّم، وكيفيّة الجهاز التّناسليّ عندها، وكذلك الجهاز الهضميّ، فهي من أدقّ المخلوقات، ولذلك ضُرب المثل بها.

وإلى الآن يكتشف العلم اكتشافات هامّة تتعلّق بالبعوضة فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ أي ما هو أقلّ وأدقّ منها، وليس أعلى منها.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾؛ لأنّ المؤمن يعرف أنّ الله ﷻ له حكمة في كلّ شيء.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ والفاسق هو الّذي ينفصل عن منهج الله ويتركه، نقول: فسقت الرّطبة، أي الثّمرة حين تنفصل عن قشرتها بسهولة، وكذلك الّذي يترك منهج الله هو فاسق.

(الآية ٢٧) - ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾:

من صفات الفاسق: أنّه ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ومن ينقض عهد الله ينقض عهود البشر ولا يُبالي.

وعهد الله: هو فطرة الإيمان والالتزام بالإسلام، وفطرة الإيمان موجودة في الإنسان منذ العهد الأوّل في عالم الذّرّ، قال ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢]، وهذا العهد أَخْذٌ بالفطرة، وفطرة الإنسان إيمانيّة، ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الرّوم: من الآية ٣٠]، والفاسق ينقض هذا العهد، ويقطع ما أمر

الله به أن يوصل من صلة الرّحم، وهي قضيّة هامّة جدّاً، تتعلّق بالتّكافل الاجتماعيّ وبناء المجتمعات. وكلّ الأوامر والتّكاليف التي وردت في كتاب الله ﷻ هي توجيه من خالق البشر لمصلحة البشر في حياتهم الدّنيا ومعادهم. وأوّل صلة الأرحام هي حسن العلاقة مع الوالدين والبرّ بهما، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: من الآية ٢٣]، فصلة الأرحام تشكّل الحاضن للتّكافل الاجتماعيّ، عندها تكون الأسرة متينة ومتماسكة، وتكون هناك علاقات صلة رحم بين الآباء والأمّهات والأخوة، وتكون الأسرة الواحدة كالجسد الواحد... إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى... وقد أوصى الإسلام بالجار، فقال ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه**»[1]، وقال ﷺ: «**ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به**»[2]. هذه الأسس التي جاء بها الإسلام لبناء المجتمع الّذي يؤدّي إلى التّقدّم والحضارة الإنسانيّة، وهي حضارة القيم البنّاءة التي تعود بالخير على الإنسان، وليست حضارة العلم المدمّر التي نشهدها في الحضارة الأوربيّة والأمريكيّة. ونحن حين نبني مجتمعاتنا ونشيد حضارتنا لا نستثني العلم، ولا نتركه لغيرنا؛ لأنّ ديننا هو دين العلم، لكنّنا لا نَدوس القيم من أجل العلم.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب الوصاءة بالجار، الحديث رقم (٥٦٦٩).

(٢) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب الألف، أنس بن مالك الأنصاريّ، الحديث رقم (٧٥١).

وحين توصل الأرحام تتماسك الأسرة والعائلة، ويتماسك الحيّ، وتتماسك بالتّالي القرية، والمدينة.. ويؤدّي ذلك إلى تماسك المجتمع وتماسك الوطن. والله تبارك وتعالى دعى إلى كلّ ما يصلح الإنسان، ودعى إلى عمل الصّالحات، لكن الفاسق مفسد في الأرض. وقد سخّر الله الأرض وما فيها للإنسان، وجعلها صالحة لحياة الإنسان، وطلب من الإنسان أن يكون صالحاً، فمن يخرج عن منهج الله فهو مفسد في الأرض، لا يضيره عندها أن يكذب وينمّ ويزني ويسرق ويرتشي ويقطع الشّجر ويلوّث البحار، وفي هذا فساد القيم وفساد النّعم، وهؤلاء هم الخاسرون.

(الآية ٢٨) - ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

هذا استفهام استنكاريّ: كيف تكفرون بالله؟! تذكّروا وجود الله.. من خلال إحيائكم وإماتتكم، فهو الّذي خلق الموت والحياة. وقدّم الموت على الحياة؛ لأنّ الموت هو دليل على الحياة. وقضيّة الموت هي السّبيل لمواجهة الإلحاد؛ لأنّ دعوات الإلحاد لا تواجَه إلّا بالعلم وبالدّليل، وقضيّة الموت هي السّبيل لمواجهة الملحدين الّذين يقولون: إنّ العقل يكفي لإدارة الحياة، ويقولون: لا تحدّثونا عن الغيبيّات.. نردّ عليهم: إنّ الّذي تحكّم في الخلق إيجاداً هو الّذي تحكّم فيه موتاً، وقد أرانا الموت بحقيقته، وذكر لنا ما غاب عنّا من خلقنا: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: من الآية ٥١]، فلا أحد شهد خلق نفسه، ولم نحضر آدم عليه السلام عندما

خُلِق، فذكر الله ﷻ لنا ما غاب عنّا في القرآن الكريم، وأرانا الموت بالمشاهدة والحسّ. فنحن بصدد قضيّة عقليّة فكريّة علميّة أمام الملحدين، وعلينا الحديث بشكلٍ علميّ واقعيّ عقليّ يقبله العقل. والخلق بالنّسبة لنا ثبت بالدّليل، أمّا الموت فبالحسّ والمشاهدة.

وعندما نناقش مُلحداً في قضيّة ما، علينا أن نلجأ إلى ما هو مُشاهد ومحسوس وملموس؛ لأنّه لا يقبل إلّا بالتّجربة والبرهان، هو يرفض الأمور الغيبيّة، فإذا أخبرته مثلاً بأنّ الله ﷻ خلق آدم من تراب، فإنّه يأخذ الأمر بالسّخرية والاستهزاء، ويقول لك: أثبت لي ذلك، فالخلق نناقشه بالدّليل، أمّا الموت فهو واقع بالحسّ والمشاهدة. والموت نقيض الحياة، وإذا نظرت إلى الموت رأيت مراحل الخلق، وعندما يموت الإنسان فأوّل شيء يخرج منه روحه التي هي آخر ما دخل في جسده حين خُلق، وبعد دفنه في قبره تبدأ مراحل فنائه، وإذا راقبنا جثّة الميّت ماذا حلّ بها، نجد أنّها تتحوّل إلى حمأ مسنون، وبعد فترة تصبح صلصالاً، ثمّ يتبخّر الماء، وفي آخر مرحلة تصبح تراباً، فهو يعود إلى تدرّج خلقه بشكلٍ عكسيّ.. وهكذا تسلسل مراحل فناء الإنسان، وهي عكس تسلسل مراحل الخلق، قال ﷻ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ [الأعراف: من الآية ٢٩].

(الآية ٢٩) - ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾:

قد ينفي بعض الملاحدة خلق الله لكلّ ما في الأرض ويقول: نحن نخترع الآلات، ونأتي بالبذور لتصبح ثماراً وأشجاراً، ونضع البذور في التّراب، ونستخدم لها السّماد، نحن نزرع، نحن نصنع، نحن نبني، ونحن من اخترع الآلة والكهرباء والسّيارة والطّائرة.. وكيف يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: من الآية ٢٩]، فكيف ذلك؟ لا شكّ أنّ الآية صحيحة، لكنّهم لم يفهموا مرادات القرآن الكريم لقصور عقولهم. والله جلّ وعلا خالق كلّ شيء: قم بإعادة التّسلسل، بدءاً من حبّة القمح، فمن أين أتت الحبّة الأولى؟ خُلِقت كما خُلِق آدم عليه السلام.. وأنت استخدمت الأسباب التي وضعها الله ﷻ، فكلّ الأمور في الحياة من بدايتها تعود لخلق الله لها، ثمّ وضعت الأسباب والعوامل، وحتّى من يريد صناعة طائرة مثلاً لا بدّ له من الأسباب العلميّة والقوانين التي خلقها الله تعالى لوجود الأشياء.. ومثلاً: من اخترع الكهرباء؟ هي موجودة أصلاً، والإنسان اكتشفها لتخرج إلى العيان، فالله ﷻ خلق ما في الأرض جميعاً.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يُقال:

- استوى الإنسان بعد أن كان مائلاً.
- أو استوى الملك على عرشه.

ليس كمثله شيء، تنزّه عن الشّبيه والنّظير، والفعل يُنسب إلى فاعله، فبصرنا ليس كبصر الله، وعلمنا ليس كعلم الله.. واستواء الله ﷻ يليق بجلاله. والآيات التي تتعلّق بصفات الله ﷻ وأفعاله وكلامه، وقد يكون فيها

إشكال على أفهامنا، نحيلها إلى الله ﷻ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشّورى: من الآية ١١].

أمّا السّماء: فهي كلّ ما علاك فأظلّك.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ۚ﴾ وفي وقت التّنزيل كان العقل البشريّ لا يُدرك معنى سبع سماوات.

ونحن الآن عرفنا كرويّة الأرض، وجريان الشّمس، وهناك حكمة في ذكر سبع سماوات، لم نكتشفها بعد، ونتركها للزّمان الّذي قد يكشفها وقد لا يكشفها.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ فردّ الله ﷻ كلّ شيء إلى علمه، والفرق بين علمك وعلمه كالفرق بينك وبينه، وكالفرق بين استوائك واستوائه.

(الآية ٣٠) - ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

هذه أوّل قصّة في القرآن الكريم، وهي قصّة الخلق الأوّل، قصّة خَلْق سيّدنا آدم أبي البشر، والقصص تشكّل ثلاثة أرباع القرآن الكريم.

والقصّة في اللّغة العربيّة تعني: تتبّع الأثر.

فالمقصود من القصّة ليس التّسلية، على عكس القصّة البشريّة التي قد تكون للتّرفيه والتّسلية، أو لنقل معلومة أو ثقافة.

أمّا القصّة القرآنيّة فلا يكون قصدها إلّا تتبّع الأثر؛ لأنّ هناك ارتباط بين مدلولات كلام الله وفقه اللّغة العربيّة.

وهناك ارتباط بين العروبة والإسلام، قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف]. يقول ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾ [آل عمران: من الآية ٦٢]، أي أنّ القصص تنطبق على الحقّ، ولا تأتي إلّا من الحقّ، وكلّ كلمة فيها هي حقّ وتؤدّي إلى حقّ، ورسالتها رسالة حقّ، فلا هي خيال ولا رواية عن حدث، بل هناك قصّة صحيحة مرويّة، وحين يروي البشر الحدث فإنّ كلّ واحد منهم يرويها بطريقته، أمّا ربّ البشر فلا يروي إلّا القصص الحقّ، ويقول ﷻ: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: من الآية ١١١]؛ لأنّ العبرة لأصحاب العقول.

ثمّ إنّ القصّة القرآنيّة كثيراً ما يتكرّر ما يُماثلها في الأيّام.. مثلاً في كلّ زمن يوجد أمثال فرعون، وقارون محتكر المال، وقوم شعيب، وقوم صالح، والّذين يطفّفون الميزان، والفتية الّذين آمنوا وهربوا بإيمانهم إلى الكهف، وذو القرنين، كلّها تتكرّر بأشكال متعدّدة، والمهم هو العبرة منها. إلّا أنّ هناك قصصاً في القرآن الكريم لا تتكرّر.. مثل قصّة السيّدة مريم -عليها السّلام- التي وَلَدت من غير زوجٍ، ومن غير أسباب ومقدّمات الزّواج، فقد أُلغيت الأسباب مع السيّدة مريم، فهي حادثة لا تتكرّر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ﴾ [التّحريم: من الآية ١٢]، فحدّدها بالاسم.

والقصص القرآنيّ جميعه منجّم وموزّع في القرآن الكريم كاملاً، فإذا

أردت قصّة موسى عليه السلام فلن تجدها في سورة واحدة، وهي أكثر القصص ذكراً في القرآن؛ لأنّه بعث إلى أسوأ شعب على الأرض يحمل كلّ آفات الأمم، وهم شعب بني إسرائيل، ونحن نعاني منهم حتّى اليوم، وكلّ ما جرى من فتن وحروب على سورية والمناطق المجاورة هو من صنع الصّهاينة.

وهناك في القرآن الكريم قصّة إبراهيم عليه السلام، وفي القرآن سورة باسمه، لكنّ قصّته وردت في عدد من السّور.

أمّا قصّة يوسف عليه السلام فلم ترد إلّا في سورة (يوسف)، وذُكر اسم يوسف عليه السلام في سورة (غافر) مرّة واحدة فقط.

أمّا قصّة آدم عليه السلام فقد وردت في (البقرة) و(الأعراف) و(الإسراء) و(الكهف) و(طه)؛ لأنّ التّوجيه الّذي يورده الله تعالى في كلّ موضع يخدم سبباً إيمانيّاً، ووظيفة إيمانيّة.

فإذا أردتُ قصّة سيّدنا موسى عليه السلام أتتبّعُ كلّ آيات القرآن الكريم المتعلّقة بموسى عليه السلام، وأجمعها وأرتّبها..

والله عز وجل لم يفعل ذلك لكي لا تكون القصّة بشريّة، والغاية منها كما قال لنبيّه الكريم محمّد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: من الآية ١٢٠]؛ لتكون عبرة، وتؤدّي وظيفة إيمانيّة. والقصّة في القرآن الكريم أحياناً تركّز على الشّخصيّة، وأحياناً على الحدث، وأحياناً على الزّمن، فهي من لدن حكيم حميد. فننسب القصّة لمن يقصّها علينا، والله عز وجل يقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: من الآية ٣].

وفي قصّة آدم عليه السلام نبدأ بإخبار الله عز وجل ملائكته بأنّه جاعلٌ في الأرض خليفة، وقد يتساءل البعض قائلاً: وهل يستأذن الله جل جلاله من الملائكة وفيهم إبليس؟ والجواب أنّ قول الله عز وجل هنا ليس استشارة، بل إعلام؛ لأنّ الملائكة ستتعامل فيما بعد مع البشر، ولا بدّ من إبلاغهم بالأمر كي يمارسوا مهامهم المطلوبة منهم. والأمر محسوم ليس فيه نقاش ولا حوار، بل هو قرار إلهيّ.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾: والملائكة هنا لا تحتجّ، بل تسأل. فما الّذي أدرى الملائكة بأنّ بني آدم سيفسدون في الأرض، ويسفكون الدّماء؟

والبشريّة اليوم تُعاني من هاتين المشكلتين؛ الإفساد في الأرض وسفك الدّماء، فكلّ المشكلات تأتي منهما.

لكن كيف علمت الملائكة ذلك مسبقاً؟ الجواب: هو أنّ الله سبحانه وتعالى أوحى إليهم بأنّ هذا الإنسان ستكون لديه حريّة الاختيار، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب]، فهذه أمانة اختيار. إمّا أن تكون طائعاً أو أن تكون عاصياً، أن تكون مؤمناً أو كافراً.. ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، ولو أراد الله لجعل بني آدم كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ لأنّ المعصية تأتي من حريّة الاختيار، فإمّا أن تختار الإيمان أو الكفر، تختار

الاستقامة أو الاعوجاج... وقد علمت الملائكة أنّ الله ﷻ سيجعل الإنسان خليفة:

المعنى الأوّل لكلمة خليفة: أي خليفة الله على الأرض، خلقه وأعطاه وأمدّه، وهيّأ له أسباب الوجود.

المعنى الثّاني لكلمة خليفة: أي يخلف بعضهم بعضاً، جيلاً بعد جيل، فاسمه خليفة.

وهذا هو التّفسير، وليست هي خلافة التّنظيمات الإرهابيّة التي لا علاقة لها لا بالخلافة ولا بالإسلام. وقد علم الملائكة من كلمة (خليفة) بأنّه ستكون للإنسان حريّة الاختيار، فخافوا من أن يُفسد في الأرض ويسفك الدّماء. أمّا الملائكة فهم طائعون لربّهم يسبّحون بحمده.

والتّسبيح لا يكون إلّا لله ﷻ، وقد ورد في القرآن الكريم في صيغ متنوّعة، وفيها إعجاز:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: من الآية ٣٦].
- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الرّوم].
- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: من الآية ١].

فكلمة (سبحان) عندما ترد في القرآن الكريم يأتي بعدها أمرٌ معجز لا يستطيع أن يقوم به بشر، وكلمة (سبحان) فيها تنزيه لله ﷻ، فليس كمثله شيء. ورسالة الملائكة أن تعيش بين الحمد والتّسبيح والتّنزيه، الحمد على النّعم، وتنزيه الله عن صفات المخلوقات، وقد قال رسول الله ﷺ:

«... وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السّماوات والأرض..»[1].

وعلينا أن نفهم الأفكار، فالملائكة قالت: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: والتّقديس هو التّطهير، جاءت من كلمة (القدس)، وهو الكوب الّذي يطهّرون به. وقد أجاب الله ﷻ ملائكته بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فاحتجّ على الملائكة بالعلم، ولم يقل لهم: (أنا القويّ، القادر، أنا الرّبّ الخالق، يفسدون.. يسفكون.. ليس هذا من عملكم)، بل قال ﷻ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أراد أن يُثبت للملائكة سبب جعل هذا الكائن (خليفة)، وأراد أن يبرهن للملائكة بأنّه يعلم ما لا يعلمون.

(الآية ٣١) - ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾:

علّم آدم المسمّيات وأسماءها، علّمه مفاتيح الأسباب.. واللّغة تأتي بالسّماع، وقد سمع آدم عليه السلام عن الله ﷻ مباشرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة].

وأعطاه ربّه مفاتيح الأسباب، وعلّمه الأسماء كلّها.. أي منحه العلم، وهو أعظم منحةٍ إلهيّة أدّت إلى الأمر الإلهيّ بأن تسجد الملائكة لأمر الله،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الطّهارة، باب فضل الوضوء، الحديث رقم (٢٢٣).

فإذا كان آدم لم يستطع الطّيران، فقد حاول أبناؤه من بعده الطّيران.

وأعطاه ربّه العقل الّذي يصنع به الطّائرة، والدّبابة، وغير ذلك مما طوّع له صنعه، فأدّى هذا إلى الأمر الإلهيّ بتكريم آدم وبنيه الّذي ارتفع بالعقل والعلم.

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

(الآية ٣٢) - ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾:

أوّل كلمة قالتها الملائكة: سبحانك، ثمّ قالوا: لا علم لنا، فكلّ شيء ذكروه له متعلّق بالعلم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾.

(الآية ٣٣) - ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾:

أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبيّن للملائكة لِمَ جعل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليفة، وأن يبيّن لهم مزايا العقل الّذي شرّفه الله به، فقال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾، أي بأسماء الأشياء ومسمّياتها.. وإن قال قائل: لم تكن هذه الأشياء مخلوقة أو موجودة، نقول له: إنّ أصل الأشياء كان موجوداً.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ قال بعض المفسّرين: إنّ

الملائكة لم تقل، بل دار في خَلَدِهَا، أي هو حوار ضمنيّ، والله ﷻ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر]، ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: من الآية ٧]، والملائكة خطر لها هذا الخاطر فأبرزه الله تعالى وأجاب عليه، وخاطبهم من خلاله.

ونحن لا نجزم بهذا التّفسير أو ذاك.. ولكن المهمّ الغاية والفكرة.

(الآية ٣٤) - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

هناك آية أخرى تتعلّق بالسّجود، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف].

وقد يتساءل العقل البشريّ: هل خُلقنا مع آدم؟ والجواب: نعم، الخطاب لكلّ بني آدم، من آدم عليه السلام إلى أن تقوم السّاعة على من بقي من ذريّته؛ لأنّنا معاشر بني آدم نحمل أجزاء من جزئيّات آدم عليه السلام بالوراثة.. والله تبارك وتعالى خاطب الجزئيّات؛ لأنّه هو الله ﷻ، وحين أخذ تبارك وتعالى العهد على آدم.. كانت الشّهادة من ذريّته مكنونة فيه، وكلّ تناسل بين البشر يأتي بجزئيّات من آدم عليه السلام.. فعندما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقناكم من صلب آدم عليه السلام، ونُشير هنا إلى D.N.A والمورّثات.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: كيف يسجدون لآدم، والسّجود

لا يكون إلّا لله ﷻ؟ نقول: مَن الآمر بهذا؟ فالسّجود لأمرٍ هو سجود للآمر، والسّجود هنا هو سجود تحيّة وتعظيم، وقد لا يكون بالشّكل الّذي نعرفه نحن عن السّجود.

قال: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، ولم يقل: (سجدوا له)، فهم سجدوا لأمر الآمر وهو الله ﷻ، ولم يسجدوا لآدم. وهذا مثل أمر الله ﷻ لنا بالصّلاة تجاه الكعبة، فنحن لا نصلّي للكعبة ولا نسجد ولا نركع لها، وإنّما نسجد لله تعالى، وما قيمة الكعبة لولا أنّ الله ﷻ هو الّذي أمرنا بأن نولّي وجوهنا شطرها حين نصلّي؟ والسّجود معناه الخضوع لأمر الآمر، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ﴾، فهل عُمّم الأمر الإلهيّ على الملائكة جميعاً بالسّجود لآدم، أم هي مجموعة من الملائكة؟ الأمر كان لمجموعة من الملائكة، وهذه الملائكة لها علاقة بالعمل مع آدم عليه السلام، ونستنتج ذلك من خلال آيات أخرى، مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار]، وقوله جلّ وعلا: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ [النّازعات]، فهناك ملائكة لها مهمّات مع بني آدم على الأرض.

وهنا في هذه الآية جمع من الملائكة من له صلة بابن آدم وذريّته فيما بعد في ساحة الملأ الأعلى. وهناك ملائكة تختلف مهمّاتهم، مثل: حملة العرش، فلا علاقة لهم بهذا الأمر، وهم (العالون)، والله ﷻ يقول: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥﴾ [ص]. وقد سجد الملائكة الّذين أمروا بالسّجود طاعةً لله تعالى،

وقد كرّم الله آدمَ بالعلم، وجعل رسالة الإسلام هي رسالة العلم والإيمان، فقال ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: من الآية ١١]، فالجاهل بالعلم الدّينيّ والعلم الدّنيويّ لا يحقّ له أن يتصدّى لتفسير وشرح القرآن الكريم.

وقد أمر الله ﷻ الملائكة بالسّجود لآدم تكريماً للعلم الّذي أعطاه إيّاه، ولحريّة الاختيار التي خصّه بها. أمّا الملائكة فهي مخلوقات نورانيّة لا تعصي الله فيما أمرها، وتفعل ما تؤمر، وليس لها اختيار. أمّا الإنس والجنّ فهم مختارون بين أن يكونوا طائعين أو عصاة، أو كافرين، قال ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، فكلّ دعوة للإسلام بالإجبار والإكراه هي دعوة باطلة، وكلّ الحركات الإرهابيّة والتّكفيريّة التي تزعم بأنّها تنتسب للإسلام لا علاقة لها بالنّص القرآنيّ، ولا بالفقه الإسلاميّ، ولا بما جاء به نبيّ الإسلام ﷺ.

فالله ﷻ ترك للإنسان حريّة الاختيار حين قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: من الآية ٧٢]، وهذه الأمانة هي أمانة الاختيار بين الكفر والإيمان، والطّاعة والمعصية. وعندما صدر الأمر الإلهيّ بأمر الملائكة بالسّجود.. يظهر لنا وجود إبليس مع الملائكة، فالملائكة لا يعصون ربّهم فيما أمرهم، واستثناء إبليس من جنس الملائكة استثناء منقطع؛ لأنّ إبليس ليس من جنسهم، هكذا أورد الله ﷻ الخبر، وكلام الله هو كلام الخالق العالم

من الأزل، الكاشف للأحداث، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشّورى: من الآية ٤٢]، ومجال عقلنا لا يحيط بكمالات جلال الله وصفاته.

وإذا كان إبليس موجوداً مع الملائكة التي ستتولّى شؤون الخلق على الأرض من حفظة وكتبة وغيرهم، فإنّ إبليس أيضاً ستكون له مهمّة، وهو اختار هذا الدّور باختياره، وعِلمُ الله تعالى أزليّ قديم، كاشف وليس مانعاً للاختيار. وكان إبليس موجوداً مع فريق الملائكة التي ستباشر عملها مع الإنسان. والسّؤال لماذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وإبليس معهم، وهو أدنى مرتبة منهم؟ الجواب: أنّ خطاب المجموعة يكون باسم أصحاب المرتبة الأعلى، فلو أردنا مثلاً التّحدّث إلى مجموعةٍ من الوزراء وكان معهم معاونوهم، فالأمر الطّبيعيّ أن نقول: أيّها الوزراء، وحين يصدر الأمر للأعلى فإنّ الأدنى يُنفّذ معهم؛ لأنّ الأمر شمل الجميع. فالملائكة أعلى مقاماً من إبليس، إبليس من الجنّ، وكان طائعاً في ذلك الوقت، ولم يكن عاصياً، ولكنّه ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ حين أُمر بالسّجود؛ لأنّ له حريّة الاختيار. ولقد علمنا أنّه كان من الجنّ من الآية التي في سورة (الكهف): ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: من الآية ٥٠]، ومع وجود هذا النصّ لا مجال للاجتهاد.

عصى إبليس -لعنه الله-، وعصى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: من الآية ١٢١]، ثمّ تاب عليه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[طه]،أمّا إبليس فقال الله عَزَّ وَجَلَّ عنه إنّه رجيم: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾ [الحجر]، فبماذا اختلفت معصية إبليس -لعنه الله- عن معصية سيّدنا آدم عليه السلام؟ الجواب: أنّ معصية إبليس كانت استكباراً، أمّا معصية آدم عليه السلام فكانت ضعفاً، فقد ردّ إبليس الأمر على الآمر، وهو الله سبحانه وتعالى، وكان سبب معصيته هو الكِبر، والاستكبار مفتاح الكفر، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠﴾ [الأعراف]، بينما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النّساء: من الآية ٢٨]، فالله عز وجل يتسامح مع من أذنبَ بسبب ضعفه، مثال: إن قلتُ لك: صلّ، فأجبتَ: أتمنى ذلك، لكنّ وقتي ودوامي وظروفي لا تسمح...، فهذا اسمه ضعف، أمّا لو قلتَ: لا يوجد شيء اسمه صلاة، فهذا ردّ الأمر على الآمر، وهو استكبار على الله عز وجل. وهذا هو الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم، فإبليس قد ردّ الأمر على الله، كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف: من الآية ١٢]، لذلك: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾.

فإذاً هناك فرقٌ كبير، يقول الإمام الغزاليّ رحمه الله: (فرقٌ كبير بين من ضعفت إرادته في الحقّ، وبين مَن قويت إرادته في الباطل)، فمن ضعفت إرادته في الحقّ وارتكب ذنباً يمكن التّسامح معه، أمّا من أصرّ واستكبر فلا تسامح معه.. ومن هنا صار الاشتقاق من إبليس: أبلس: أي يئس من رحمة الله سبحانه وتعالى.

(الآية ٣٥) - ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾:

هذه الجنّة ليست جنّة الخلد؛ لأنّ جنّة الخلد لا يُغادرها من دخلها، ولا تُرتَكب فيها المعاصي. وقد أسكن الله ﷻ آدمَ وزوجه حوّاء في جنّة التّجربة، تجربة المنهج، وذكرت الآية بلفظ: ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾، ولم يقل: إنّها (جنّة عدن)، و(جنّة الخلد)، ولا (جنّة الفردوس).

وكلمة (جنّ): تعني السّتر والخفاء، فالجنّة في اللّغة العربيّة هي حديقة، أو غابة محاطة بالأشجار الكثيفة التي تستر ما بداخلها.

يقول ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: من الآية ١٥]، ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ١٧﴾ [القلم]، وفي سورة (الكهف): ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ٣٢﴾[الكهف]، ولم تشر الآيات في القرآن على أنّ الجنّة التي سكنها آدم هي جنّة الخلد، بل هي جنّة من الجنان، حتّى يزوّد الله ﷻ آدم وحوّاء ويدرّبهما على المنهج، وعلى الحياة في الأرض. وقد خلقهما أصلاً لسكنى الأرض فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: من الآية ٣٠]، أمّا جنّة التّجربة فهي تدريب على الحياة في الأرض، وقد جعل فيها الحلال والحرام، والأمر والنّهي، فقال ﷻ لهما: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾: (اسكن: أمر)، (كُلا: حلال)،

(ولا تقربا: نهي وحرام)، إذن هذا المنهج الّذي سينزل به إلى الأرض، هو المنهج الإلهيّ، وفيه: افعل ولا تفعل، حلال وحرام..

لماذا قال ﷻ: ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ ولم يقل: زوجتك؟ ولماذا لم يُدخل على الكلمة تاء التّأنيث؟ الجواب: أنّ الإسلام سوّى بين الزّوجين، فهي زوجُه، وهو زوجها، وليعلم كلّ من يدّعي أنّ الإسلام ظلم المرأة ولم يعطها حقوقها أنّ كلّ شرائع السّماء التي كان آخرها الإسلام ساوت بين الرّجل والمرأة، فهما متساويان في التّكليف والمسؤوليّة، وقد قال ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النّحل: من الآية ٩٧].

وفي اللّغة العربيّة: زوجك تعني مثيلك، ومنه قوله ﷻ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠﴾ [الزّخرف]، وهذه هي المساواة، وهذه هي حقوق المرأة في الإسلام. أمّا الّذين ينادون بجهاد النّكاح وغيره من المصطلحات التي لا علاقة لها بدين ولا خلق ولا شريعة، فنحتكم وإيّاهم إلى القرآن الكريم، فنحن لا نلتزم إلّا بالقرآن، ولا نسير إلّا وراء القرآن.

وفي جنّة التّجربة جعل الله ﷻ الحلال واسعاً جدّاً: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، وجعل الحرام محدوداً: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وهذا ردٌّ على من يقول: (إنّكم أيّها المسلمون تحرّمون على أنفسكم متع الحياة ومباهجها)، فنقول لهم: الحلال في شرعنا واسع جدّاً، فلقد أباح لنا المشروبات كلّها: الماء، واللّبن، والعصائر، وغير ذلك كثير، وحرّم علينا شيئاً واحداً فقط وهو الخمر (وهو ما تغيّر من العصائر)، وأباح لنا كلّ الأطعمة:

من لحوم الأنعام والدّجاج والسّمك والنّبات وغير ذلك، وحرّم علينا الميتة ولحم الخنزير. فالحلال كلّ شيء، والحرام مخصوص بشيء واحد، أو شيء صغير. وقد كان النّهي في جنّة التّجربة عن شيء واحد فقط: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فنهاهما عن شجرة واحدة فقط.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾: الظّلم عادةً يقع من الإنسان لغيره، إلّا إذا قدّم لنفسه شهوة عاجلة، وحرمها من نعيمٍ آجل ودائم ومُقيم، فإنّه عند ذلك يكون ظالماً لنفسه. فالّذي يقدّم لنفسه شهوة عاجلة، كأن يشرب الخمر أو يزني أو يسرق أو يقامر أو يغتاب أو يكذب، فإنّه حقّق شيئاً من المتعة المؤقّتة، لكنّه في الحقيقة ظلم نفسه لأنّه حرمها النّعيم السّرمديّ الأبديّ الدّائم في الجنّة، وسيكون ذلك وبالاً عليه وعلى ذريّته وأهله ووطنه ومجتمعه، فهذا هو الظّالم لنفسه ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فمن يخالف أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقد ظلم نفسه؛ لأنّ الله جَلَّ جَلَالُهُ هو خالق الإنسان ويعرف ما يصلح له، وكما أنّ الصّانع يجعل مع المنتَج كتيّباً يبيّن فيه طريقة الاستخدام الصّحيح لمنتجه، فإنّ الله تعالى وضع للإنسان المنهج الّذي يصلحه ويسعده.

(الآية ٣٦) - ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦﴾:

أتاح الله تبارك وتعالى لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه فترة تجربة في جنّة التّجربة، وقد ضعف آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وضعفت زوجه فأكلا من الشّجرة المحرّمة، فكانت

نتيجة المعصية أن قال لهما الله ﷻ: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾. وهذا هو سبب الهبوط المباشر، وهو المعصية، وفي جنّة التّجربة يربط الأمور بأسبابها المرئيّة للنّاس، أمّا علم الله ﷻ فهو قديم كاشف، وكان يعلم أنّ الشّيطان سيفعل كذا وكذا، وأنّ آدم عليه السلام سيعصي بضعفه. فهل عصى آدم ربّه بإرادة الله، أم خارجاً عن إرادة الله؟ والجواب: عصى بإرادة الله؛ لأنّ الله ﷻ أراد أن يجعله مختاراً، ويحاسبه على اختياره، ولا يحاسبه على إرادة الله، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد]، وقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾[الإنسان].

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: الزلّة: تعني العثرة والكبوة، فقال لهما فيما يرويه تبارك وتعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾[الأعراف: من الآية ٢٠]، قال لهما إبليس: إذا أكلتم من هذه الشّجرة فستصلون إلى ملك لا يبلى، وإلى الخلود.

وهذه هي أمنية الإنسان في الحياة دائماً أن يخلد فيها ولا يتحوّل عنها، فهو يريد ملكاً لا يفنى من المال وغيره، ويريد الخلود.

ولو بحثتم في كلّ أهل الأرض فستجدونهم يريدون الملك والخلود في هذه الحياة. وكلّ إنسان يعمل وكأنّه سيخلد في الدّنيا، ويعمل للخلود، وهذه هي النّقطة التي دخل منها إبليس على آدم، فدخل عليه من قوانين: ملكٍ لا يبلى، وخلودٍ لا يفنى.. وعلى هذا فُطر ابن آدم، قال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢١﴾[القيامة].

هكذا أزلّ إبليسُ آدمَ وزوجه، فأخرجهما ممّا كانا فيه، وفي سورة (طه) يقول ﷻ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾[طه]، فدلّه على الشّجرة المحرّمة، وقال له: يا آدم؛ كُل من هذه الشّجرة تبقَ خالداً فلا تموت، ويصبح لديك ملكٌ لا يبلى، وهذه هي رغبة الإنسان الشّديدة في الحياة.

وقد ضعف آدم عليه السلام أمام هذا الإغراء بالخلود في جنّته فعصى ربّه، وهذا ضعف في الإرادة، وضعف في الذّاكرة، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه]، فنسي، وكان الله ﷻ قد قال له: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[البقرة: من الآية ٣٥].

وقد جعل الله ﷻ علاجاً للمعصية وهو التّوبة، أمّا المعصية التي كان سببها الاستكبار فهي كفر بالله جلّ وعلا. وهذا هو الفارق بين معصية آدم ومعصية إبليس الّذي: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[البقرة: من الآية ٣٤].

وحين لعنه الله وطرده من رحمته أراد أن يغوي آدم عليه السلام وزوجه، ويخرجهما من طاعة الله ﷻ بتزيين المعصية لهما عن طريق الوسوسة.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: أخرجهما من الهناء ورغد العيش والسّكن؛ لأنّ الله ﷻ قال لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾[البقرة: من الآية ٣٥]، والسّكن هو الهدوء والاطمئنان والرّاحة، وفي سورة أخرى يقول ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الرّوم]، وهكذا يتحدّث

القرآن الكريم عن الزّواج في أرقى صورة، ويرفع قيمة المرأة على وجه الأرض، ويقدّس الحياة الزّوجيّة. وكلّ هذا كان موجوداً في جنّة التّجربة، فلمّا كان الإغواء والمعصية، أُخرجا ممّا كانا فيه.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: صدر الأمر الإلهيّ بالهبوط، والأمر موجّه إلى (آدم وزوجه وإبليس)، فكان الهبوط (جميعاً)؛ لأنّ كلّ بني آدم يحملون جزئيّات آدم، وكلّ ذريّته كامنة وموجودة فيه، فآدم يتزوّج من حوّاء وينجب الأولاد، والأولاد يتزوّجون وينجبون.. وهكذا نجد أنّ كلّ ذريّة آدم كانت موجودة فيه واشتركت في الهبوط. ولم يكن العلم في زمن التّنزيل قد اكتشف قضيّة المورّثات، والأجنّة، ومراحل تطوّر الجنين.. وباكتشاف هذه القضايا تتّضح لنا آية عهد الفطرة التي يولد عليها الإنسان؛ لأنّ آدم عليه السلام كان مؤمناً إيمان مشاهدة، وكان في جنّة التّجربة، وتلقّى الأوامر من الله سبحانه وتعالى مباشرة قبل أن يكون نبيّاً.

وقولنا الكفر ستر للإيمان يعني أنّ الإيمان موجود قبل الكفر.

وفي سورة (طه) يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: من الآية ١٢٣]، فصيغة المثنى هنا تعني فريقين:

الفريق الأوّل: آدم وحوّاء.

والفريق الثّاني: إبليس.

فهبطوا جميعاً.

والجنّ مرتبطون بإبليس، والإنس مرتبطون بآدم.

(الآية ٣٧) - ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾:

فتح الله ﷻ لآدم أبواب التّوبة، وشرع له ولبنيه في المنهج التّوبة بعد الذّنب، وهو تشريع إصلاح. فما دام الإنسان مختاراً ولديه شهوات، فسيخطئ ويتّبع شهواته، سيكذب أو يغتاب أو يسرق أو يأخذ الرّشوة أو يأكل الميراث أو ربّما يقتل، وما لم يفتح الله تعالى لعباده باب التّوبة، فإنّهم سيشقون ويشقى المجتمع، ويشقى المؤمن بمعصية الكافر والفاسق، وبمعصية من خرج عن المنهج.

والمطلوب من المؤمن أن يعيش في بحبوحة الحلال، وأن تكون فيه نفحة من جمال وإشراق روح تشعّ في الكون؛ لأنّه صدق وإيمان وأخلاق، فلا يغتاب، ولا يسرق... وهذا هو المؤمن الحقيقيّ والمسلم الحقيقيّ، قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمُهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[1]، وفي رواية: «**المسلم من سلم النّاس من لسانه ويده، والمؤمن من أمِنه النّاس على دمائهم وأموالهم**»[2].

فالمؤمن يجب أن يكون نفحة جمال تشعّ في الكون، مُنشرح الصّدر، مطمئن القلب، يرضى بقضاء الله، وينسجم مع الكون بالتّسبيح، ومع نفسه

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، الحديث رقم (١٠).

(٢) سنن النّسائيّ الصّغرى: كتاب الإيمان وشرائعه، صفة المؤمن، الحديث رقم (٤٩٩٥).

بالسّلام مع ربّه، والسّلام مع النّاس. والمؤمن الحقيقيّ ليس قاتلاً ولا مجرماً، ولا يكفّر النّاس، ولا يحقد عليهم، ليس طائفيّاً، ولا مُبغضاً، ولا حاقداً، ولا حسوداً.

وقد شرع الله ﷻ باب التّوبة للكفّ عن الخطأ والعودة إلى الرّشد والصّواب، وليست هناك دعوة إصلاح كتشريع التّوبة، ولذلك قال ﷻ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾. والكلمات التي تلقّاها هي: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: من الآية ٢٣]، فعلّمه تعالى تشريع التّوبة والاعتراف بالذّنب، وأنزله إلى الأرض ومعه المنهج الّذي يُبيّن الحلال والحرام، ومعه تشريع التّوبة لمن يُخطئ، فالتّوبة دعوة للكفّ عن الخطأ، ولهذا قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والتّوّاب: صيغة مبالغة، فالله ﷻ يتوب عن كثير من الذّنوب، ويقبل التّوبة من عدد كبير من النّاس، بل يقبل توبتهم كلّهم، ويقبل التّوبة المتكرّرة من العبد الواحد مع تكرار الخطأ. وممّا روته السيّدة عائشة رضي الله عنها قالت: جاء حبيب بن الحارث إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّي رجل مِقرافٌ، قال: «**فتُب إلى الله يا حبيب**»، قال: يا رسول الله، إنّي أتوب ثمّ أعود، قال: «**فكلّما أذنبت فتب**»، قال: يا رسول الله، إذنْ تكثرْ ذنوبي، قال: «**عفو الله أكبر من ذنوبك يا حبيب بن الحارث**»(١)، فلا أحد يضع نفسه جلّاداً أو

---

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: ج ١٠، الحديث رقم (١٧٥٣١)، ومِقراف: صيغة مبالغة من قارف: يُقال: قارف الخطيئة: أي خالطها.

قاضياً على النّاس ويكفّرهم، فرحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسعت كلّ شيء، روى عبد الله ابن عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وحشيّ قاتل حمزة (عمّ النّبيّ) يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: يا محمّد، كيف تدعوني إلى دينك، وأنت تزعم أنّ من قتل أو أشرك أو زنى يلقى أثاماً، يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً، وأنا قد صنعت ذلك، فهل تجد لي من رخصة؟ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾ [الفرقان]، فقال وحشيّ: يا محمّد، هذا شرط شديد: إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً، فلعلّي لا أقدر على هذا، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: من الآية ٤٨]، فقال وحشيّ: يا محمّد، أرى بعد مشيئةٍ، فلا أدري يُغفر لي أم لا، فهل غير هذا؟ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾، قال وحشيّ: هذا، فجاء فأسلم، فقال النّاس: يا رسول الله! إذا أصبنا ما أصاب وحشيّ؟ قال: «**هي للمسلمين عامّة**»[1]. فالإسلام دين التّوبة، دين الرّحمة والمغفرة. وقد علّم الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ تشريع التّوبة حتّى يكفّ الإنسان عن تكرار الخطأ. وعلى المرء العاقل أن ينتبه لموضوع التّوبة، فعليه أن يعقد العزم على أن لا يعود إلى مقارفة الإثم، وإذا كان الذّنب الّذي أذنبه يتعلّق بحقوق النّاس فلا بدّ من

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب العين، أحاديث عبد الله بن العبّاس، الحديث رقم (١١٤٨٠).

إعادة الحقوق إلى أصحابها قبل التّوبة، أي أنّ السّارق لا تكفي توبته دون أن يردّ المسروقات التي في حوزته إلى أصحابها، والله ﷻ لا يُخدَع.

إذاً لا بدّ من إعادة الحقوق، مع الاستغفار والتّوبة، وعقد العزم على عدم العودة إلى الإثم، وعندها تكون التّوبة نصوحاً. ويقول ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[الشّورى: من الآية ٢٥]، ولم يقل: (يقبل التّوبة من عباده)، فالله يقبل التّوبة عن عباده الّذين لم يأتوا ليتوبوا، وكأنّه يدعوهم للكفّ عن الخطأ، ويشجّعهم على التّوبة وعدم العودة إلى ذنوبهم، فهو تعالى يقبل التّوبة منك وعنك، ومن لم يتب فإنّه يدعوه إلى التّوبة، كما جاء في الحديث عن النّعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ، وبينهما مُشبَّهاتٌ لا يعلمها كثيرٌ من النّاس، فمن اتّقى المشبَّهات استبرأ لدينه وعِرضه، ومن وقع في الشُّبُهات: كراعٍ يرعى حول الحِمى، أوشك أن يُواقِعَه، ألا وإنّ لكلّ مَلِكٍ حِمىً، ألا إنّ حِمى الله في أرضه محارِمُه..**»[1]، فعندما يقول الله ﷻ: لا تقربوا هذه الشّجرة، لا تقربوا الزّنا.. الخمر.. فهو يمنعك من الاقتراب حتّى لا يكون هذا الشّيء قريباً منك، وتقع في الحِمى.. وقد قال ﷻ في تحريم الخمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾[المائدة]، فهو لم يحرّمه فقط، بل حرّم الاقتراب منه، وحرّم الجلوس في مكان تُدار فيه الخمر، وهذا أشدّ تحريماً.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، الحديث رقم (٥٢).

وكذلك حين يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء]، أي لا تقتربوا من مقدّمات الزّنى حتّى لا تقعوا فيه، فحرّم كلّ ما يدعو إلى الاقتراب منه، كالنّظر.. وغيره. وكذلك قال لآدم وحوّاء في جنّة التّجربة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٩]، أي لا تنظرا إليها، ولا تقتربا منها، ولا تجلسا تحتها، ولا تنظرا إلى ثمرها.

فالتّوبة تشريع للكفّ عن الخطأ، وهي دعوة إصلاح؛ لأنّنا حين نكرّس التّوبة في مجتمعنا أو نتحدّث عن التّوبة، نفتح باب الأمل للشّارد المجرم كي لا يُمعن في الخطأ، فبقاؤه واستمراره في الإجرام خطر على المجتمع، والتّوبة صلاح للمجتمع كلّه.

(الآية ٣٨) - ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

وعدهم الله ﷻ بالهدى، وهو الدّلالة على الطّريق السّويّ، والهداية إلى طريق الأنبياء والمرسلين. فحين قال لهم: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ طمأنهم بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي أنّ هبوطكم إلى الأرض ليس نهاية أمركم، بل من تبع هدى الله وهو في الأرض فلا خوف عليه ولا حزن. والفرق بين الخوف والحزن: هو أنّ الخوف يكون ممّا سيقع، والحزن على ما وقع فعلاً.

(الآية ٣٩) - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

وسيكون هناك فريقان في الآخرة: فريقٌ في الجنّة: وهم المهتدون الّذين يتّبعون هدي الأنبياء والمرسلين، وما يأتون به من كتب سماويّة. وفريقٌ في النّار: وهم الّذين كفروا وكذّبوا بآيات الله ﷻ. فهناك ثواب وعقاب بناءً على ما جاء من أوامرَ ونواهٍ.

وفي قانون البشر لا بدّ من رادع من العقوبات، كي يمنع النّاس من ارتكاب المحظورات، فالمختلس يُسجن، والمتأخّر عن دوامه يُقتطع جزء من راتبه، والمتغيّب يُفصَل... وهكذا.

كذلك الله ﷻ قد وضع العقوبات على المخالفات، وما دامت هناك عقوبة، فهناك: (افعل ولا تفعل)، فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾. الآية هي المعجزة، وكلّ آية من آيات القرآن معجزة. وهناك آيات علميّة، وآيات تدلّ على الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران]، فالآية تُطلق على الأمر العجيب، كما أخبر الله تبارك وتعالى عمّا جرى بين موسى عليه السلام وفرعون: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ [الأعراف]. وتُطلق على آيات القرآن الكريم.

وقد أنذر الله ﷻ من يكذّب بآياته، ولا يسير على منهجه، بأنّهم أصحاب النّار هم فيها خالدون.

(الآية ٤٠) - ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾:

أخبرنا الله ﷻ أنّه أنزل آدم وحوّاء إلى الأرض بعد هبوطهما من جنّة التّجربة، وزوّدهما بالتّجربة العمليّة من خلال الشّجرة التي نهاهما عنها، وأزلّهما الشّيطان فأخرجهما ممّا كانا فيه، وبيّن الله ﷻ لهما أنّ إبليس عدوّ لهما ولأولادهما، وطمأنهما بأنّه ﷻ سيرسل لهم الرّسالات هدايةً ودلالة على الطّريق المستقيم المؤدّي إلى الجنّة التي يخلدون فيها. فمن تبع طريق الهدى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وفجأة وبعد هذه المشاهد (مشاهد آدم وزوجه وهبوطهما إلى الأرض) انتقلت الآيات مباشرة إلى خطاب شعب بني إسرائيل متجاوزة جميع الأنبياء والأمم التي سبقت بني إسرائيل. وهذا من إعجاز القرآن وعظمته، فقد أراد الله ﷻ من موكب الرّسالات أن يعطي أمّة محمّد ﷺ أبلغ درس، بالإضافة إلى العداوة التي سيجدونها من بني إسرائيل مثل عداوة إبليس لبني آدم.

وبنو بني إسرائيل تتوزّع قصصهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم لما فيها من العبر البليغة، وسنجد في قصصهم البغي، والفساد، وسفك الدّماء، وحبّ المال، وأكل الرّبا، والحسد، وتحريف الكلم عن مواضعه، والأمراض المختلفة، والجحود.. فأراد الله ﷻ أن يعطي الدّروس والعبر لأمّة محمّد عليه الصّلاة والسّلام من خلال مثال هذا الشّعب. ومن هذه الأمّة، أمّة بني إسرائيل ستكون العداوة والفساد، وقد بنوا دولتهم العنصريّة متستّرين باسم

نبيّ الله (يعقوب) عليه السلام، فسمّوها: (إسرائيل)، وهو منهم بريء، هذه الدّولة الظّالمة التي تبثّ أحقادها وسمومها على الأمّة الإسلاميّة، وتستولي على المسجد الأقصى، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشّريفين.

وفي تاريخنا الإسلاميّ، ومنذ خيبر وحتّى يومنا هذا نرى أصابعهم خلف كلّ بلاء يُصيب أمّتنا، ونرى أيديهم في كلّ الأحداث التي نواجهها، فهم الدّاء على وجه هذه الأرض.

ولذلك حين أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطينا مثالاً عن موضوع الرّسالات، ضرب المثل ببني إسرائيل، فمن هو إسرائيل؟ ولماذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؟ إسرائيل: هو يعقوب عليه السلام، ومعنى اسمه في العبريّة عبد الله المصطفى، (إسرا): تعني العبد المصطفى، و(ئيل): تعني الرّبّ والإله.

ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

وقد رُزق إبراهيم عليه السلام بولدين:

- إسماعيل عليه السلام: وكان من نسله نبيّ العرب محمّد صلى الله عليه وسلم.

- وإسحاق عليه السلام: وابنه يعقوب عليه السلام، ومن نسله يوسف والأسباط، ومن نسلهم موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى وزكريّا ويحيى عليهم السلام.

فلماذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؟ فحين يُخاطب الله النّاس جميعاً يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وحين يفرض تكليفاً على المؤمنين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟ وحين يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، يذكّرنا بتوبة سيّدنا آدم عليه السلام، وبنعمة الله عليه في التّوبة، وجعل باب التّوبة مفتوحاً لنا،

كي تستقرّ المجتمعات وتصلح الحياة، فالمجرم إذا أغلقت أمامه أبواب التّوبة فإنّه يمعن في إجرامه، ويزداد إجراماً، فشرع الله التّوبة لتعود العباد إلى جادّة الحقّ والصّلاح. وحين يقول: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، يذكّر بني إسرائيل بوصيّة أبيهم يعقوب عليه السلام الّذي فارق الدّنيا وهو يوصي أبناءه بلزوم الدّين القويم: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة]، وأصدق ما يكون الإنسان في وصيّته حين يكون قريباً من نهاية حياته على فراش الموت، فهو يقدّم خلاصة تجاربه، ويكون صادقاً مخلصاً؛ لأنّه مقبلٌ على ربّه وعلى الدّار الآخرة، فلا يتلفّظ إلّا بأصدق وأبلغ وأدقّ العبارات.

وكانت وصيّة يعقوب لأبنائه هي التّمسّك بالإسلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: من الآية ١٣٢].

فإذاً يريد الله سبحانه وتعالى في خطابه لبني إسرائيل أن يذكّرهم بهذا النّبيّ الجليل الّذي هو والد يوسف عليه السلام، وقد اتّخذوه شعاراً لدولتهم العنصريّة الإرهابيّة المجرمة، وستاراً لإجرامهم وفسادهم كما يفعل الإرهابيّون الّذين يتّخذون الإسلام شعاراً لهم، والإسلام بريء منهم، وهؤلاء لا إسلاميّون؛ لأنّ الإسلام دين الاعتدال والوسطيّة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾[البقرة: من الآية ١٤٣]، والمتطرّفون أعداء الإسلام، كما أنّ اليهود اليوم بتطرّفهم وعنصريّتهم وعدوانيّتهم أعداء يعقوب عليه السلام.

ويُخاطب الله ﷻ بني إسرائيل فيذكّرهم بأبيهم يعقوب، كما يذكّرهم بنعم الله ﷻ عليهم. وتأتي المخاطبات الإلهيّة لهذا الشّعب بما يهوى ويحبّ، فبنو إسرائيل شعب مادّيّ، يحبّ النّعم، فيذكّرهم الله تبارك وتعالى بالنّعم قبل المنعم، فيقول لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أمّا حين يخاطبنا نحن فإنّه يذكّرنا بالمنعم قبل النّعم، فيقول لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب]. وهناك فارق كبير بين أن تذكر النّعمة لأنّك متعلّق بها، وبين أن تذكر المنعم لأنّك متعلّق به، وذكر الله دواء، وذكر غيره داء، وقد جاء في الحديث القدسيّ الّذي رواه مسلم أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله ﷻ يقول يوم القيامة: يا بن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا ربّ، كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمت أنّ عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنّك لو عدته لوجدتني عنده...**»[1]، وهذه تسلية للمريض؛ لأنّ من فقد نعمة الصّحّة يرقّ قلبه فيعيش مع المنعم، ونحن نتعلّق بالمنعم وهو الله تعالى، ونذكر الله ﷻ قبل ذكر النّعمة. فما هي النّعمة؟

قد تأتي النّعمة في صيغة المفرد، وتكون مخبوءة بنعم كثيرة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، مثل الماء: فهو نعمة أيّما نعمة، وبه ترتبط كلّ النّعم، من إحياء الأرض، وإنباتها، وإخراج الثّمر،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب فضل عِيادة المريض، الحديث رقم (٢٥٦٩).

وسقاية الظّامئين.. فما هي النّعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل؟ هي نعمٌ كثيرة ومتعدّدة، وأهمّها وأعظمها كثرة الأنبياء المرسلين إليهم، وهم احتاجوا إلى هذا العدد الكبير من الأنبياء ليس لأنّهم أعظم شعب، ولا لأنّهم شعب الله المختار، ولكن لاستعصاء أمراضهم، وكثرة ذنوبهم، وليست كثرة الأنبياء والمرسلين فيهم مزية لهم. إنّ كثرة الأدواء تستدعي كثرة الدّواء، وهذا الكمّ الهائل من الأنبياء يُشبه حالة المريض الّذي استعصى مرضه، فجاؤوا له بمجموعة من الأطبّاء.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: العهد الّذي أخذه الله تعالى عليهم في التّوراة هو أن يتّبعوا سيّدنا محمّداً ﷺ الّذي ذكر عندهم في كتابهم، كما أخبر ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]، وقد سأل سيّدنا عمر رضي الله عنه عبد الله بن سلام -وهو من علماء أهل الكتاب، وقد أسلم-: أتعرف محمّداً ﷺ كما تعرف ولدك؟ قال ابن سلام: نعم، وأكثر. فهذا العهد موجود في التّوراة.

وقد يكون العهد هو عهد الفطرة الأوّل، الّذي أخذه الله على سيّدنا آدم عليه السلام يوم أن كانت ذريّته في صلبه، وكلّ مولود يولد على الفطرة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢]. وقوله ﷻ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يعني أنّ الأمر بيدنا دائماً، فيقول لنا تبارك وتعالى في كتابه:

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة]، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمّد: من الآية ٧]، وفي الحديث القدسيّ: قال رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: «**يقول الله ﷻ: من جاء بالحسنة، فله عشر أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسيّئة فجزاؤه سيّئة مثلها أو أغفر، ومن تقرّب منّي شبراً تقرّبت منه ذراعاً، ومن تقرّب منّي ذراعاً تقرّبت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بِقُرابِ الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة**»(١). وفي هذه الآية يقول ﷻ لبني إسرائيل: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾، ويكون ثوابكم الجنّة، أي آمنوا بمحمّد ﷺ واتّبعوه واتّبعوا النّور الّذي أُنزل معه، ولو كان نبيّكم موسى حيّاً زمن بعثة محمّد ﷺ ما وسعه إلّا أن يتّبعه. وقد كان اليهود في المدينة وفي شبه جزيرة العرب في زمن تنزيل القرآن الكريم، وكانوا أشدّ النّاس عداءً للإسلام والمسلمين، وكانوا سبب الفتن والمؤامرات والأذى وكلّ ما لحق بالمسلمين عبر عصور التّاريخ.. وهم الّذين ألّبوا الأحزاب في غزوة الخندق.. ونقضوا العهود مع رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، كما فعل بنو قينقاع والنّضير وقريظة.. وفي خيبر.. وغيرها، حتّى وصلنا إلى يومنا هذا.. ابحثوا عن الفتن والتّحريض والزّيف والإجرام في أحداث التّاريخ كلّها تجدوا وراءها بني إسرائيل، وها هي دولتهم اليوم تنظر إلى العرب والمسلمين على أنّهم العدوّ الأوّل لها.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار، باب فضل الذّكر والدّعاء والتّقرب، الحديث رقم (٢٦٨٧).

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾: قدّم المفعول به على الفعل للحصر، أي لا ترهبوا غيري؛ وإظهاراً لأهميّة المتقدّم وهو الله جَلَّ جَلَالُهُ.

والرّهبة هي الخوف، والخوف لا يكون إلّا من الله عَزَّ وَجَلَّ، والإنسان في حياته يخاف ممّا يتوقّع، ويحزن على ما وقع، إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. ولا يجتمع في قلب العبد مخافتان، فإمّا أن يخاف الله، وإمّا أن يخاف من خلق الله. فإذا أنت خفت من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خافك كلّ شيء، وإذا خفت من البشر خفت من كلّ شيء.

(الآية ٤١) - ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾:

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾: يقصد من التّوراة، والمقصود هنا هو أن يؤمنوا بالقرآن الكريم الّذي جاء مصدّقاً لكلّ الرّسالات السّماويّة السّابقة.

وقد بشّر بهذه الرّسالة سيّدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصفّ].

فهم كفروا بكلّ الأنبياء، وكذّبوا كلّ الأنبياء، وخرجوا على كلّ الأنبياء. وموكب الرّسالات هو موكب واحد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى

﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، والدّين لا يمكن أن يكون سبباً للتّفرقة؛ لأنّ الدّين واحد، والربّ واحد، والإله واحد.

والله ﷻ أراد الرّحمة للنّاس جميعاً، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]. وأيّة دعوة تحرّض على بقيّة البشر بغضّ النّظر عن انتماءاتهم.. لا أصل لها، لأنّ الدّين دعوة إلى التّكاتف والمحبّة والخير للجميع.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾: استخدم الخطاب القرآنيّ هنا كلمة: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾؛ لأنّ بني إسرائيل شعب مادّيّ، ولا يفهم إلّا بالخطاب المادّيّ كالبيع والشّراء، فقرّب الفكرة إلى أذهانهم من الجانب الّذي يفهمونه، والدّنيا كلّها ثمن قليل لمخالفة أوامر الله ﷻ؛ لأنّ الإنسان ابن أغيار، لا يستمرّ على حال واحدة، فاليوم صحيح وغداً مريض، واليوم حيّ وغداً ميّت، والدّنيا زائلة، ومهما كان الثّمن فهو قليل إلى جانب النّعيم الخالد والدّائم في الآخرة، وعمر الإنسان كلّه قليل بالنّسبة إلى الخلود في الآخرة، فمن يغامر بهذه التّجارة الخاسرة وقد قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾ [الصفّ]. والتّجارة الرّابحة هي التّجارة التي تبني فيها لتزداد، وتزرع لتحصد، ولا تبني لتفنى، وفي الدّنيا أنت تبني للفناء أنت ومالك، وكان سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه يقول: (نعم الخادم المال، وبئس السيّد المال)، فلا تصبح خادماً للمال، وهو الّذي يجب أن يخدمك.

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾: وهنا أيضاً قدّم المفعول به؛ لأنّ التّقوى لا تكون إلّا لله ﷻ. والتّقوى هي جوامع كلّ خير. وعبّر سيّدنا عليّ عن التّقوى بقوله: (التّقوى هي: الخوف من الجليل، والعمل بالتّنزيل، والرّضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرّحيل).

وعندما نقول: اتّق الله، أي اتّق صفات الجلال من الله، واتّق صفات غضب الله كي لا تدخل النّار، وكي تكون من السّعداء الفائزين.

(الآية ٤٢) - ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

نتابع خطاب الله ﷻ لبني إسرائيل، هذا الشّعب الّذي أجرم في حقّ الأنبياء والشّعوب، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، فهو يسلّط الضّوء على عقائدهم وأفكارهم وانتماءاتهم وحركاتهم وإجرامهم... وعلى كلّ ما يتعلّق بهم؛ لأنّهم سيكونون أصل بلاء البشريّة كلّها عبر كلّ العصور والأزمنة حتّى يومنا هذا. فهم سبب كلّ بلاء وقع على المسلمين والعرب وعلى العالم كلّه. ويخاطبهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، هذه وظيفتهم، فهم يسترون الحقّ ويخلطونه بالباطل، ويكتمون الحقّ وهم يعلمون.

اللَّبس: هو الخلط، أي أن تغطّي شيئاً بشيءٍ، المراد يخلطون الحقّ بالباطل.

الحقّ: هو الشّيء الثّابت الصّحيح الّذي لا يعتريه تغيير.

الباطل: له وجوه وأبواب متعدّدة، فهو من البطلان والزّيغ، أمّا الحقّ

فله باب واحد، ووجه واحد.

والخطاب الإلهيّ موجّه لشعب بني إسرائيل، ولكن يجب أن ننتبه إلى أنّ هناك قاعدة وهي: (خصوصيّة السّبب، وعموميّة المعنى)، فالكلام موجّه إلينا جميعاً، ولكلّ من آمن بالرّسالات السّماويّة.. وإلباس الحقّ بالباطل فيه تورية وتغطية للحقّ، وتغيير لوجهته.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: تعلمون الحقّ، وتعلمون بأنّ هذا الدّين هو الحقّ.

وشعب بني إسرائيل اليوم ألا يعلمون أنّ فلسطين ليست أرضهم؟ وأنّ المسجد الأقصى هو للمسلمين وهو أُولى القبلتين؟ وأنّهم جاؤوا من كلّ بقاع الأرض وأجرموا وأرهبوا واحتلّوا أرض غيرهم؟ لكنّهم يلبسون الحقّ بالباطل.

(الآية ٤٣) - ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

وهذه ثلاثة أوامر موجّهة إلى شعب بني إسرائيل الّذين عاصروا تنزيل القرآن الكريم في جزيرة العرب، وهي رسالة موجّهة للنّاس جميعاً.

وكلّ الدّيانات السّماويّة جاءت بالصّلاة والزكاة، ونجد ذلك في مثل قوله ﷻ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: من الآية ١٣٢]، وفي دعاء إبراهيم الّذي ورد في القرآن: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: من الآية ٤٠]، وفي قول سيّدنا عيسى عليه السلام كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: من الآية ٣١].

والصّلاة والزكاة ركنان أساسيّان من أركان الإسلام، وأركان الإسلام

خمسة كما ورد في الحديث الصحيح: «**بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وإقامِ الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، والحجّ، وصوم رمضان**»[1]، أي أنّ الأركان التي بني عليها الإسلام هي هذه الخمسة وليس الإسلام هو هذه الأركان فقط. فالأركان هي الأعمدة وليست هي البناء، البناء هو البناء، ولا يتمّ البناء من غير أركان، لكن الأعمدة ليست هي البناء، فالبناء أكبر وأشمل، كذلك الإسلام أوسع وأشمل من الأركان.

والعبادة أشمل من الصّلاة والصّوم والزكاة والحجّ، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات]، فلا يمكن أن نكون قد خُلِقنا فقط للصّلاة والزكاة والصّوم والحجّ، فنحن نأكل ونفكّر ونتعلّم ونعمل ونتزوّج ونتناسل ونحبّ ونبغض ونسير على الأرض. والعبادة هي كلّ عمل يعود على الإنسان والغير بالخير. وهي نفع الفرد والمجتمع والبشريّة كلّها، فالعبادة عطاء للبشريّة، والعابد هو من يعطي عطاءً خيّراً لمجتمعه، إذا كانت العبادة والطّاعة صحيحة كما أمر الله ﷻ. ولا تنظروا إلى تحريف البشر، ولا تنظروا إلى الانحراف والشّواذ بل انظروا إلى الأصل.

وأركان الإسلام هي أركان كلّ الشّرائع السّماويّة، والصّلاة والزكاة متلازمان دائماً: لأنّ الصّلاة صلة مع الله، والزكاة صلة مع خلق الله. فأرني أثر صلاتك في صلتك، وأرني أثر صلاتك في مجتمعك. وأثر الصّلاة يكون

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النّبيّ ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، الحديث رقم (٨).

بالزكاة؛ لأنّ الصّدقة برهان على الإيمان. وهناك من إذا قلت له: صلّ أربع ركعات يصلّي أربعين، وهي أسهل عليه من الزكاة والصّدقة، وإن قلت له: تصدّق على الفقراء، أحسن إلى النّاس، أعط من مالك للمحتاجين، ابنِ مبرّة مثلاً، تجده لا يفعل من ذلك شيئاً، فهذا هو البرهان على صدق الإيمان من عدمه.

والصّلاة هي دعاء وصلة مع الله، والزكاة هي لاستيعاب حركة الإنسان في الحياة، وهي عمل من أجل الغير، وذلك حين تعمل وأنت تنوي أن تجني مالاً تقتطع منه جزءاً للزكاة. فالزكاة حركة في المجتمع، ودعوة للإصلاح والتّكافل الاجتماعيّ؛ لأنّه اقتطاع جزء من الوقت للعمل من أجل الغير. وكذلك الصّلاة فهي اقتطاع جزء من الوقت للدّعاء والتّعبّد.

وبالنّتيجة: الصّلاة والزكاة ركنان أساسيّان في الحياة الإنسانيّة لتستمرّ الحياة بصلات صحيحة مع البشر، وبصلات قويمة مع ربّ البشر.

﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: وقد نتساءل هنا لماذا خصّ الرّكوع مرّة أخرى مع أنّ الصّلاة تشتمل على الرّكوع؟ الجواب: أنّ الرّكوع هنا بمعنى الخضوع العامّ لله تعالى، كما يأتي السّجود أحياناً بمعنى التّعظيم والتّحيّة والامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى.

أمّا المعنى الاصطلاحيّ للسّجود فهو وضع الجبهة على الأرض في الصّلاة، وأمّا المعنى الاصطلاحيّ للركوع فهو الانحناء في الصّلاة.

والرّاكعون هم الملتزمون الطّائعون لأوامر الله سبحانه وتعالى والممتثلون لطاعته.

وهذا ليس خطاباً موجّهاً إلى بني إسرائيل وحدهم، بل هو موجّه للنّاس جميعاً، فخصوصيّة السّبب لا تنفي عموم المعنى.

(الآية ٤٤) - ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

خصوصيّة السّبب في هذه الآية لبني إسرائيل الّذين كانوا يستفتحون على مشركي العرب، ويقولون لهم: إنّ نبيّاً سيأتي وسيؤمنون به وسيقتلونهم قتل عادٍ وإرم. ولم يكونوا يعلمون أنّ النّبيّ لن يكون منهم، بل سيأتي من العرب، فلمّا جاءهم كفروا به وهم الّذين كانوا يأمرون النّاس بالبرّ.

أمّا عموميّة المعنى فهي للنّاس كلّهم، ولكلّ الدّعاة إلى الخير، من علماء وخطباء ومشايخ واعظين... فعليهم أن يلتزموا بما يدعون النّاس إليه، وكما قال الشّاعر:

لا تنهَ عن خُلُق وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيم

أمّا عالِم الرّياضيّات والفيزياء والكيمياء والفلك... فإنّ النّاس يأخذون عنهم مادّتهم ولا يسألون عن سلوكهم، إلّا عالِم الدّين الّذي إذا انفصل سلوكه عن قوله سقطت دعوته. وكما قال الشّاعر:

يا أيّها الرّجل المعلّم غيره هلّا لنفسك كان ذا التّعليم
تصفُ الدواء لذي السّقام وذي الضَّنى كيما يصحّ به وأنت سقيم

فمن يصعد المنبر وينهى عن الغيبة ويأتي بأدلّة قرآنيَّة ويتلو قول الله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[الحجرات: من الآية ١٢]، ثمّ

بعد دقائق يخرج ويقول: فلان فعل كذا، وفلان قال كذا.. فيكون سلوكه قد خالف قوله. والدّين كلمة تقال وسلوك يفعل، فإذا انفصل السّلوك عن الكلمة سقطت الدّعوة. والدّين بالأسوة، فقد قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، فإذا لم تكن هناك أسوة سلوكيّة فلن تكون هناك كلمة دعويّة. ولن يكون هناك أيّ مصلح في أيّ زمان ما لم يكن أخلاقيّاً ومصدر أسوة سلوكيّة. فمن يحدّث النّاس بكلام ويفعل غير ما يقول، لا يمكن أن يكون داعية، مثل الّذي يتحدّث عن الميراث ويأكل ميراث غيره، ويقول: لا تشربوا الخمر وهو يشربه، وينهى عن النّميمة ويمشي بها... والبرّ هو جوامع الخير كلّه، بكلّ الاتجاهات وبكلّ الطّرق التي تؤدّي إلى الخير.

﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: والمقصود هو كلّ الكتب السّماويّة التي لم تأت إلّا رحمة للبشريّة ولهدايتهم. والهداية لا تكون إلّا بالأسوة السّلوكيّة، ولا بدّ من اقتران دعوة الخير بالسّلوك العمليّ، فلا تقل: خذوا بأقوالي ولا تأخذوا بأفعالي واتركوا النّار للحطب. بل لا بدّ لدعوة الخير والإصلاح من أن تقترن بالعمل، وإلّا ضاعت الدّعوة تماماً.

(الآية ٤٥) - ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

في الآية قبل السّابقة قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والقرآن الكريم حين يتحدّث عن الصّلاة يتحدّث عن (إقامة) ولا يتحدّث عن أداء، وهذا أمر

هامّ جدّاً؛ لأنّ بعض النّاس يقول: أنا أصلّي بقلبي، فنقول له: صلّ، ولكن هذه ليست إقامة الصّلاة، فالإقامة لها شروطها وأركانها وفرائضها المعروفة من طهارة وستر واستقبال للقبلة وركوع وسجود.. وهذا معنى إقامة الصّلاة.

وقوله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أمر، أمّا هنا فالمقصود الاستعانة. وكأنّ الله ﷻ يقول لنا: ستكون في هذه الحياة ابتلاءات، والإنسان على هذه الأرض ليس محصّناً من الابتلاءات من مرض وموت وفقر وهمّ وغمّ.. ولا أحد ينجو منها، فمن كان محصّناً من المرض أو الموت فليمنع نفسه منها، ولا يمكن لأحد أن يمنع نفسه؛ لأنّ الإنسان أغيار، يعتريه التّبدّل، ويتعرّض لأمورٍ كثيرة، وقد قال ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة]، والاستعانة بالصّلاة غير إقامة الصّلاة، وكأنّ الله ﷻ يقول لنا في هذه الآية: ستكون هناك ابتلاءات في الحياة، وأنا أعطيكم سلاحين يؤدّيان وظيفة واحدة، تستعينون بهما على مواجهة هذه الابتلاءات، وعليكم أن تأخذوهما معاً، ولا يصحّ أن تأخذوا واحداً وتتركوا الآخر، وهما: الصّبر والصّلاة.

وليس هناك إنسان محصن، فما دام هو إنساناً فستعتريه كلّ الابتلاءات من مرض وكآبة وهرم وغيرها.. فاستعن بهذين السّلاحين على مواجهتهما. وقدّم الصّبر على الصّلاة لأهمّيته، وقد قال سيّدنا عليّ كرم الله وجهه: (الصّبر من الإيمان كالرّأس من الجسد)؛ لأنّ الصّبر فيه مجاهدة للنّفس ومكابدة أكثر من الصّلاة. وهناك صبر على المحذور، وصبر على

المأمور، وصبر على المقدور. وهناك أوامر طلبها الله ﷻ منّا نصبر على أدائها كالصّوم وترك الشّهوات.. وهناك أمور نخشى الوقوع فيها ونحذر منها. وهناك أمور قدّرها الله علينا وقضاها، وعلينا أن نصبر على تحمّلها. ولذلك قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزّمر: من الآية ١٠]، وكلّ حسنة بعشر أمثالها إلّا الصّبر فهو بغير حساب؛ لأنّه علامة الإيمان الحقيقيّ. وقد يقول قائل هنا: إنّ الاستعانة تكون بالله ﷻ فكيف تقولون: نستعين بالصّبر والصّلاة؟ وفي الحديث الصّحيح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: «**يا غلام، إنّي أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء، لم يضرّوك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصّحف**»[1] وهذا حديث صحيح، ولكنّنا أُمرنا ألّا نسجد لغير الله أيضاً، وقال الله لنا: بأن نستقبل القبلة في صلاتنا، فنحن نتوجّه كما أمرنا الله، وهكذا هنا فإنّ الله تعالى يأمرنا بالاستعانة بالصّبر والصّلاة؛ لأنّ طريقة الاستعانة بالله تكون باستخدام ما أمرنا الله به، والاستعانة بالصّبر والصّلاة هي استعانة بالله.

---

(١) جامع التّرمذيّ: كتاب صفة القيامة والرّقائق والورع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، الحديث رقم (٢٤٥٣).

والصّلاة اتصال مع الله ﷻ، وأيّ عظيم تريد مقابلته تحتاج إلى موعد مسبق منه ووقت محدّد وهو الّذي يتحدّث، وينهي المقابلة متى يشاء. أمّا الله تعالى فأنت تقابله متى تشاء، وأين تحبّ، وهو لا ينهي المقابلة أبداً، بل أنت تنهيها حين تريد.

وعطاء الله لا ينفد، وعطاء البشر ينفد: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النّحل: من الآية ٩٦]، فالاستعانة بالصّلاة هي استعانة بالله، وهذا ما قاله أحد العابدين:

حسب نفسي عزّاً بأنّي عبدُ يحتفي بي بلا مواعيد ربُّ
هو في قدسه الأعزّ ولكنْ أنا ألقاه متى وأين أحبُّ

فهذه عظمة الصّلاة والاستعانة بها وبالزكاة.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ ولم يقل: وإنّهما لكبيرتان؛ لأنّ الغاية من كليهما واحدة، والغرض واحد، وهذا مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾[الجمعة: من الآية ١١]، ولم يقل: انفضّوا إليهما؛ لأنّ الغاية واحدة، وإن كان اللّهو شيئاً والتّجارة شيئاً آخر، وهذا أسلوب القرآن العظيم. فمن هم الخاشعون؟

كان الإمام زين العابدين رضي الله عنه عندما يدخل إلى الصّلاة يصفرّ وجهه ويرتجف، فإذا سئل عن السّبب كان يقول: أتدرون بين يدي من أقف؟ وهو الخاشع الزّاهد. ونحن الآن نصلّي ونلتفت وتجول بنا الخواطر وننظر إلى هنا وهناك، وهذا ليس خشوعاً، والخشوع هو أن نعرف بين يدي من نقف.

(الآية ٤٦) - ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾:

الخاشعون هم الّذين يظنّون أنّهم ملاقوا ربّهم وأنّهم إليه راجعون.

وقد قال: ﴿يَظُنُّونَ﴾ ولم يقل: (متيقّنون)، والظّنّ هنا بمعنى اليقين، فلماذا أتى بكلمة الظّنّ مادام يقيناً؟ وهذه إشارة قرآنيّة عظيمة، ولو أنّ الّذي كتب هذا القرآن من البشر لما خطر له أبداً أن يقول ﴿يَظُنُّونَ﴾ مادام المقصود هو اليقين. فالمعنى أنّهم متيقّنون، لكنّهم بمجرد الظّنّ يسارعون إلى الطّاعة. ومثال ذلك: أنّك لو كنت تسير في طريق سفر وقالوا لك: هناك طريقان ولك أن تختار ما تشاء، وأشاروا لك إلى أحد الطّريقين وقالوا لك: ولكن نظنّ أنّ هذا الطّريق يمكن أن يكون فيه قطّاع طريق، فأنت بمجرد الظّنّ ستختار الطّريق الآخر. وهكذا أمر الله ﷻ، فالخاشعون بمجرّد الظّنّ بأنّهم ملاقوا ربّهم يخشعون أتمّ الخشوع، فإذا كنت تخشع في صلاتك بمجرّد الظّنّ فكيف إذا كنت متيقّناً؟

﴿وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾: الرّجوع إلى الله هو ديدن هذه الدّنيا، يقول تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ [طه]، وليس هناك على وجه الأرض إنسان لن يموت، فكلّ من عليها فان، وقد قال الله ﷻ لرسوله ﷺ وهو أعظم بشر عاش على وجه الأرض: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزّمر]. ولم تستطع قوى الأرض رغم كلّ التّقدّم أن تمنع إنساناً من الموت، أو تؤخّر في أجله. والمؤمنون الصّالحون يقولون: الحمد لله على الموت.

ولو تحدّثنا بشكل موضوعيّ بغض النّظر عن عقيدتنا وديننا، فإنّني أسأل كلّ دعاة السّلام ودعاة الحريّة والتّقدّم: أيّهما أفضل: أن نقول للنّاس: افعلوا ما شئتم ولكم مطلق الحريّة، أم أن نقول لهم: إنّكم ستموتون وستبعثون وستحاسبون؟

والنّاس اليوم برغم يقينهم بالموت، ورؤيتهم لمن يموت، والميّت يحمل ميّتاً إلى قبره، ومع ذلك هم يقتلون بعضهم بعضاً، ويسفكون دماء بعضهم بعضاً ويأكلون أموال بعضهم.

ولو لم يكن موت لأصبحت الدّنيا غابة، فالحمد لله على الموت وعلى الإيمان وعلى دين الإسلام.

(الآية ٤٧) – ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾:

جاءت قصص بني إسرائيل موزّعة على سورٍ كثيرةٍ في القرآن الكريم، وهي من أكثر قصصه؛ لأنّ سيّدنا موسى عليه السلام وهو شيخ أنبياء بني إسرائيل، عانى من بني إسرائيل أكثر ممّا يعانيه العرب والمسلمون اليوم من جرائمهم وإرهابهم وتآمرهم من خلال دولتهم التي تدّعي الانتساب لإسرائيل. وقد تحدّثت الآيات السّابقة عن العهد والميثاق الّذي أخذه الله تعالى عليهم. أمّا هذه الآية فهي تتحدّث مباشرة عن النّعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، ويخاطبهم الله سبحانه وتعالى بنداء: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فيقرّع اليهود الّذين عاصروا زمن تنزّل القرآن الكريم في شبه جزيرة العرب، وبالتّحديد من

كان منهم في المدينة المنوّرة، حيث كانوا يعاندون ويجحدون ويتآمرون على رسول الله ﷺ. والعبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

وهذه الآية تذكّر شعب بني إسرائيل بأبيهم الّذي يتكنّون به، فإسرائيل هو يعقوب عليه السلام، وهم يسمّون شعبهم باسمه زوراً وبهتاناً، ويبنون دولتهم العنصريّة الإرهابيّة التي زُرِعت في قلب الأمّة العربيّة والإسلاميّة تحت ستار اسم هذا النّبيّ، ويتستّرون وراء هذا الاسم ويتّخذونه شعاراً لجرائمهم. كما يتّخذ التّكفيريّون اليوم شعارات إسلاميّة لتغطية جرائمهم، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[البقرة].

ودين الله لا يأمر بالتّكفير ولا بالقتل، ولا يأمر بالبغض والحقد والكراهية، بل يأمر بالتّعاون على البرّ والتّقوى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[المائدة: من الآية ٢]، وديننا يقول: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: من الآية ٣٢]، ولم يحدّد النّفس مسلمة كانت أم غير مسلمة، ولا انتماء هذه النّفس ولا جنسيّتها أو دينها أو معتقدها بل أطلق كلمة نفس.

أمّا ما يفعله اليهود اليوم فهو تحريف وإلباسٌ للحقّ بالباطل، وقد كانت قصص بني إسرائيل في القرآن الكريم أطول القصص، والحديث بين موسى عليه السلام ومحمّد ﷺ عند معراج النّبيّ إلى السّماء كان من أطول الأحاديث. لأنّ أكثر ما ستتعرّض له الأمّة والبشريّة من فتن ومشاكل وجرائم ستكون من شعب بني إسرائيل، والله عز وجل بعلمه الكاشف يعلم ما

سيحصل وما سيكون. وعندما يخبر الله ﷻ عن قضيّة معيّنة، أو يذكر ما حدث في وقت مضى فإن في ذلك العظة والعبرة لكلّ زمان.

والله ﷻ يناديهم باسم أبيهم يعقوب عليه السلام كمن يقرّع ولداً ويذكّره بأبيه الصّالح وبما أوصاه به، ولا شكّ أنّ وصيّة الإنسان لأولاده وهو على فراش الموت ستكون أصفى وأنقى ما يقول، وهي تحمل خلاصة تجربته في الحياة، والله تبارك وتعالى حين يقول لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يذكّرهم بوصيّة أبيهم يعقوب وهو إسرائيل: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: من الآية ١٣٢]. وعندما خاطب القرآن الكريم بني إسرائيل ذكّرهم بوصيّة أبيهم التي لا تحمل البغض ولا الكراهية ولا العدوان ولا الجرائم ولا الإرهاب، ولا التّآمر وحبّ المال، ولا حبّ الدّنيا والمتاع. وهذا تذكير لبني إسرائيل بنعم الله عليهم، وقد فضّلهم بكثرة إرسال الأنبياء إليهم، لكنّهم جحدوا نعم الله عليهم فلعنهم الله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ [المائدة].

والقرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً، ولا يمكن تجزيء القرآن ولا فصل سورةٍ أو بترها عن غيرها. وقد تأتي كلمة التّفضيل بمعنى التّمحيص والمساءلة لهم أكثر من غيرهم بسبب النّعم الكثيرة التي خصّهم الله بها، فجحدوا هذه النّعم وقتلوا الأنبياء.

ولن تستمرّ النّعمة مع الجحود عند أيّ شعبٍ من الشّعوب، أو فرد من الأفراد فالنّعمة مرهونة بالشّكر وبعدم الجحود.

ويخاطب الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بتذكيرهم بآبائهم من الأنبياء، فيعقوب عليه السلام هو إسرائيل، وهو ابن إسحاق بن إبراهيم أبي الأنبياء الّذي أنجب إسماعيل من قبل إسحاق، ومن نسل إسماعيل عليه السلام كان نبيّنا محمّد، ويعقوب هو ابن إسحاق، والأسباط من أولاد يعقوب عليه السلام.

(الآية ٤٨) – ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾:

هذا خطاب لبني إسرائيل لكنّه موجّه للنّاس كافّة؛ لأنّ اليوم الآخر الّذي يعد الله عز وجل به سيبعث فيه كلّ البشر، بنو إسرائيل وغيرهم. لكنّه يخصّ هنا بني إسرائيل في الخطاب، ويقول لهم: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾: أي اجعلوا حاجزاً بينكم وبين عذاب ذلك اليوم، وهو يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، وقد يفلت الإنسان من الحساب في الدّنيا لكن لن يفلت من الحساب في الآخرة، ولو لم يكن هناك حسابٌ في الآخرة لبغى النّاس وطغوا أكثر ممّا بغوا وطغوا، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: من الآية ٢٨١]، يوماً لا تزر فيه وازرة وزر أخرى.

﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾: الشّفاعة: من الشّفع، أي المصاحبة والعدد الزّوجيّ شفع، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾[الفجر]، والشّفاعة هي أن ينضمّ غيرك إليك وجاهةً ووسيلة.. ويوم القيامة لا ينفع الإنسان عملُ غيره: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ [النّجم]، ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي

﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [لقمان: من الآية ٣٣].

يوم القيامة لا يشفع أحدٌ لأحدٍ إلّا بإذن الله، ولا يشفع إلّا من ارتضاه الله ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٥]، ولا يستطيع أحد أن يحمل وزر أحدٍ، وعلينا أن نعمل لذلك اليوم ولن ينفع أحداً إلّا عمله.

﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ﴾: العدل هو الشّفاعة والفدية الموازية، وعِدل بكسر العين معناه: العوض من الشّيء نفسه والمقدار نفسه، نقول: عِدل حنطة بحنطة، أمّا العَدل بفتح العين فهو الإنصاف والحقّ والمساواة، وهو الشّيء الثّابت الّذي لا يتغيّر.

ويقول ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾، والنّفس هي اجتماع الرّوح والجسد، والجنين يصبح نفساً إن نُفِخت فيه الرّوح، أي عند اجتماع الرّوح مع المادّة، والرّوح سرّ من أسرار الله، يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[الإسراء: من الآية ٨٥]، وقال في خلق سيّدنا آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[الحجر: من الآية ٢٩]، فالرّوح تسبّح الله، والمادّة تسبّح الله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[الإسراء: من الآية ٤٤]، والتقاء المادّة مع الرّوح تنتج عنه النّفس، وعندها تدخل الشّهوات والخيارات، فيكون الإنسان مخيّراً بشيء ومسيّراً بآخر، قال ﷻ: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾[الشّمس].

ويتابع المولى ﷻ في مخاطبته شعب بني إسرائيل، وخصوصيّة سبب

النّزول لا تنفي عموميّة المعنى. والحديث هنا عن اليهود الموجودين في المدينة وقت التّنزيل، والّذين كانوا يتآمرون على المسلمين، وهم من حرض القبائل العربيّة لقتال المسلمين في غزوة الخندق على الرّغم من وجود ميثاقٍ بينهم وبين رسول الله ﷺ بموجب الدّستور الّذي وضعه لهم ﷺ حين هاجر إلى المدينة، والّذي جعل من المسلمين والمشركين وأهل الكتاب أمّة واحدة وهم بمجموعهم يدٌ على من سواهم.

فالإسلام يعترف بالآخر ويعطيه كامل الحقوق والحريّة، وليس هناك تشريع سماويّ ساوى بين النّاس وعدل بينهم كالإسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾[الحجرات]. هذا الدّين الّذي رفع بلالاً الحبشيّ الأسود ليعتلي بقدمه ظهر الكعبة، تلك القدم التي كانت تُسحل على صحراء مكّة من قبل أسياده الأغنياء من قريش، اعتلى ظهر الكعبة ونادى: "الله أكبر.. الله أكبر". وفي حجّة الوداع وقف رسول الله ﷺ يعلن وصاياه الأخيرة لأمّته وللبشريّة جمعاء: «**أنتم بنو آدم وآدم من تراب** ...»[1]، فأيّة مساواة وأيّ عدل وإنصاف وأيّ حقوقٍ للآخرين قدّمتها شريعتنا الغرّاء (الشّريعة الإسلاميّة)!!. وفي هذه الآيات نجد الخطاب موجّهاً إلى اليهود الّذين كانوا يؤذون المسلمين ويعتدون عليهم في زمن تنزل القرآن الكريم.

وعداؤنا مع اليهود لا علاقة له بدينهم، بل بمكرهم وتآمرهم، وهم

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في التّفاخر بالأحساب، رقم الحديث (٥١١٦).

يهود المدينة ويهود شبه الجزيرة العربيّة. وقد شرع الإسلام الجهاد لردّ العدوان، فقال ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحجّ]، وقاتل رسول الله ﷺ المشركين لكونهم معتدين وليس لكونهم مشركين: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٤]، أي ردّوا عن أنفسكم الاعتداء والعدوان، فالجهاد إذاً لحماية الأوطان والبلدان من أيّ اعتداء، ولا تقوم به إلّا الجيوش النّظاميّة التي لها شرعيّة في البلاد. فلا يتحدثنّ أحدٌ عن الجهاد لمآرب وغايات يخفيها لينال من الإسلام، فالإسلام الّذي أُنزل على قلب رسول الله ﷺ واضح بيّن لا شبهة فيه.

وهذه الآيات تتعلّق بعدوانيّة شعب بني إسرائيل وتآمرهم، وليس لانتمائهم ليعقوب عليه السلام أو لموسى عليه السلام.

(الآية ٤٩) – ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾:

و(إذ) ظرف يدلّ على الزّمان الماضي. وكلّ حدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان يقع فيه، و(إذ) هنا تعني في وقت كذا، أي اذكروا وقت نجيناكم.

وقد تكرّرت (إذ) في القرآن الكريم في عدّة مواضع، وكانت غاية في البلاغة والأداء، انظر إلى قوله ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التّوبة: من الآية ٤٠]، كيف جاءت فيه (إذ) مكرّرة

ثلاث مرات فالنّصر كان في ثلاثة أوقات في ثلاثة أزمنة.

وفي هذه الآيات من سورة (البقرة) جاءت (إذ) لتشير إلى زمن نجاة بني إسرائيل من فرعون، وتأتي كلمة (نجيناكم) مرّة، وكلمة (أنجيناكم) مرّة أخرى، فهل هذا تكرار أم أن فيه أسراراً؟ بالطّبع هي أسرارٌ، فهناك فارق بين أنجى ونجّى، نقول: نجّى من عذاب واقع: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾[البقرة: من الآية ٤٩]، فالعذاب كان واقعاً على بني إسرائيل. أمّا في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾[البقرة: من الآية ٥٠]، ففيه معنى منع وقوع العذاب الّذي كان متوقّعاً لو غرقوا أو وقعوا في يد فرعون وجنده. فالله ﷻ يمتنّ على بني إسرائيل مرّتين، مرّة لأنّه نجّاهم من عذابٍ كان واقعاً عليهم، ومرّة أنجاهم من عذابٍ كان متوقّعاً لهم. ولهذا قال لهم ﷻ: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾[البقرة: من الآية ٤٧]، والله يذكّر بني إسرائيل بالنّعم، أمّا نحن المسلمون فيذكّرنا بالمنعم، وفرق بين من يتعلّق قلبه بالنّعمة ومن يغرق في سبحات المنعم، ويطلب من المؤمنين من أمّة النّبيّ ﷺ أن يديموا ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾[الأحزاب].

فالمؤمن لا تشغله النّعمة عن المنعم بل يعيش مع المنعم ولسان حاله يقول كما يقول أهل العرفان (المتصوّفون):

إثبات غيرك شرك في عقيدتنا محو السّوى ديننا يا قرّة العين

ويذكّر الله تعالى بني إسرائيل بأن يذكروا نعمه عليهم، فالتّنجية من آل فرعون وما كان يسومهم من العذاب هي تخليصهم من عذاب كان واقعاً

عليهم، وهذه نعمة، وكذلك إنجاؤهم من الغرق في البحر مَنعٌ من وقوع العذاب عليهم وهذه نعمة كذلك.

وقوله ﷻ: ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ هم أهل فرعون، فمن هو فرعون؟ والقرآن الكريم يقصّ علينا قصص فرعون مع سيّدنا موسى عليه السلام، ولا توجد أيّة وثيقة تاريخيّة مقطوع في صدقها؛ لأنّ الّذي دوّن التّاريخ بشر يعتريه من العواطف والانفعال والتّأثّر ما يعتري البشر، فالّذين يشهدون حادثة ما في مكان ما يروونها بأشكال وطرائق مختلفة متباينة. أمّا ما يرويه القرآن الكريم فهو القصص الحقّ، وليست هناك كلمة في القرآن الكريم إلّا وهي مطابقة للحقيقة تماماً. وهذا القرآن الكريم نزل على قلب نبيّنا محمّد ﷺ قبل ١٤٠٠ عام من الآن، وقد كُشف مؤخّراً عن صفحتين من نسخة مخطوطة للقرآن الكريم في جامعة برمنغهام في بريطانيا، وبعد التّحليل الكيميائيّ للصّفحتين تبيّن أنّهما تعودان إلى زمن الخلفاء الثّلاث الأوائل ممّا يؤكّد أنّ هذا القرآن من عند الله تعالى.

ويتحدّث القرآن الكريم عن فرعون وآله، وهو لقب أطلق على حكّام مصر في فترة معيّنة من التّاريخ، فهو ليس اسم شخص، بل هو منصب ولقب، وقد عرفت أسماء بعض الفراعنة مثل: تحوتمس الأوّل ورمسيس الثّاني... وغيرهم. أمّا في سورة (يوسف) فإنّ القرآن يطلق على حاكم مصر تسمية الملك ولم يقل: (فرعون) كما في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾[يوسف: من الآية ٥٤]، مع أنّ بقيّة السّور تطلق على حكّام

مصر لقب فرعون. وقد تبيّن قبل ثلاثة أو أربعة عقود حين اكتشف حجر الرّشيد في مصر وقُرئت الكتابة الهيروغليفيّة أنّ الفترة الزّمنيّة التي كان فيها يوسف عليه السلام هي الفترة الوحيدة في التّاريخ التي كان فيها حكم مصر للملوك الرّعاة (الهكسوس)، وكانوا يقرّبون بني إسرائيل بسبب يوسف عليه السلام، وحين عاد الفراعنة وطردوا الهكسوس وحرّروا مصر منهم اضطهدوا بني إسرائيل بسبب ما كانوا عليه من التّحالف مع الهكسوس. وهذا إعجاز تاريخيّ للقرآن الكريم، ودلالة على أنّه وحي يوحى، تنزيل من ربّ العالمين.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾: سام الإنسانَ العذابَ: أوغل في تعذيبه وإذلاله، وأنزل به سوء العذاب. وهذا ما فعله فرعون وحاشيته مع بني إسرائيل. والله سبحانه وتعالى يمتنّ على شعب بني إسرائيل بالنّعم الكثيرة التي أنعمها عليهم ومنها كثرة الأنبياء، ولم يكن منهم إلّا الجحود والعدوان والظّلم.

وقد كثر أنبياء بني إسرائيل بسبب كثرة داءاتهم؛ لأنّ الإنسان إذا كان يعاني من مرض واحد يحتاج لطبيب واحد، أمّا إذا كانت أمراضه كثيرة فهو بحاجة لمجموعة من الأطبّاء، وكذلك بنو إسرائيل كثرت أمراضهم فاحتاجوا إلى العديد من الأنبياء. ويمتنّ الله تعالى على بني إسرائيل بأن نجّاهم من فرعون، وقد كان فرعون وآله يعذّبون بني إسرائيل ويذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم؛ لأسباب لم تذكر في القرآن الكريم.

وهناك في علم التّفسير ما يسمّى بالإسرائيليّات وهي عبارة عن قصص

وخرافات ومواضيع أدخلت ودُسّت في بعض التّفاسير لتشوّه معالم تفسير القرآن الكريم. وتفسير القرآن الكريم هو عمل بشريّ، ومن المعلوم أنّه لا أحد يستطيع أن يفسّر القرآن الكريم، وإنّما تُستنتج منه العبر والعظات، ولا يسمّى تفسيراً إلّا ما صحّ عن رسول الله ﷺ، فعلى قلبه الشّريف نزل وبه انفعل وبه فعل.

ونحن في (التّفسير الجامع) لا نأخذ إلّا ما جاء في القرآن الكريم، أي تفسير القرآن بالقرآن، وما صحّ عن سنّة رسول الله ﷺ فيما يتعلّق بالتّفسير، وأمّهات كتب التّفسير المعتمدة.

وهناك روايات تقول: إنّ فرعون رأى رؤيا بأنّ نهاية ملكه ستكون على يد غلام يولد من بني إسرائيل فأمر بذبح المواليد الذّكور من بني إسرائيل، وكان يتخلّص منهم بذبحهم، فالذّبح هو إسالة الدّم من الوريد إلى الوريد، أمّا القتل فيمكن أن يكون بوسيلة أخرى، بالغرق أو بالخنق أو بالرّمي... وكلّ قتل بأيّ طريقة كانت فهو جريمة وعمل إرهابيّ لا يكون إلّا من الخارجين عن منهج الله؛ لأنّ من يتبع منهج الله ﷻ لا يؤذي إنساناً ولا حيواناً ولا نباتاً فكيف يقدم على قتله؟! وقد قالوا لفرعون: إنّنا إذا ذبحنا كلّ المواليد فلن يعود هناك من يخدمنا (حيث كان أهل مصر في ذلك الوقت يكلّفون بني إسرائيل بالأعمال المهينة في المجتمع)، فقرّر فرعون أن يذبح مواليد عامٍ ويترك مواليد عام، فولد هارون عليه السلام (أخو موسى) في العام الّذي لا يذبحون به فنجا من الذّبح، أمّا سيّدنا موسى عليه السلام فقد وُلِد في

العام الّذي يذبّحون فيه فألقته أمّه في اليمّ لتنجيه من القتل، ويمتنّ الله ﷻ على بني إسرائيل بأنّه نجّاهم من عذاب كان واقعاً عليهم، والقرآن هنا يخاطب اليهود الّذين كانوا في زمن التّنزيل وعاصروا سيّدنا محمّد ﷺ، ويمتنّ عليهم الله ﷻ أن نجّى أجدادهم من عذاب آل فرعون، ولولا أن نجّاهم الله لما وصلت ذريّتهم وسلالتهم إلى المدينة المنوّرة ومن كان فيها من يهود بني النّضير وقينقاع.. وغيرهم.

فالقرآن الكريم يخاطب أحفاد اليهود الّذين عاصروا موسى عليه السلام ويخاطب اليهود الّذين كانوا في المدينة في وقت التّنزيل، ويذكّرهم بالعذاب الّذي كان واقعاً على أجدادهم: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾: وإذا أطلق (الابن) فهو للذّكر فقط، أمّا (الولد) إذا أطلق فيشمل الذكر والأنثى. ولهذا قال هنا: ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾: أي يسْتَبْقون نساءكم، فكانوا يستبقون النّساء أحياءً للخدمة والمتعة... وغيرها. ويذكّرهم الله تعالى بهذه النّعم، ويمتنّ عليهم، ويخاطب بهذا الكلام اليهود الّذين كانوا في جزيرة العرب وقت التّنزيل من بني النّضير ويهود خيبر.. وغيرهم، ولولا هذه المنن على أجدادهم لما عاشوا هم ووصلوا إلى ما وصلوا إليه.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾: البلاء يكون بالخير والشّر، قال تبارك وتعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: من الآية ٣٥]، والفتنة اختبار، والابتلاء قد يكون في الخير، وقد يكون ظاهر الأمر خيراً

وهو استدراج، قال ﷻ: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف]، وقال جلّ وعلا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: من الآية ١٨٢]، وهناك الكثير من الآيات التي تؤكّد أنّ الابتلاء يكون بالعطاء وبالمنع والعذاب، كقوله تعالى في سورة (الملك): ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك]، أي ليختبركم، فالدّنيا ليست دار قرار بل هي دار عدم استقرار، وهي دار امتحان وابتلاء. والمؤمن يعتقد أنّه ربّما لا ينال جزاءه في هذه الحياة الدّنيا، بل يعلّق قلبه بالآخرة وبيوم الحساب. إلّا أنّ الله وعده بالحياة الطّيّبة في الدّنيا بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل].

(الآية ٥٠) – ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ﴾ يعني ظرف زمان، أي وقت وقوع الحدث.

﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾: من الغرق وهو عذاب لم يقع، ولو قال تبارك وتعالى: ﴿نَجَّيْنَاكُم﴾ لكان المعنى أنّهم غرقوا. وفي الآية السّابقة كان العذاب واقعاً عليهم فقال: ﴿نَجَّيْنَاكُم﴾ وهنا قال: ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾، وهو عذاب لم يقع.

والبحر غالباً ما يطلق على البحار المالحة، وقد يطلق أحياناً على

الأنهار. وقد أنجى الله تعالى بني إسرائيل، وأغرق آل فرعون بالسّبب نفسه، وهذا ما لا يقدر عليه إلّا الله ﷻ، فقد أهلك وأنجى بالسّبب الواحد.

أمّا فرق البحر فستأتي آيات تُفصّل فيها وتذكر قصص لحاق فرعون ببني إسرائيل، وليس في القرآن الكريم تكرار، وإنّما هي إضاءات في القصّة الواحدة ولكن من زوايا مختلفة. وقوله ﷻ: ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾: تعني إنقاذهم من عذاب كاد أن يقع بهم وهو الغرق. والقصّة هنا لم تفصّل بأكثر من غرقهم، في حين توسّعت سور أخرى في قصّة غرقهم أكثر، كما في سورة (يونس) وغيرها..

فالقصص القرآنيّ يتنوّع بحسب الإضاءة التي يوجّهها على القصّة الواحدة، وبحسب الدّروس الإيمانيّة التي يريدها الله ﷻ في كلّ إضاءة، وهذا ليس تكراراً. وهو يتحدّث هنا عن فرار موسى عليه السلام بقومه ولحاق فرعون وجنوده بهم، فأصبح البحر من أمامهم وفرعون وجنوده من ورائهم. وفي سورة أخرى يقول ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾[الشّعراء: من الآية ٦١]، أي رأى بعضهم بعضاً رَأي العين، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾[الشّعراء: من الآية ٦١]، أي لحقوا بنا وأدركونا، قال موسى بكلّ طمأنينة: ﴿كَلَّآ﴾[الشّعراء: من الآية ٦٢]، وبحسب المقاييس الدّنيويّة يجب أن يكون الجواب: (نعم)؛ لأنّهم رأوا فرعون وجنوده رَأي العين، لكنّ سيّدنا موسى عليه السلام قال بكلّ ثقة بالله: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾[الشّعراء: من الآية ٦٢]. فأدخل نفسه في معيّة الله ﷻ، وهذا يذكّرنا بقصّة سيّدنا رسول الله ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه يوم

الهجرة حين أحيط بهما في غار ثور، قال: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟**»[1]، وسجّلها القرآن، وأنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التّوبة: من الآية ٤٠]، فما دام الله معنا فلن يرونا؛ لأنّ الله سيعمي أبصارهم عن رؤية النّبيّ وصاحبه وهو اللّطيف الخبير.

فمن كان في معيّة الله فلا خوف عليه ولا يحزن، لا يخاف ممّا سيقع، ولا يحزن على ما وقع. لذلك يوصي الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يذكروه دائماً: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ١٥٢]؛ لأنّ ذكر الله ﷻ دواء وذكر غيره داء، وقد قال النّبيّ ﷺ لابن عبّاس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك**»[2]، فإذاً يجب أن نكون دائماً مع الله ﷻ.

وكذلك كان سيّدنا موسى عليه السلام قلبه معلّق بالله، فحدثت المعجزة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾: تماسكت ذرّات البحر فصار هناك ما يشبه الجبلين الكبيرين على الجانبين، وفتح الله ﷻ لهم طريقاً في قلب البحر، والبحر حين ينشقّ يبقى أثر الماء فيكون الطّريق داخله موحلاً، لكنّ الله جعله له ﴿يَبَسًا﴾[طه: من الآية ٧٧]، جاءت ريح فجعلت الأرض يبساً ليسيروا عليها. وذلك حين أمره ربّه بأن يضرب بعصاه البحر فضرب فانفلق البحر،

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّفسير، باب سورة (براءة)، رقم الحديث (٤٣٨٦).

(٢) سنن التّرمذيّ: أبواب صفة القيامة والرّقائق والورع، رقم الحديث (٢٥١٦).

وليس الفعل للعصا بل هي السّبب، والله ﷻ لم يقل للبحر: (انفلق)، بل أمر موسى بأن يضرب بعصاه البحر، وهذا يعني ربط السّبب بالمسبّب، وتعليم للبشر بأن يأخذوا بالأسباب.

كذلك السيّدة مريم البتول عندما قال لها ربّها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم]، وليس هزّ النّخلة سهلاً، وقد لا يقدر عليه عشرة رجال، لكنّه أمرها أن تأخذ بالأسباب، فخذ أخي بالأسباب؛ لأنّ الدّنيا دنيا الأسباب، لكن عش مع المسبّب، كن مع الله واربط قلبك به. فالسّبب هو هزّ النّخلة، والمسبّب هو الله تعالى. فالمطلوب منك أيّها المؤمن أن تأخذ بالسّبب، فإن لم تأخذ بالسّبب، فإنّك لم تطع الله تبارك وتعالى، بل خالفت أوامره. قال الشّاعر:

إنّ الطّبيب له علمٌ يُدِلُّ به ... إنْ كان للمرء في الأيّام تأخير
حتّى إذا ما انتهت أيّام رحلته ... حار الطّبيب وخانتــه العقاقير

والشّافي هو الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشّعراء]، وعلينا أن نأخذ بالأسباب، وهذه هي القواعد التي جعلها الله للحياة، وقد أخبر تعالى: أنّه خلق السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام، وهذه أسباب، وهو قادر على أن يخلق بكلمة ﴿كُن﴾: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾[يس]، لكنّه خلق الأسباب لنأخذ بها، والمطلوب أن نكون مع المسبّب.

وحين أراد فرعون وجنده أن يلحقوا بموسى عليه السلام ومن معه بالطّريق

نفسه هَمّ سيّدنا موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر مرّة ثانية كي يغرق فرعون وجنده، فقال له ربّه عز وجل: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾ [الدّخان]، أي اترك البحر كما هو؛ لأنّ الله عز وجل أراد أن ينجيهم ويهلك عدوّهم بالسّبب نفسه: (بضربة العصا الواحدة)، أنجاهم وأغرق آل فرعون بالسّبب الواحد:

- فأنجى موسى ومن معه بضربة عصا.
- وأهلك فرعون وجنده بالضّربة نفسها.

وليست العصا هي التي ضربت، بل كلمة الله ﴿كُن﴾ هي التي ضربت.

فالعطاء عطاءان: عطاء أنجى موسى ومن معه، وعطاء أهلك فرعون وجنده، فهاتان نعمتان.

(الآية ٥١) – ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٥١﴾:

لماذا واعد الله عز وجل موسى أربعين ليلة؟ ألم يكلّمه حين كان في جانب الطّور؟ فلماذا واعده ثانية في المكان الّذي كلّمه فيه؟ الجواب: أنّه واعده مرّة ثانية؛ لأنّه في اللّقاء الأوّل لم يعطه المنهج، وهناك سور تصف مناجاة الطّور الأولى بإسهاب أكثر... مثل سورة (طه): ﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢﴾ [طه]، (ونحن نسعد بالقرآن بفضل الله، ولن نشقى، ونسعد بتفسيره ولا نشقى بإذن الله)، ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ

خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ لَهُۥ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ
فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨ وَهَلۡ
أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا
لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١
إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ [طه]...وكلّ
هذه المناجاة لا تتعلّق بالمنهج (التّوراة)، بل فيها تكليف لموسى عليه السلام وإمداد
له وإخبار بالنّبوءة، ولفت النّظر إلى العصا التي سيكون لها دور كبير فيما
بعد، مثل ضرب الحجر وضرب البحر. وهذا تكليف، ولم يعطه المنهج
وقتها، بل أخبره بالنّبوّة، وكلّفه بأن يذهب إلى فرعون ويطلب منه أن يرسل
معه بني إسرائيل. أمّا هنا، فقد واعده ليعطيه المنهج، وهو التّوراة التي امتنّ
الله عليهم بها بعد أن نجّاهم من فرعون، كما امتنّ الله سبحانه وتعالى علينا نحن
المسلمين بالقرآن الكريم. وكان الوعد أربعين ﴿لَيۡلَةٗ﴾، ولم يقل: (يوماً)،
ومعظم التّكاليف الإيمانيّة تأتي بقوله سبحانه وتعالى: (ليلة)، وليس نهاراً: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي
لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدّخان: من الآية ٣]، إلّا
يوم عرفات، كي تتوزّع التّكاليف الإيمانيّة على مدار السّنة كلّها، وتوزّع
العبادات يكون بحسب التّوقيت القمريّ، والقمر يظهر ويغيب في اللّيل،
ورمضان يأتي في الشّتاء تارة وفي الصّيف تارة أخرى، ولو حُدّد على أساس
الشّمس لجاء في وقت واحد دائماً، (في آب مثلاً) لكنّ رمضان يأتي في كلّ

الفصول. وقد ذهب موسى عليه السلام لملاقاة ربّه وتلقّي المنهج، وترك مع قومه أخاه هارون عليه السلام، فرأوا أناساً يعبدون صنماً فطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً مادّياً (يُرى بالعين) كالأصنام.

وبنو إسرائيل رأوا كثيراً من المعجزات وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم، فاتّخذ بنو إسرائيل من حلّيهم ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٨]، ليعبدوه، وقد أخرجت نساء بني إسرائيل معهنّ حليّ القوم الّذين كانوا يخدمونهم، ظنّاً منهنّ أنّها من حقّهنّ، وهذا مال حرام، والمال الحرام هو وبال في أيّ شيء، ونحن المسلمون لا نكافئ من عصى الله فينا إلّا بأن نطيع الله فيه، فليسمع هذا أصحاب الجرائم والحقد والقتل.

روي أنّ أبا الدّرداء رضي الله عنه بلغه أنّ رجلاً قد شتمه فكتب إليه قائلاً: "يا أخي، لا تسرف في شتمنا، واجعل للصّلح موضعاً، فإنّا لا نكافئ من عصى الله فينا إلّا بأن نطيع الله فيه". فالمؤمن يطيع الله في الخصومات، فلا يقتل ولا يغدر ولا يفجر ولا يسبي ولا يسرق... فكلّ هذه الأمور محرّمات حرمة قطعيّة في ديننا. والحرام لا يأتي منه الخير مطلقاً، ولذلك ذكر الله لنا هذه القصّة للعبرة، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيّباً، وإنّ الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال عز وجل**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١﴾ [المؤمنون]»[1]،

(١) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصّدقة من الكسب الطيّب، الحديث رقم (١٠١٥).

فقد أمرنا أن لا نأكل إلّا طيّباً، فالحرام وبال على الإنسان، وكما أنّه وبال عليه سيكون وبالاً على ذرّيته من بعده كذلك.

وقد ظلم بنو إسرائيل أنفسهم؛ لأنّهم أرادوا تجسيد الله تبارك وتعالى، والإيمان بالله ﷻ إيمان بغيب؛ لأنّ الله تعالى لا تدركه الأبصار ولا يُرى. فأراد بنو إسرائيل أن يجعلوا إلهاً كما يشتهون، لأنهم مادّيّون لا يؤمنون إلّا بما يرونه أمامهم من الأمور الحسّيّة الملموسة، لذلك طلبوا من هارون أن يجعل لهم إلهاً مُشَاهداً ليعبدوه، وهم لا يفهمون معنى العبادة وأنّ العبادة طاعة، وهذا صنم لا يأمر ولا ينهى فكيف يطيعونه؟ وهذه قمّة المعصية (أن طلبوا أن يجعل لهم إلهاً ماديّاً).

(الآية ٥٢) – ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾:

ومرّة أخرى ارتكبوا ذنوباً عظيمة، وعفا الله عنهم؛ لأنّ الله ﷻ يريد أن يستبقي عنصر الخير في البشر، وفتح لهم باب التّوبة، فتابوا وعصوا ثمّ تابوا وعصوا. وكلّ الذّنوب الموبقة تحتاج إلى التّوبة؛ لأنّ في التّوبة دعوة للكفّ عن الخطأ، ودعوة متكرّرة إلى الإصلاح وترك المعاصي التي تؤدّي إلى الشّرور في أيّ مجتمع من المجتمعات، كالسّرقة وأخذ حقّ الغير والقتل والزّنا... وكلّ الشّرور التي تؤذي النّاس، والتّوبة مفتاح لإصلاح المجتمع، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: من الآية ١١٤]، وهذا أمر عظيم جدّاً، فلا يكتفي المؤمن بالتّوبة، بل يفعل الحسنات ليكفّر

عن سيّئاته. كما قال ﷺ: «**وأتبع السّيئة الحسنة تمحها**»[1]..

ويسعد المجتمع بك إن رجعت عن الخطأ، فإن أنت بقيت على ذنبك شقيت وشقي مجتمعك بك. وكما نهاك الله عن سرقة مال الغير فقد نهى الآخرين عن أخذ مالك، فالمنهج الإلهيّ دائماً هو لإسعاد البشر، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزّمر: من الآية ٥٣]، وقد فتح الله لبني إسرائيل باب التّوبة، فقال ﷻ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولم يقل: (لعلّكم تجحدون).

فبالشّكر استبقاء النّعم بل وزيادة فيها، كما قال ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، وقد قال سيّدنا عيسى عليه السلام لربّه ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنّ الله ﷻ غنيّ عنّ عذاب خلقه، ولكنّه فتح باب التّوبة لكي يشكروا لا ليجحدوا.

(الآية ٥٣) – ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

يذكّر الله شعب بني إسرائيل بمعجزة الكتاب الّذي هو التّوراة، والفرقان هو ما ورد في التّوراة للتّفريق بين الحقّ والباطل، من هنا سمّيت معركة بدر بالفرقان؛ لأنّها فرّقت بين الحقّ والباطل.

فهل كان ردّ بني إسرائيل على كلّ هذه النّعم إيماناً وعبادة وتصديقاً لما جاء به نبيّنا محمّد ﷺ؟ وهم كانوا يعلمون أنّ ما جاء به هو الحقّ، ولكنّهم

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب البرّ والصّلة، باب معاشرة النّاس، الحديث رقم (١٩٨٧).

حادوا عن ذلك الحقّ، وقد ذكر الله ﷻ لهم وصف نبيّه محمّدٍ ﷺ في التّوراة، لكنّهم جحدوا به.

والله ﷻ ينزل الكتب على الرّسل لإصلاح المجتمع وهداية البشريّة وسعادتها في الدّنيا قبل الآخرة، فالمناهج ينزلها الله لإصلاح الدّنيا والسّعادة والنّجاة في الآخرة، وفيها سعادة الإنسان في الدّنيا والآخرة، والدّين لا يطلب إلّا العطاء والخير والسّعادة للنّاس أجمعين.

(الآية ٥٤) – ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾:

وهذه لقطات من القصص القرآنيّ الّذي شغل في القرآن الكريم قسماً كبيراً يزيد على ثلاثة أرباعه. هذه القصص يوردها الله جلّ وعلا لتثبيت قلب النّبيّ ﷺ، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[هود]، ولاستخراج العبر التّاريخيّة والاجتماعيّة والقوانين الاقتصاديّة، وما يتعلّق بحركة الإنسان في الحياة، وتلك هي القصص الحقّ. وبعد أن قصّ علينا القرآن قصّة سيّدنا آدم أبي البشر وزوجه في سورة (البقرة)، ونزول موكب الرّسالات السّماويّة على الأرض، انتقل إلى قصص سيّدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل؛ لأنّهم أكثر الشّعوب جحوداً للنّعم وإفساداً في الأرض وسفكاً للدّماء، ولأنّ أمراضهم دائمة متكرّرة عبر الزّمان.

ومن إعجاز القرآن الكريم أنّه يركّز على شيخ أنبياء بني إسرائيل (موسى عليه السلام) وعلى أمّته؛ لأنّه ستكون هناك قضيّة كبرى في قادم الأيّام لأمّة محمّد صلى الله عليه وسلم مع بني إسرائيل، وهذا ما نراه اليوم من انتهاكات لحرمة المسجد الأقصى واحتلالهم لقلب الأمّة العربيّة (فلسطين).

وهذه مشاهد يقدّمها الله سبحانه وتعالى لنا عن ممارسات بني إسرائيل مع نبيّهم موسى عليه السلام وتبدأ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ظرف زمان، وكلّ حدث يحتاج إلى مكان وزمان يحدث فيه، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ﴾ يعني: واذكروا في وقت كذا حدث كذا... والخطاب لبني إسرائيل الّذين عاصروا تنزيل القرآن الكريم في جزيرة العرب.

ويخاطب الله سبحانه وتعالى الأجيال التّالية كلّها من خلال خطاب الآباء زمن التّنزيل للقرآن، فالعبرة بعموم المعنى وليس بخصوص السّبب، وكلام الله يستوعب الزّمان والمكان والأجناس والإنسان على مختلف انتمائه وفكره، ونحن من خلال هذا التّفسير نخاطب العقل البشريّ مباشرة بالحجّة والبرهان وبالتّفسير العلميّ. فبعد أن أنعم الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل ونجّاهم من عذاب فرعون وأنجاهم من الغرق، طلبوا إلهاً ماديّاً مجسّماً.

والإلحاد في العالم نشأ من التّفكير اليهوديّ، فهم يريدون إلهاً مادّياً محسوساً، يرونه بأعينهم، ويلمسونه بأيديهم، وحين غاب عنهم سيّدنا موسى لتلقّي التّوراة من ربّه وترك فيهم أخاه هارون عليه السلام عبدوا العجل، فقال لهم سيّدنا موسى سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأنّ الإنسان حين لا يعبد الله

لا يظلم الله، بل يظلم نفسه، ذلك أنّ الله ﷻ ليس بحاجة لعبادة البشر، بل يطلب العبادة من البشر كي يعطي البشر؛ لأنّك حين تعبد الله فإنّك لا تعبد غيره، فقمّة الحريّة وكرامة الإنسان تكون بالعبوديّة لله وحده، كي لا يستعبده إنسان، "متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً؟!"، وقمّة الحريّة وكرامة الإنسان أن يكون إيمانه بأنّ الضّارّ والنّافع والمعطي والمانع والمحيي والمميت هو الله ﷻ، وأنّ مالك الملك هو الله ﷻ وليس أحد يساويه من البشر. وقد ألحّ سيّدنا موسى عليه السلام على ربّه بالدّعاء ليقبل منهم التّوبة مع أنّ معصيتهم كانت كبيرة ، مثل معصية إبليس الّذي جادل ربّه قائلاً: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[الأعراف: من الآية ١٢]، أمّا معصية سيّدنا آدم عليه السلام فلم تكن استكباراً؛ لأنّه لم يردّ الأمر على الآمر، بل عصى الله بضعفه ثمّ تاب، فشرع الله ﷻ التّوبة لبني آدم. أمّا بنو إسرائيل فإنّهم عصوا باستكبارهم حين عبدوا العجل الّذي صاغوه من الحليّ، فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُمُ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، والبارئ: يعني الخالق للخلق على غير مثال سبق، وبرا السّهم: يعني دقّق صنعه ونحته وسوّاه، وذلك مثل التّسوية بدقّة: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾[الحجر].

وقد قال موسى لقومه: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾، أي إلى خالقكم. وشرع لهم الكفّارة وهي أن يقتلوا أنفسهم كي تُقبل التّوبة منهم، وذلك بأن يقتل من لم يعبد العجل الّذي عبد العجل، ولم يطلب منهم الانتحار، وهذه

كفّارتهم، فإذا فعلوا ذلك تاب عليهم ولا يُدخلهم النّار، فتاب الله عليهم برحمته وليس بأفعالهم. فالإنسان يدخل الجنّة برحمة الله وليس بعمله، جاء في الحديث: «**لا يدخل أحدكم الجنّة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله منه برحمة وفضل**»[1]، وقد قال ﷻ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾ [النّجم]، فالإنسان يحاسب على عمله، ولو لم يضع الله لنا الجنّة ثواباً للعمل الصّالح فإنّنا لا نستطيع إجباره، فبمجرّد أن جعل الله الجنّة ثواباً للعمل الصّالح فهذا يعني أنّ الدّخول إلى الجنّة لا يكون إلّا برحمته تعالى، صحيح أنّ دخول الجنّة يكون بناء على العمل، لكن من رحمته تعالى أنّه جعل ثواب العمل الجنّة، ومن رحمته شرع لنا التّوبة من المعاصي، والإنسان حين يرتكب معصية لا بدّ من أن يكون هناك تشريع للتّوبة كي يتوب إلى الله ﷻ.

وهكذا أنعم الله ﷻ على بني إسرائيل فشرع لهم التّوبة وحدّد لهم الكفّارة وقَبِل منهم التّوبة، فتاب عليهم، إنّه هو التّواب الرّحيم.

وهذه القصص لم يراعَ فيها التّسلسل الزّمنيّ، وإنّما هي مقاطع ومشاهد يلقي الله ﷻ للأمم والبشر من خلالها الضّوء على ممارساتِ بني إسرائيل وخروجهم عن الإيمان وعن النّعم التي أنعمها الله ﷻ عليهم.

(الآية ٥٥) – ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾:

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: مسند أبي هريرة رضي الله عنه، الحديث رقم (٧٤٧٣).

بعد كلّ تلك المنن والنّعم من الله ﷻ، وبعد أن تاب الله عليهم قالوا لسيّدنا موسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، وهذه هي النّظرة المادّية لبني إسرائيل.

ومن عظمة الله ﷻ أنّه غيب: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]، ولا يكون الإيمان بالمشاهدة الحسّيّة، ولا يسمّى إيماناً ما كان بالأشياء الحسيّة، فنحن لا نؤمن بالموجود المحسوس. فمثلاً لا أقول: أنا أؤمن بوجود هذا القلم الّذي في يدي، فهذه حقيقة، ولكن لو قيل لي: إنّ هناك قلماً خارج هذا المكان، فقد أومن بذلك وإن كان غائباً عن حواسّي إذا لمست وشاهدت كتابات وأنا في طريقي إلى هنا ولمست نتائج معيّنة تدلّ عليه، ولله المثل الأعلى، فهذه الأمثلة لتقريب الفكرة إلى الأذهان. فالإيمان لا يكون بشيء موجود أمامي فهذا شيء موجود بالعلم، أمّا الإيمان فإنّه يكون بما غاب عن حواسّي.

والله ﷻ يقول لنا: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذّاريات]، والآيات الدّالّة عليه كثيرة، ومنها هذه الرّوح التي لا ندركها ولا نراها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء: من الآية ٨٥]، وهناك كثير من الموجودات لا نراها ولا ندركها، وهذا لا يعني أنّها ليست موجودة، ففي الجوّ من حولنا جراثيم كثيرة لا نراها لكنّها موجودة ونلمس آثارها ويمكن رؤيتها بالمجاهر.. وهم يريدون الإله شيئاً مجسّداً أمامهم يرونه بالعين، فطلبوا رؤية الله ﷻ جهرة بشكلٍ واضح ومحسوس، فقال ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ

تَنظُرُونَ﴾، وقد يقول قائل: إنّ سيّدنا موسى عليه السلام أيضاً طلب رؤية الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]، فما الفارق بين طلبه وطلب بني إسرائيل؟ والجواب: هو أنّ موسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، فطلب الرّؤية من الله سبحانه وتعالى، هو يؤمن به، ولم يجعل الرّؤية شرطاً على الإيمان بالله تبارك وتعالى. ولا تمكن رؤية الله سبحانه وتعالى في الدّنيا؛ لأنّ جسد الإنسان وحواسّه لها إدراكات محدودة تحكمها. واستعدادات الجسد في الدّنيا تختلف عن مقاييس رؤيته في الآخرة، وقد قال سبحانه وتعالى في وصف أهل الجنّة: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾[القيامة].

وقد اخترع الإنسان آلاتٍ تريه ما لا تراه العين المجرّدة، فالنّظارات يستخدمها إذا ضعف بصره فيرى من خلالها بشكل جيّد، والله تعالى قادر على كلّ شيء، وكان يستطيع أن يُري وجهه الكريم لسيّدنا موسى، لكنّه أراد سبحانه وتعالى أن يؤدّب موسى عليه السلام فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣].

﴿لَن تَرَىٰنِي﴾: فلا تطلب رؤيتي، ولكن انظر إلى أثري: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾[الأعراف: من الآية ١٤٣]، فلم يستقرّ الجبل، وبمجرّد تجليّات الله على الجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً.

أمّا بنو إسرائيل فقد قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ وسيّدنا موسى عليه السلام لم ينكر الإيمان بالله سبحانه وتعالى عندما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ

﴿إِلَيۡكَۚ﴾[الأعراف: من الآية ١٤٣]، إذ هو يؤمن بوجود الله ﷻ، وبسبب محبّته لله تعالى أراد أن يكرم نفسه، وقد أكرمه الله ﷻ بأن جعله كليماً له، فأراد الرّؤية، وطلب ذلك في تأدّب كبير وكان دقيقاً في طلبه: (أي إن تفضّلت أنت يا ربّ) ولم يقل مثلاً: اجعلني أنظر، فهو يعلم أنّ الرّؤية لا تكون إلّا من الله ﷻ وبكلمة ﴿كُن﴾، لكنّ الأمر قد حسم فلا أحد يرى الله ﷻ في هذه الدّنيا ولا حتّى الأنبياء عليهم السلام.

(الآية ٥٦) – ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦﴾:

أخذت الصّاعقة شعب بني إسرائيل فماتوا، ثمّ بعثهم الله ﷻ من بعد موتهم. أمّا سيّدنا موسى عليه السلام فلم يمت، بل أغمي عليه من شدّة تجليّات الله على الجبل، ثمّ أفاق، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]، وقد تاب من طلب ذلك مرّة أخرى.

وكانت المعجزات الحسّيّة تتكرّر في زمانهم، وكان الله ﷻ يميت أمامهم أناساً ويحييهم كي يثبت لهم البعث بمثالٍ ملموسٍ، ونجد ذلك في أمثلة عديدة مثل قصّة الّذي ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٩]، والأرجح أنّه عُزير، وكذلك سيّدنا عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله، أي بأمر ﴿كُن﴾ الإلهيّة.

وهكذا بعث الله ﷻ شعب بني إسرائيل من بعد موتهم بطلب وإلحاح من سيّدنا موسى عليه السلام الّذي كان يخشى انقطاع نسلهم إذا ماتوا جميعاً.

(الآية ٥٧) – ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

يذكّر الله عَزَّ وَجَلَّ بني إسرائيل بنعمه ومننه وأفضاله عليهم، وقد فضّلهم ليس لأنّهم شعب الله المختار كما يزعمون، بل بكثرة ما ابتلوا وبقدر ما تاب عليهم وبكثرة ما أنزل عليهم من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وقد كانوا مع سيّدنا موسى عليه السّلام في الصّحراء حيث لا ماء ولا نبات، فظلّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم الغمام ليقيهم من حرارة الشّمس القاسية حيث لم يكن لديهم ما يظلّلهم، فجاء الغمام رحمة من الله عَزَّ وَجَلَّ، كما أنزل عليهم المنّ والسّلوى طعاماً يأتيهم من غير جهد منهم.

﴿ٱلْمَنَّ﴾: نوع من الحلوى يشبه النّقط الحمراء تتجمّع عند الفجر على أوراق الشّجر وهو موجود على الأغلب في العراق، ويأتي النّاس في الصّباح الباكر ويفرشون الملاءات البيضاء تحت الشّجر ويهزّون الشّجر فينزل عليها المنّ، وطعمها حلو مثل العسل وهضمها سهل.

أمّا السّلوى: فنوع من الطّيور، يقال إنّها طائر السّمان، كانت تتجمّع أمامهم بكثرة فيأخذونها ويذبحونها ويأكلون لحمها.

وهذا الغذاء من الطيّبات كان يأتيهم بكلمة ﴿كُن﴾ وليس بأمر: افعل، والله تعالى يمنّ علينا غالباً بكلمة افعل: (ازرع، احرث، ابذر...) وهي من عطاء الله أيضاً، أمّا المنّ والسّلوى فقد رزقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إيّاها بكلمة:

﴿كُن﴾، أي ليس مطلوباً منهم أن يفعلوا أيّ شيء للحصول عليها، فيصيبوها دون جهد.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: إنّ من يجحد النّعمة لا يظلم الله، بل يظلم نفسه، أنت تظلم غيرك إن أنت جحدت نعمة قدّمها لك، لكنّك لا تظلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا جحدت نعمه؛ لأنّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يحتاجك، بل أنت الّذي تحتاج الله في الدّنيا وفي الآخرة، والإنسان يعيش في عالم أغيار متبدّل، اليوم هو في صحّة وغداً مريض، اليوم هو في غنى وغداً هو فقير، اليوم هو شابّ وغداً في شيخوخة، حيّ اليوم وغداً ميّت، والنّعمة لا تدوم لإنسان فإمّا أن يتركها أو تتركه، وليس هناك حلّ ثالث، وليس هناك إنسان لازمته النّعمة أبداً.

هل تستطيع أن تبقى شابّاً أو حيّاً أو صحيحاً دائماً؟ لا تستطيع، إذن أنت أغيار لا تستطيع أن تظلم الله مهما جحدت، ولكنّك تظلم نفسك إن عصيت.

(الآية ٥٨) – ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾:

حين رفض شعب بني إسرائيل رزق السّماء من المنّ والسّلوى ولم يعجبهم ما أنعم الله عليهم بل تكبّروا عليها، قال لهم ربّهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾: أي بهناء وراحة.

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾: أي خاضعين لله طائعين شاكرين له تعالى.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾: أي ادعوا الله ﷻ أن يحطّ عنكم خطاياكم بغفرانها لكم.

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الإحسان هو زيادة الفعل من جنس الشّيء، كأن تخرج زكاة مالك وتزيد عليها، فالزّيادة على الزكاة تعدُّ صدقة، والصّدقة تدخل في باب الإحسان، والإحسان بمعناه العامّ كما قال عليه الصّلاة والسّلام هو: أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك. ولم يقل: كأنّه يراك؛ لأنّه يراك فعلاً، أمّا أنت فكأنّك تراه؛ لأنّك لا تراه، مثل أن تكون في حضرة والدك في البيت فتحترم وجوده أمامك؛ لأنّك تراه، أو أن يكون أمامك شخص عظيم له أهميّة وقدر عندك فكيف تتصرّف أمامه؟! ولله المثل الأعلى.

والإحسان هو أن تعبد الله، والعبادة ليست هي فرائض الصّلاة والصّوم والزكاة والحجّ فحسب، بل هي كلّ حركة الإنسان في هذه الحياة.

(الآية ٥٩) – ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾:

أمرهم الله ﷻ بأن يدخلوا الباب سجّداً ويقولوا: حطّة، فمن فعل ذلك غفر الله له، ومن أحسن زاده الله من خيره، والله ﷻ يزيد الإنسان دائماً من الخير إن هو أعطى وأحسن، ويعاقبه إن أساء وأفسد.

وعبادة الله ﷻ على وجه الأرض هي لمصلحة الإنسان، أي

للإصلاح، وهي تشمل كلّ حركة الإنسان في الحياة، أي بأن يعود بكلّ عمل نافع وخيّر على نفسه وأسرته وأقربائه وجيرانه وحيّه ومدينته ووطنه وعلى الإنسانيّة جمعاء، وهذه هي رسالة الأديان.

ويحدّثنا الله ﷻ في هذه الآيات عن شعب بني إسرائيل من خلال توجيه الضّوء على تصرّفاتهم وحركاتهم وسكناتهم، وضبط كلّ ما يتعلّق بعدوانيّة هذا الشّعب الّذي سيكون هو الشّعب الإرهابيّ المجرم، والّذي يحتلّ المسجد الأقصى في قادم الأيّام ويدنّسه. وكان الله يمنّ عليهم وهم يجحدون، وبدلاً من أن يقولوا: حطّة، أي: حُطّ عنّا خطايانا، قالوا: حنطة (قمح)؛ لأنّهم لا يفكّرون إلّا بالطّعام، وبدلاً من أن يدخلوا الباب سجّداً دخلوا بعصيان وبشكل غير الّذي طُلِب منهم، وقيل: إنّهم دخلوا على ظهورهم، وهذا لم يثبت، وكلّ هذه الأحداث جرت معهم وهم في صحراء التّيه.

(الآية ٦٠) – ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾:

﴿وَإِذِ﴾: إذ: ظرف زمان، أي: اذكروا حين.

ويخاطبهم الله تعالى دائماً عن قضيّة الإفساد: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾[المائدة]، والإفساد صفة شعب بني إسرائيل، وكلّ ما نراه منهم

اليوم هو مصداق لوصف الله ﷻ لهم. وكانوا أصيبوا بالقحط ولم يعد عندهم ماء للشّرب ولا للزّرع وغيره. والاستسقاء هو طلب السّقيا، وحين تنفد الأسباب يلجأ الإنسان إلى الله ﷻ عن طريق الاستسقاء.

ورزق السّماء من أجلّ النّعم التي أكرمنا الله تعالى بها، وقد جعل الله ثلاثة أرباع الكرة الأرضيّة مغمورة بالمياه، أي بحار وأنهار كي تتبخّر وتتشكل الغيوم بحرارة الشّمس وتلتقي بالهواء البارد، وتعاود النّزول بعد تقطيرها في طبقات الجوّ. ولو أردنا تقطير كميّة ضئيلة من مياه البحر لكلّفتنا الكثير من المصانع الكبيرة والضّخمة جدّاً.

فلاحظوا هذا الكمّ الهائل من المطر الّذي ينزل على الكرة الأرضيّة، ونحن حين يتأخّر علينا غيث السّماء نتوسّل إلى الله ﷻ برسول الله ﷺ وبآل بيته الأطهار ونطلب السّقيا.

ولقد حاربت الوهّابيّة احتفالات المولد والاستسقاء، وهدمت الآثار الإسلاميّة وأزالتها لتقطع الأمّة عن تاريخها، ومسحت الأضرحة والقبور، وحاربت معظم تعاليم الإسلام الصّحيحة، وجعلت ديناً موازياً للدّين الحقّ، حتّى التّوسّل برسول الله ﷺ جعلته محرّماً، فأنت لا تستطيع الوقوف عند قبر الرّسول ﷺ ولا التّوسّل به، وهم الّذين اخترعوا التّكفير والقتل، وبرّروا بالتّكفيرِ القتلَ، وقطع الرّؤوس. وسيّدنا عمر استسقى بالعبّاس عمّ رسول الله ﷺ حين حدث في عهده جفاف وقحط. فالتّوسّل برسول الله ﷺ وآل بيته هو جزء لا يتجزّأ من إيماننا بهذا الدّين، وقد طلب بنو إسرائيل

السّقيا من موسى عليه السلام فلجأ إلى ربّه وهو كليمه، فأجابه تعالى وأمره أن يضرب بعصاه الحجر، وعادة يأتي الماء بالاستسقاء من السّماء ولا يأتي من الأرض، وهؤلاء جاءهم الماء من الصّخر زيادة في الإعجاز وتجاوباً مع مادّيتهم، ولو نزل عليهم الماء من السّماء لقالوا: إنّما هي غيمة ماطرة، ولكنّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾، وهل يضرب الصّخر بالعصا؟! أم الحجر هو الّذي يضرب العصا؟، وعادةً إذا ضربت الحجر بالعصا تنكسر العصا ولا ينكسر الحجر:

أيا هازئاً من صنوف القدرْ بنفسك هزأت لا بالقدرْ
ويا ضارباً صخرة بالعصا لتوهنها ضربت العصا أم ضربت الصّخر

ولكنّ الله عز وجل أخرج لهم الماء بكلمة: ﴿كُن﴾، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وهم سيّدنا يوسف وإخوته، الّذين تفرّعت عنهم قبائل بني إسرائيل، وسيّدنا موسى عليه السلام من نسل يعقوب وهو (إسرائيل)، وكان سيّدنا موسى قد أُمِر قبل ذلك أن يضرب الماء بالعصا، وليس الفعل للعصا بل الفعل لربّ موسى والعصا.

(الآية ٦١) – ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۚ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾:

إنّ الأذى والإفساد في الأرض والعصيان والاعتداء هي صفات متركّزة متأصّلة في نفوس بني إسرائيل عبر التّاريخ مع كلّ نعم الله عليهم.

وهنا في هذه الآية يرفضون الصّبر على طعام واحد، ويقصدون بالطّعام الواحد المنّ والسّلوى، وهما طعامان: (لحم وحلوى)، وليسا طعاماً واحداً، ولكنّهم اعتبروهما طعاماً واحداً؛ لأنّه يتكرّر كلّ يوم، وطلبوا أن يخرج الله لهم: ﴿مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[البقرة: من الآية ٦١].

والبقل: ليس المقصود به البقول فقط، بل هو كلّ نبات لا ساق له، مثل الخسّ والملفوف والجرجير.

والقثّاء: هو صنف من الخيار.

والفوم: هو القمح أو الثّوم.

والعدس والبصل معروفان.

وهذه الأطعمة كانوا قد اعتادوا عليها حين كانوا مسخّرين عند آل فرعون.

﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾: والباء تدخل على المتروك، فهل تتركون الّذي هو خير وتأخذون الأدنى؟ وليس المقصود أنّ ما طلبوه من بقل وقثّاء وفوم وعدس وبصل (وهو طعام الفقير) أدنى من اللّحم والحلوى (وهو طعام الغنيّ)، فالله لا يفرّق بين غنيّ وفقير في العطاء، بل المقصود هنا هو أنّهم فضّلوا ما يخرج من الأرض على ما كان ينزل عليهم من السّماء بكلمة ﴿كُن﴾، فالمنّ والسّلوى خير؛ لأنّهما من السّماء وجاءا بأمر

الله دون أسباب، ولذلك فهما خير، وهم مادّيون يريدون ما تُخرجه الأرض ممّا يرونه ويلمسونه، وقد خافوا أن ينقطع عنهم هذا الخير، وطلبوا أن يزرعوا بأنفسهم ويحصدوا ويأكلوا وهذا إمعان في المادّية، وقد قال لهم:

﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾: وقد وردت كلمة (مصر) في القرآن الكريم أربع مرّات ممنوعة من الصّرف، والمقصود بها بلاد مصر أي وادي النّيل، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزّخرف: من الآية ٥١]، وفي سورة (يوسف): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: من الآية ٢١]، وقال جلّ وعلا: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [يوسف: من الآية ٩٩]، فإذا جاءت (مصر) ممنوعة من التّنوين فهي بلاد مصر المعروفة وهي وادي النّيل، وإذا جاءت منوّنة فهي أيّ بلاد فيها أناس وحاكم وزرع.. وغيرها، لا على التّعيين، أي اهبطوا مصراً من الأمصار.

﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾: كلّ هذه الأسباب أدّت إلى أن ضربت عليهم الذّلة والمسكنة، ولُعنوا من الله تعالى، وكلمة ﴿وَضُرِبَتۡ﴾ توحي بأنّها سكّت سكّاً كالختم؛ لأنّهم استبدلوا الّذي هو أدنى بالّذي هو خير؛ ولأنّهم جحدوا نعم الله عليهم وعبدوا العجل؛ ولأنّهم رفضوا أن يؤمنوا حتّى يروا الله جهرة... وكلّ هذه الأسباب أدّت إلى ضرب الذّلة والمسكنة عليهم.

و﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: هي الانكسار والحاجة الدّائمة للآخرين، كما نرى

الصّهاينة اليوم يلهثون وراء أمريكا وغيرها هنا وهناك.

والمتأمّل في الآيات السّابقة التي تحدّثت عن بني إسرائيل يأخذ فكرة عن شعب بني إسرائيل عبر الأزمنة المتطاولة، وعن العوامل التي أدّت بهم إلى هذه النّتائج، مثل الماديّة والجحود لنعم الله، وقتلهم الأنبياء، وعدم الرّضا بقضاء الله، والنّظر دائماً إلى المحسوس والملموس...

(الآية ٦٢) – ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

أي كلّ الرّسالات التي جاءت قبل الإسلام، وكلّ من آمن بالله وأتبع إيمانه بالعمل الصّالح. والإيمان دائماً مرتبط بالعمل الصّالح؛ لأنّ الإيمان هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل، وليس مجرّد كلمة تُقال، بل لا بدّ من أن يتبعها العمل الصّالح.

وكلّما جاءت كلمة الإيمان في القرآن الكريم أتبعت بالعمل الصّالح، في مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر]، والمؤمن دائماً مصدر للخير.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: لقول فريق من بني إسرائيل: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٥٦]، أي تُبنا ورجعنا إليك.

فهم الّذين تابوا ومشوا مع سيّدنا موسى عليه السلام.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: وسبب تسميتهم بذلك:

- أنّهم الّذين اتّبعوا سيّدنا المسيح عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾[آل عمران].

- أو لأنّهم من النّاصرة.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: الصّابئون: كانوا في الجاهليّة يقولون لمن أسلم في شبه الجزيرة العربيّة في بداية الدّعوة إلى الإسلام: صَبَأَ، أي خرج عن معتقد الآباء، ورفض أن يعبد الأصنام، وهم الّذين رفضوا أن يعبدوا الأوثان.

فكلّ الّذين آمنوا بالله سبحانه وتعالى واتّبعوا الرّسالات السّابقة يشملهم قوله تعالى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾.

(الآية ٦٣) - ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣﴾:

حين نزلت التّوراة وأعطى الله سيّدنا موسى عليه السلام المنهج اختار موسى مِن قومه سبعين رجلاً وأخذ عليهم العهد، لكنّهم نكثوا العهد فزعزع الله الجبل ورفع فوقهم جبل الطّور وهدّدهم بأن يطبقه عليهم أو يؤمنوا، فخافوا وعادوا وسجدوا وعيونهم على جبل الطّور خوفاً من أن يقع عليهم، وحتّى الآن نجد أنّ اليهود حين يسجدون يزيحون جزءاً من وجوههم وينظرون جانباً، وهذه الحركة مأخوذة من سجودهم وهم يخشون أن يقع عليهم جبل

الطّور، وهم لا يعرفون أنّ أصل ذلك هو هذه القصّة.

وعلى الإنسان أن يُقبل على طاعة الله بقوّة، دون تهرّب وتردّد بين إقبال وإدبار كما فعل بنو إسرائيل، وكان رسول الله عليه الصّلاة والسّلام يقول: «**يا بلال، أقم الصّلاة، أرحنا بها**»[1]؛ لأنّ المؤمن يرتاح في طاعة الله تبارك وتعالى ويُقبل عليها بكليّته؛ لأنّ حبّ التّكليف والأنس بالعبادة يؤدّي إلى التّقوى، ويزرع الخير في المجتمعات، ويؤدّي إلى كلّ خير، والتّقوى هي جوامع كلّ خير، فمثلاً أنت كمؤمن تأنس بالصّلاة، وتتمنّى زرع الخير والحبّ في كلّ مكان.. وهذا شأن المؤمنين الّذين عشقوا التّكليف، أمّا بنو إسرائيل فقد جحدوا، ومع كلّ العطاءات التي جاءتهم من الله ﷻ تولّوا واستكبروا.

(الآية ٦٤) – ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الفضل: هو الزّيادة، أي ما زاد على العدل، كما قال تعالى عن الشّهداء الأبرار –وهذه بشرى من الله ﷻ–: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران]، فرحين بفضله وليس بعدله، والفضل فوق العدل، فالعدل أن تأخذ بقدر ما فعلت، أمّا الفضل فهو أن تأخذ أكثر ممّا فعلت.

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، الحديث رقم (٤٩٨٥).

(الآية ٦٥) – ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾:

يخاطب الله تبارك وتعالى بهذا القول اليهود الّذين كانوا في جزيرة العرب في المدينة المنوّرة وقت التّنزيل.

وقد ذُكر في القرآن الكريم يومان فقط من أيّام الأسبوع، وهما الجمعة والسّبت. وذُكر اسم الجمعة في سورة (الجمعة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: من الآية ٩]، والسّبت ذُكر هنا وفي سورة (الأعراف). وأيّام الأسبوع سبعة تبدأ بالأحد، الإثنين، الثّلاثاء، الأربعاء، الخميس، وسُديس هو يوم الجمعة، وسُبيع هو يوم السّبت، فالجمعة والسّبت أسماء لا تتعلّق بالعدّ، بل اختلفت عن سابقاتها.

وكان تمام الخلق في ستّة أيّام، وجمعهم يوم الجمعة، فسمّي بالجمعة وثبت واستقرّ أمر الخلق في يوم السّبت، وهو يعني السّبات، وجعله عند اليهود يوم عيد وراحة لا يجوز العمل فيه، وأراد الله تعالى أن يبتليهم ليختبر إيمانهم وطاعتهم، وكانوا يعيشون قرب البحر، ويعتمدون على الصّيد، فجعل الله تعالى السّمك والحيتان تكثر يوم السّبت، ولا يجوز لهم أن يعملوا يوم السّبت، فكانوا يحتالون فيضعون أقفاصاً (يرمون شباك الصّيد) يوم السّبت يتجمّع فيها السّمك، ويأخذونها يوم الأحد. والله تبارك وتعالى لا يُخدَع بمثل هذا، وقد وردت هذه القصّة في سورة (الأعراف) في قوله ﷻ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف]، وهم اعتدوا على أوامر الله تبارك وتعالى فقال لهم جلّ وعلا: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

والإنسان لا يمسخ قرداً بإرادته بل هي كلمة ﴿كُن﴾ الإلهيّة، وبكلمة ﴿كُونُوا﴾ تحوّل كلّ من خالف وعمل يوم السّبت منهم وعصى الله ﷻ إلى قردة وخنازير، أي مُسخوا وانقرضوا.. ولم يشمل هذا الأمر الجميع، بل أصاب الّذين عصوا واعتدوا فقط. وهذه القصّة مشهورة عندهم يعرفها كلّ بني إسرائيل، يرويها الآباء منهم للأبناء، ولهذا قال لهم تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، وقال بعض المفسّرين: مُسِخوا خَلقاً وخُلُقاً، فصارت أخلاقهم مثل أخلاق القردة والخنازير، وجاء في آية أخرى قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: من الآية ٦٠]؛ لكثرة ما جحدوا وعصوا، فهذه العقوبة كانت حصيلة لكلّ ما فعلوه من قبل.

(الآية ٦٦) – ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿نَكَالًا﴾ النّكال: هو العقوبة الشّديدة، وهذه العقوبة كانت أشدّ العقوبات؛ لأنّها جاءت بعد كلّ ما شاهدناه من معاصيهم، وبعد كلّ المراحل التي مرّ بها بنو إسرائيل، كانت هذه العقوبة حصيلة كلّ ما فعلوه من عصيان، وموعظة لكلّ المتّقين. والنّكول: هو الرّجوع، أي كي ترجع عن تلك الجريمة ولا تعود إليها مرّة أخرى.

ولا عقوبة إلّا بتجريم، ولا تجريم إلّا بنصّ، وهذا مبدأ قانونيّ، أي لا بدّ من وجود نصّ ينصّ على أنّ من فعل جريمة كذا فعقوبته كذا، والقرآن الكريم وضع العقوبات ليمنع وقوع الجريمة، وليس من أجل العقوبة، أي حين وضع حدّ القطع ليد السّارق فمن أجل الرّدع والمنع، وليس من أجل القطع.

والّذين يحاولون تشويه الإسلام وأحكامه يستغلّون هذه المبادئ، ويشكّكون في قضيّة العقوبات في الإسلام، وهي في حقيقتها رادعة لمنع وقوع الجرائم.

﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا﴾: أي حين يرونها في وقت وقوعها، **أي**: تحويلهم خلقاً وخلُقاً إلى قردة وخنازير فهم رأوا تلك العقوبة.

﴿وَمَا خَلۡفَهَا﴾: أي لما بعدها.

وحتّى في زمن النّبيّ ﷺ كان هناك اليهود الّذين اعتدوا ومكروا وتآمروا مع المشركين على رسول الله ﷺ والمسلمين.

﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾: فهي موعظة لكلّ المتّقين عبر كلّ زمان ومكان، وأهل كلّ الأديان.

وليست العبرة بخصوص السّبب بل بعموم المعنى.

(الآية ٦٧) – ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾:

سمّيت سورة (البقرة) بهذا الاسم لورود قصّة البقرة فيها، وهي قصّة

حدثت في بني إسرائيل زمن سيّدنا موسى عليه السلام، لتثبيت قضيّة هامّة من قضايا الإيمان وهي البعث.

والإيمان بالبعث هو أهمّ شرط من شروط الإيمان بعد الإيمان بالله، وأهمّ عنصر من عناصره، أن تؤمن باليوم الآخر وبالبعث بعد الموت، وكلّ النّاس يرون الموت لكنّهم لا يرون البعث، فهو غيب مستور مثله مثل كلّ عناصر الإيمان، من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشرّه. والرّسل قد يراهم أهل زمانهم، لكنّهم لم يُرَوا والوحي يتنزّل عليهم، ونحن نرى الكتب السّماويّة بين أيدينا، ولكننا لم نرها وهي تتنزّل، فالإيمان بالنّبوّات وبالكتب السّماويّة غيب أيضاً.

والإيمان قضيّة اعتقاديّة بالمغيَّب عن الإنسان ومحلّه القلب. وهناك قصص أخرى في القرآن تؤكّد قضيّة البعث للنّاس مثل قصّة الّذي: ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٩]، وكان سيّدنا عيسى عليه السلام (وقد بعث في بني إسرائيل) يحيي الموتى بإذن الله. وهذه القضيّة تتعلّق بالبعث بعد الموت، وقد أراهم الله سبحانه وتعالى كيف يحيي الموتى ليؤمنوا بالبعث.

وهناك فارق كبير بين القصص البشريّ والقصص القرآنيّ، ففي القصّة البشريّة نورد الأحداث كما جرت، أمّا القصّة القرآنيّة فتعطينا لقطات معيّنة لمقصد معيّن بهدف التّربية الإيمانيّة. فالقصص القرآنيّ هو أحسن القصص، وهو ليس للتّسلية، بل للتّربية، وله هدف وظيفيّ إيمانيّ، وليخدم قضيّة

إيمانيّة هامّة. ولو كان كاتب القصّة بشراً فلا يمكن أن يبدأ من منتصفها كما جاء في هذه القصّة، وكذا أيَّة قصة فيها عناصر من أحداث وشخصيّات وزمان ومكان. ولا يريد الله أن نتعلّق بالأحداث ولا بالشّخصيّات، لذلك هو يُبْهم الشّخصيّات، فيقول مثلاً: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ [الأعراف: من الآية ١٢٣]، وهذا لقب ملوكهم ولا ندري من هو فرعون؟ هل هو تحوتمس أم رمسيس أم غيرهما ؟؟ لا ندري؛ لأنّ فرعون ليس هو المقصود لشخصه؛ ولأنّ الله تعالى لا يريد أن نتعلّق بالقصّة ولا بالشّخصيّات بل بالعبر، وهذه القصّة القرآنيّة تخدم قضيّة إيمانيّة تتعلّق بالبعث، وتتعلّق بممارسات شعب بني إسرائيل؛ لأنّ البشريّة في كلّ أزمنتها القادمة بعد نزول القرآن الكريم ستعاني الكثير من هذا الشّعب، وها نحن اليوم نرى كيف تآمروا على الأمّة العربيّة والإسلاميّة، ومزّقوها دويلات، واحتلّوا المسجد الأقصى، واعتدوا وفعلوا الكثير من الإيذاء للمسلمين.

وهنا قال سيّدنا موسى عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾.

والقوم: يقصد بهم الرّجال؛ لأنّ الله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾ [الحجرات: من الآية ١١]، وحين قال قوم موسى له: أتتّخذنا هزواً؟ استعاذ بالله أن يهزأ بهم؛ لأنّه نبيّ مكلّف من قبل الله، وهو الّذي أمره بأن يبلّغهم هذا الأمر، ولا يمكن أن يكون هازئاً بهم.

وحين يأتي الأمر من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر، وإذا جاء من متساويين فهو التماس، أمّا إذا جاء من الأدنى إلى الأعلى فهو دعاء ورجاء.. وقد أمرهم الله ﷻ بأمرٍ على لسان نبيّهم موسى عليه السلام، فحاول بنو إسرائيل أن يتهرّبوا من تنفيذ هذا الأمر فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فهو نبيّ لا يمكن أن يهزأ بهم، والله تعالى هو الّذي أمره بأن يبلّغهم إيّاه فهو أمرٌ إلهيّ، وهم يعلمون أنّه نبيّ، وقد عاشوا معه عمراً ومرّوا معه بمراحل كثيرة، ورأوا منه المعجزات الكثيرة، عندما ضرب بعصاه البحر.. وعندما اخترقوا معه البحر، وعندما أنزل عليهم المنّ والسّلوى.. وعندما رأوا كلّ الآيات البيّنات المعجزات الواضحات... وهذه صورة شعب بني إسرائيل ومماطلاتهم في مفاوضاتهم مع العرب، وكلّ مواصفاتهم نجدها قد وثّقتها هذه الآيات.

وهكذا في قضيّة البقرة، أرادوا أن يتملّصوا من هذا الأمر فأخذوا يماطلون ويسألون عن مواصفات البقرة، ولو جاؤوا بأيّة بقرة وذبحوها لأجزأتهم، لكنّهم شدّدوا فشدّد الله عليهم، فزادت الشّروط بازدياد أسئلتهم.

(الآية ٦٨) – ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿لَا فَارِضٌ﴾: غير مسنّة.

﴿وَلَا بِكْرٌ﴾: والبكر هي الصّغيرة.

﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾: وسط بين ذلك.

وكان من الممكن أن يجدوها ويذبحوها وينتهي الأمر، لكنّهم عادوا فقالوا:

(الآية ٦٩) – ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩﴾:

لم يلزمهم الله ﷻ بلون معيّن لها في بادئ الأمر، لكنّهم يشدّدون على أنفسهم، فأعطاهم مقاييس معيّنة لبقرة معيّنة.

﴿فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾: صفرة شديدة، ولو وجدوها وذبحوها لانتهى الأمر، لكنّهم عادوا فقالوا:

(الآية ٧٠) – ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾:

والله ﷻ يعطينا لمحات عن طباع بني إسرائيل الّذين شدّدوا في المماطلة، فأعطاهم الله مواصفات لم تكن لتنطبق إلّا على بقرةٍ واحدة.

(الآية ٧١) – ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾:

﴿لَّا ذَلُولٞ﴾: غير مروّضة، وغير ممرّنة، لا تستخدم في الحرث ولا في السّقاية ولا في الزّراعة، وليس فيها أيّ عيب أو نقص، حسنة المظهر، ليس فيها عضو ناقص، فأعطاهم الله ﷻ مواصفات لا يمكن أن يجدوها بسهولة، وقد لا تجتمع إلّا في بقرةٍ واحدة في المنطقة كلّها، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

وقد جاءهم بالحقّ من المرّة الأولى وهم يعلمون أنّه نبيّ يأتيهم بالحقّ من عند الله ﷻ. وكلّما سألوا ازدادت الشّروط، وصار من الصّعب إيجادها، وأخيراً وجدوها ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾: يعني في حالةٍ من التّردّد، وهذا طبع شعب بني إسرائيل، يفاوضون ويريدون ولا يريدون، يوقّعون على اتّفاقيّة أو لا يوقّعون، وهذا حالهم حتّى يومنا هذا، والمراوغة طبع لهم، وهذا الوصف يدلّ على دقّة التّعبير القرآنيّ في وصف طباع بني إسرائيل.

(الآية ٧٢) – ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

كان في بني إسرائيل رجل غنيّ ليس له أولاد يرثونه، وله ابن أخ، فجاء في اللّيل وقتله من أجل المال من غير أن يراه أحد، وحمل جثّته إلى قرية أخرى، ووضعها أمام بيت من بيوت القرية الثّانية، ليلصق تهمة قتله بأصحاب البيت، أو بأهل القرية جميعاً، فيدفعوا ديّته بحسب العرف السّائد في ذلك الوقت، أو يأتي أربعون رجلاً منهم فيحلفون بأنّهم لم يقتلوه، فنفى أهل القرية الأمر، وصار كلّ طرف ينفي التّهمة عن نفسه: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ﴾ وكبر الخلاف بين القريتين فلجؤوا إلى سيّدنا موسى كي يسأل ربّه عن القاتل، فقال لهم: بأن يذبحوا بقرة.

وهناك قصّة إيمانيّة أخرى، وهي أنّ رجلاً صالحاً من بني إسرائيل كان يملك بقرة صغيرة، وليس له إلّا ولد صغير، وزوجته ضعيفة، وأراد أن يترك هذه البقرة لولده، فقالت له زوجه: كيف يرعاها ويعتني بها وهو ما يزال

صغيراً؟ فقال لها: سأتوكّل على الله وأستودعها عنده وأتركها، وحين يكبر ابني قولي له: بأن يتوكّل على الله ويستردّها. وهكذا أطلق البقرة في المراعي متوكّلاً على الله، فلمّا كبر الولد بعد عشرين سنة قالت له أمّه: حان الوقت كي تسترجع البقرة التي تركها لك أبوك، قال: وكيف أسترجعها، وأين أجدها؟! قالت: أبوك توكّل على الله واستودعها عنده، وأنت توكّل على الله واسترجعها. فقال: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ردّ إليّ ما استودعه أبي، فهداه الله إليها، وكانت لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك صفراء فاقع لونها، تنطبق عليها المواصفات التي ذكرها الله تعالى لبني إسرائيل، وذلك ببركة صلاح والده، فصلاح الآباء يسري إلى الأبناء وينتفعون به، فاشتراها القوم منه بقدر وزنها ذهباً؛ لأنّ حاجتهم إليها شديدة، وليس هناك بقرة أخرى بهذه المواصفات.

(الآية ٧٣) – ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣﴾:

أمر الله ﷻ بضرب الميّت القتيل ببعض أعضاء البقرة التي ذبحت.

ويريد الله أن يربّينا من خلال القصّة ولا يريد أن يسلّينا.

وحين ضربوا الميّت بالبقرة الميّتة قام القتيل وقال: إنّ ابن أخيه هو من قتله، وعاد ومات ثانية، ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: يريكم أموراً خارقة لعلّكم تعقلون، فالقرآن الكريم يخاطب العقل.

وديننا دين العقل والعلم، وهذا تفسير علميّ، والله تعالى لم يطلب منّا

إيماناً إجباريّاً، بل يأخذ بعقولنا بالدّليل والبرهان.

(الآية ٧٤) – ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

لقد رأوا كيف أحيا الله الميّت أمامهم، ووقف سيّدنا موسى عليه السلام أمامهم وقال: ميّت يحيي ميّتاً، ومع ذلك قست قلوبهم، وقد قال: ﴿قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ ولم يقل: قست نفوسكم؛ لأنّ القلب موضع الشّعور والرّأفة والإيمان والرّحمة، وهو منبع السّلوك ومصبّ الإيمان، جاء في الحديث: «**ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**»[1]. قست قلوب بني إسرائيل بعد كلّ ما رأوه من آيات الله سبحانه وتعالى، مثل: المنّ والسّلوى، فَرْق البحر، إنجاؤهم من فرعون وآله، إحياء الميّت أمامهم في قضيّة البقرة.. لكن قلوبهم عادت جلفاً قاسية، معادية للحقّ والقيم والأخلاق والأنبياء عبر كلّ زمان، فهي كالحجارة، ونرى الحجارة ونعرف أنّها صلبة وقاسية، وفرق بين القلب والحجارة، فالقلب عضلة ليّنة، أمّا الحجارة فهي مادّة صلبة وقاسية، ومع ذلك: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾، كذلك يذكّرهم بحادثة انفجار الماء من الحجر حين ضرب سيّدنا موسى عليه السلام بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، الحديث رقم (٥٢).

إنّ القرآن الكريم لم يسلّط الضّوء ويرصد قلوب وتفكير وحركات وسكنات شعب من الشّعوب إلّا شعب بني إسرائيل، ويقول لهم الله ﷻ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾، فمن يخاطب بهذا الخطاب؟ والّذين قست قلوبهم ماتوا من أيّام سيّدنا موسى عليه السلام، واليهود الّذين كانوا في المدينة المنوّرة زمن تنزيل القرآن الكريم ليسوا هم الّذين قست قلوبهم، واليهود الّذين يحتلّون فلسطين الآن وتعاني البشريّة من جرائمهم وعدوانهم وتآمرهم ومكرهم بالعرب والمسلمين لم يكونوا في زمن موسى عليه السلام، لكنّ الله تعالى حين يخاطب فإنّه يخاطب بعلمه، وهو يعلم أنّ هذا الخطاب، وإن كان موجّهاً إلى الّذين كانوا في زمن موسى، فإنّه يخاطب به المعاصرين لتنزيل القرآن الكريم، ويتوجّه به إلى بني إسرائيل عموماً إلى أن تقوم السّاعة، فخطاب الله تعالى خطاب عامّ، وهذا هو الخطاب القرآنيّ، وحين يقول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النّساء: من الآية ٩٦]، لا يعني أنّه لم يعد غفوراً رحيماً الآن، مع أنّ (كان) فعل ماض ناقص؛ لأنّ الله تعالى لا يخضع للزّمان ولا للمكان، وهو الّذي خلق الزّمان والمكان، والله عزّ وجلّ كان ولا يزال وسيبقى غفوراً رحيماً، لا تنطبق عليه معايير الزّمن التي نعرفها، ولا تنطبق مقاييس ومعايير الكلام البشريّ على كلام الله تعالى، فعندما يكون الله تعالى هو القائل فإنّ الأمر يختلف، وفضل كلام الله على كلام النّاس كفضل الله على النّاس، فأنت لست كمثل الله، فأنت حيّ والله تعالى حيّ، لكنّ الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشّورى: من الآية ١١].

وهنا في هذه الآيات يتحدّث الله ﷻ عن بني إسرائيل، فقلوبهم صارت أشدّ قسوة من الحجارة؛ لأنّ الحجارة منها التي يتفجّر منها الأنهار، ومنها ما يشقّق فيخرج منها الماء، وهذا قد يبدو تكراراً، ولكنّه ليس تكراراً، والفارق بين الوصفين هو أنّ قوله ﷻ: ﴿يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: يعني أنّ النّهر يأتي إليك، أمّا قوله جلّ وعلا: ﴿يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾: فيعني أنّك أنت الّذي تأتي إلى الماء. فالأوّل نهر والثّاني نبع، وهذا من دقّة التّعبير القرآنيّ.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: كما حدث مع موسى عليه السلام حين: ﴿تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٣]، وهكذا هبطت الحجارة من خشية الله، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[الحشر: من الآية ٢١]، فالجبل مكوّن من حجارة قاسية لكنّها تهبط من خشية الله ﷻ.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٧٤﴾: الله ﷻ يرى أعمال البشر لكنّه سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، وكلّ شيء عنده بمقدار، ونحن حين نرى القاتل والمجرم والظّالم والسّارق من النّاس نستعجل له العقوبة؛ لأنّ موازيننا تخضع للزّمن ونرى أنّ الزّمن قد طال، أمّا الله ﷻ فلا يخضع لمقاييس الزّمن فهو الّذي خلق الزّمن، وهو تعالى القائل : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾[الإسراء: من الآية ١١]، فالإنسان عجول؛ لأنّه يخضع لعوامل الزّمن، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[الزّلزلة]، فهو ليس بغافل عمّا يعمل النّاس ولا يهمل شيئاً.

(الآية ٧٥) – ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

هذا الخطاب للنّبيّ عليه الصّلاة والسّلام وللمسلمين الّذين كانوا في المدينة المنوّرة وقت تنزّل هذه الآيات.

والطّمع: هو رغبة النّفس في شيء ليس من حقّها، وطمع المؤمنين بإيمان هؤلاء اليهود المجرمين ليس من حقّهم؛ لأنّ الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: من الآية ٥٦]، فأنت لست مكلّفاً بحمل النّاس على الهداية، أنت مكلّف بالبيان فقط: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية]، وكلّ الحركات الإجراميّة والإرهابيّة التي تقوم على إكراه النّاس على الإيمان قسراً هي حركات باطلة لا علاقة لها بصحيح الدّين، وأبداً لا يمكن أن يكون الإسلام بالإكراه، وليس ذلك من حقّ أحد؛ لأنّه لا إكراه في الدّين، لذلك ليس من حقّ أحد أن يكره غيره على الإيمان، وإنّما عليك أن تبلّغ رسالة الإيمان والإسلام، ويقول تعالى مخاطباً رسول الله ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: من الآية ٩٩]. ويقول عن بني إسرائيل: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فانظر إلى عظمة الإسلام، وحسب مبدأ (صيانة الاحتمال): وهو أن لا نعمّم أمراً على الجميع، وأكثر أخطاءنا بسبب التّعميم، كأن يصعد الخطيب المنبر ويقول: لقد فسق النّاس، والنّاس كلّهم كاذبون، ويعمّم الحكم على جميع النّاس.

والله ﷻ ينصف حتّى شعب بني إسرائيل فيقول: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي ليس كلّهم، والمطلوب من المسلم أن يعقل كلام الله تعالى، أن يستخدم العقل فيما يتعلّق بكلام الله تعالى، وديننا دين العلم بدأ بكلمة: (اقرأ)، والإسلام دين العلم: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمّد: من الآية ١٩]، ونحن من علّم النّاس العلم، ونحن من خرج العلم من عندنا، ولا يجوز أن نقبل بوصم ديننا بالجهل، وديننا في كلّ آية منه يحثّنا على التّدبّر والتّفكّر والتّعلّم.

والّذين حرّفوه كانوا يعلمون أنّه حقّ من عند الله ﷻ، قرؤوه وحاكموه بالعقل والمنطق فوجدوا أنّه صحيح ثمّ حرّفوه وهم يعلمون.

(الآية ٧٦) – ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

غدت اليد العليا والكلمة للمسلمين في المدينة المنوّرة في زمن النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، فكان اليهود إذا لقوا الّذين آمنوا يقولون: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تخبروهم بما جاء في التّوراة كي لا يحاجّوكم به عند ربّكم، والحجّة دائماً وأبداً لديننا.

وفي التّوراة أوصاف النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام كما قال عبد الله بن

سلام: (كان من أحبار اليهود وأسلم)[1]: "إنّي لأجد أوصاف محمّد عليه الصّلاة والسّلام في التّوراة حتّى كأنّي أعرفه". وهم يحرّفون من التّوراة ما يتعلّق بذكر صفة رسول الله ﷺ، وكان فريق من اليهود يوصي بعضهم بعضاً بأن لا يحدّثوا أحداً من المسلمين بما جاء في كتابهم من ذكر أوصاف النّبيّ ﷺ كي لا نحاججهم بها. ويردّ الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله:

(الآية ٧٧) – ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧﴾:

الله سبحانه وتعالى يعلم السّرّ وأخفى، والسّرّ: ما كان بين اثنين، فإذا تجاوز الاثنين ذاع وانتشر، وأخفى من السّرّ ما هو في نفسك ولا يعلمه إلّا الله.

(الآية ٧٨) – ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾:

هنا أيضاً في هذه الآية مبدأ (صيانة الاحتمال) وعدم التّعميم فيقول تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾، أي ليس كلّهم.

الأمّيّ منسوب لأمّه، أي كما ولدته أمّه لم يأخذ من محيطه ومجتمعه أيّ علم.

---

(١) عن أنس بن مالك: أنّ عبد الله بن سلام جاء إلى رسول الله ﷺ مقدمه المدينة فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمها إلّا نبيّ، ما أوّل أشراط السّاعة، وأوّل ما يأكل أهل الجنّة، والولد ينزع إلى أبيه وإلى أمّه، قال: «**أخبرني بهنّ جبريل آنفاً**»، قال عبد الله بن سلام: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، قال: «**أمّا أوّل أشراط السّاعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كبد حوت، وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرّجل نزع وإن سبق ماء المرأة نزعته**»، قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله.

والأمّية عند البشر العاديّين صفة نقص، أمّا الأمّية عند النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام فهي قمّة الكمال.

والفرق بين أمّية البشر وأمّية النّبيّ كالفرق ما بين النّقص والكمال، والنّاقص هو الّذي لم يتعلّم، والتّامّ هو رسول الله ﷺ؛ لأنّ الله تعالى هو الّذي علّمه، ولم يشأ الله لنبيّه أن يعلّمه أحد من البشر؛ لأنّه سينزل عليه هذا القرآن الكريم الّذي سيتحدّى به البشر، ولذلك اختصّ الله ﷻ بعلم نبيّه، قال ﷻ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النّساء: من الآية ١١٣]. فالله يعلّمه ليكون معلّماً لكلّ البشر ولكلّ المعلّمين. وعِلْمه ﷺ ليس من بيئته ولا من محيطه، كي لا يُقال: إنّ بشراً علّمه القرآن: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾[الفرقان]، كما قالوا في بدء دعوته.

وهؤلاء هم الأمّيون من بني إسرائيل: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ والأمنية هي الشّيء الّذي يحبّ الإنسان أن يحدث لكنّه لا يملك تحقّقه، كما قال الشّاعر:

ألا ليت الشّباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

وعودة الشّباب مستحيلة لن تتحقّق فهي أمنية، ويمكن للأمنية أن تتحقّق وألّا تتحقّق.

ومن اليهود علماء وأحبار يعلمون ما ورد في التّوراة، ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتاب إلّا بالأماني، يتمنّون أن يعلموا التّوراة لكنّهم لا يعلمونها، إنّما يسيرون على الظّنّ فقط، ويأخذون علوم دينهم من أحبارهم، ويتمنّون

أن يعرفوا الكتاب، والأحبار هم الّذين كانوا يكتبون التّوراة. وهناك فريق من الأمّيّين يتمنّون معرفة الكتاب، وهم يظنّون أنّ النّبيّ محمّداً ﷺ قد ورد ذكره في التّوراة، والظّنّ فيه نسبة راجحة قريبة من المؤكّد لكنّها لا تصل إلى درجة العلم.

(الآية ٧٩) – ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

لماذا قال الله ﷻ هنا كلمة: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾، وهل تكون الكتابة إلّا بالأيدي؟!! المقصود أنّ علماء بني إسرائيل وأحبارهم يكتبون بأيديهم بالذّات، ولا يكلّفون أحداً بذلك لحرصهم على تحريف التّوراة، وهذا القول هو من عند الله ﷻ ولا يمكن إلّا أن يكون وصفاً لما يجري تماماً.

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾: الويل: حلول الشّرّ، وهي كلمة للدّعاء بالهلاك والعذاب، فلهم ويلان وعذابان؛ لأنّهم افتروا الكذب على الله، وعلّموا النّاس الافتراء.

وهناك مسؤوليّة خطيرة وعذاب مضاعف وعقوبة شديدة للذين يحملون العلوم الدّينيّة إلى النّاس ويحرّفون معاني هذه العلوم وفق أهوائهم. كما يفعل من يجعلون الإسلام إرهاباً وقتلاً ويجتزؤون من الآيات ويؤوّلونها بما يوافق أهواءهم وأغراضهم الشّخصيّة، ويخرجون الآيات عن سياقها في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾[التّوبة: من الآية ٣٦].

فهؤلاء ويل لهم؛ لأنّهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً والثّمن لا يشترى، الثّمن يباع لكنّ الله استخدم هذا التّعبير لينكّل بهم، ولو دفعت المليارات من مال الأرض مقابل تحريف كلام الله تعالى فهي ثمن قليل، فويل لهم ممّا يكسبون، فالكسب الّذي يعتقدون أنّه كسب سيكون وبالاً عليهم.

(الآية ٨٠) – ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

كلّ معدود قليل، فالكثير لا يحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٤]، وقال تعالى عن القليل المعدود: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: من الآية ٢٠]، فهذا ثمن قليل، وهؤلاء من بني إسرائيل يقصدون أيّاماً قليلة من عذاب قليل هي حسابهم يوم القيامة.

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾؛ لأنّ الله تعالى لا يخلف العهد والميعاد. ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(الآية ٨١) – ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾:

كلمة بلى لا تعني نعم، بل تعني عكس ما تقولون.

والإحاطة: هي ما يحيط بالشّيء من كلّ جانب، فمن يفتري على الله الكذب، ويكتب الكلام بيده، ويقول: إنّه من عند الله، والّذي يقول في القرآن ما ليس من القرآن.. هؤلاء معصيتهم كبيرة.

ولا يكون الخلود في النّار بسبب المعاصي الصّغيرة، لذلك قال رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: «**من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوّأ مقعده من النّار**»[1]؛ لأنّ هذه معصية في القمّة.

﴿بَلَىٰٓ﴾: يعني أنتم مخطئون، والخلود في النّار لا يكون بسبب الصّغائر من الذّنوب، بل يكون بسبب معصية من الكبائر؛ لأنّهم يحرّفون كلام الله، ولا بدّ من أن تكون هناك عقوبة على الجرائم التي يرتكبها النّاس، وإلّا تفلّتت أمور الحياة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: ويستخدم القرآن كلمة أصحاب؛ لأنّ الإنسان هو الّذي يختار أصحابه، وهؤلاء هم الّذين أوصلوا أنفسهم إلى هذا المصير، أي أنّهم هم الّذين اختاروا النّار، ولم يجبرهم الله على هذا الاختيار.

(الآية ٨٢) – ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾:

كلّما جاء ذكر العذاب في القرآن الكريم جاءت بعده صورة مشرقة إيجابيّة للمؤمنين الطّائعين، وهؤلاء أصحاب الجنّة، أي هم الّذين اختاروا لأنفسهم الجنّة. والخلود في الجنّة ونعيمها لا يناله الإنسان بالإيمان بلسانه فقط، بل لا بدّ من العمل الصّالح؛ لأنّ الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل، كما أخبر رسول الله ﷺ.

---

(١) سنن النّسائيّ الكبرى: كتاب فضائل القرآن، باب من قال في القرآن بغير علم، الحديث رقم (٨٠٨٥).

والإيمان يقين في القلب، وعمل بالجوارح، وليس مجرّد كلامٍ باللّسان. ولا يُنال الخلود في الجنّة ونعيمها إلّا بالإيمان والعمل الصّالح.

(الآية ٨٣) – ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

انظر هنا إلى عظمة الأوامر الإلهيّة، والله ﷻ الّذي خلق البشر هو الّذي يضع القوانين لحفظ وسلامة البشر، فلا تجعل نفسك مكان ربّ البشر، والله وحده هو الّذي يشرّع الأوامر والقوانين للبشريّة من لدن سيّدنا آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

والميثاق عقد مربوط فهو كلّ شيء فيه تكليف، كعقد الزّواج الّذي قال عنه القرآن الكريم: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾[النّساء: من الآية ٢١]، وقد سمّي عقد النّكاح بالميثاق الغليظ فسمّاه بأعظم لفظ على الإطلاق، لما فيه من تكاليف، فانظروا عظمة الإسلام وحقوق المرأة فيه.

وقد أخذ ميثاق بني إسرائيل بثمانية أشياء:

أوّل بنود الميثاق: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وكلّ رسالة سماويّة من عند الله تأمر النّاس أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وألّا يعبدوا معه سواه، وذلك عن طريق الرّسالة التي أنزلت إليهم، والنّبيّ الّذي أرسل إليهم، فموسى عليه السلام والتّوراة داخلان في هذا الميثاق، ويطلب الميثاق منهم ألّا يُشركوا مع الله إلهاً

آخر، والشّرك لا يعني بالضّرورة عبادة الأصنام والشّمس والقمر... فقد يكون الإله الآخر هوىً أو مالاً أو شهوةً أو سلطة، يقول الله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: من الآية ٤٣]، فاتّخاذ الهوى إلهاً يعني أن تجعل من نفسك معبوداً من دون الله تعالى، وعبادة الله تعالى هي طاعة أوامره.

أمّا البند الثّاني من الميثاق: فهو: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: فأوصى الله تعالى بالوالدين ولم يقل: لا تعقّوا الوالدين، لكنّه قال ﷻ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، فالوالدان هما السّبب المباشر لوجود الإنسان، وهذا ما أُمِر به بنو إسرائيل، أمّا الأمر الموجّه للمسلمين فقد كان في قوله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[الإسراء: من الآية ٢٣]، فرضا الله في رضا الوالدين وسخط الله في سخط الوالدين، كما قال الصّادق المصدوق ﷺ.

وهذه أوامر على المرء أن يلتزم بها، وقد تكرّر الأمر بالإحسان إلى الوالدين في الكتب السّماويّة السّابقة وفي القرآن الكريم، وكان سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه يقول: "لو كانت هناك كلمة أصغر من أفّ لذكرها الله في النّهي عن الإساءة للوالدين". فليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النّار، وليعمل العاقّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنّة؛ لأنّ رضا الوالدين يُرضي الله ﷻ، ومن لا خير فيه لوالديه فلن يكون فيه خير لربّه ولا للنّاس ولا للوطن، وإذا سمعت كلاماً أو وعظاً من متكلّم أو واعظ فانظر لعلاقته بوالديه وعلاقته مع أسرته في بيته.. فإن كان عاقّاً لوالديه فاضرب بكلامه عرض الحائط.

والإحسان مرتبة أعلى من الواجب، وكلّ ما جاء في القرآن الكريم من التّوصية بالوالدين جاءت معه كلمة الإحسان، فالواجب أن ترعى والديك، أمّا الإحسان فهو ما زاد على الواجب. وقد قال رسول الله ﷺ: «**رَغِمَ أنف ثمّ رَغِمَ أنف ثمّ رَغِمَ أنف**»، قيل من؟ قال: «**من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنّة**»(١)، فالفرض أن تبرّهما كما قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾[الإسراء: من الآية ٢٣]، والإحسان فوق الفريضة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذّاريات]، فصلاة التّهجّد والاستغفار في الأسحار والصّدقة (وهي غير الزكاة المفروضة) هذه كلّها ليست فرائض؛ لأنّه حين يتحدّث عن الزكاة المفروضة الواجبة يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾ [المعارج]، فانظر إلى دقّة الآية التي تذكر الزّيادة على الفرائض ولا يقصد بها الفرائض.. فالإحسان إلى الوالدين يعني فوق ما فرض الله عَزَّوَجَلَّ.

والميثاق هو ما نزل على سيّدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في التّوراة، وأهمّ ما في هذا الميثاق هي الأمور الثّمانية التي وردت هنا، وهي مشتركة بين كل الرّسالات السّماويّة، فالعقيدة واحدة؛ لأنّها من لدن إله واحد، وتتعدّد

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما، الحديث رقم (٢٥٥١).

الشّرائع والأحكام على حسب تبدّل الأزمان، فكلّ زمن يأتي رسول وتأتي معه رسالة، فالعقيدة واحدة والشّرائع مختلفة بحسب الزّمن والظّرف.

وعقيدة كلّ الرّسالات السّماويّة عبادة الله وحده دون سواه، والعبادة تعني طاعة الآمر في ما أمر والانتهاء عمّا نهى عنه. وليست العبادة هي فرائض الصّلاة والصّوم والزكاة والحجّ فحسب، فهذه أركان الإسلام، لكنّ العبادة أوسع وهي كلّ طاعة أمر الله ﷻ بها، ولا صلاة مقبولة مع المعصية والسّرقة والكذب والغيبة... ومن لم ينته عن المناهي فلا عبادة له. بل من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له..

وأيّ حركة إصلاح أو بناء لمجتمع سليم لا بدّ لها من أن تدور حول هذه الدّوائر الأربع لبناء مجتمع حضاريّ ومتقدّم يعمّ خيره كلّ النّاس، وهي: الإحسان للوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين.

وقد قرن الله عبادته مع الإحسان إلى الوالدين، فمن لا خير فيه لوالديه لا خير يُرتجى منه لأحد لا لوطنه ولا للنّاس، وهذا أمرٌ مبتوت فيه في كلّ الشّرائع السّماويّة، ولهذا قرن الله ﷻ عبادته بالإحسان إلى الوالدين.

وقد قدّم الإسلام الأمّ بثلاث درجات على الأب، جاء في حديث رسول الله ﷺ حين سأله رجل: من أحقّ النّاس بحسن صحابتي، قال: «**أمّك**»، قال: ثمّ من؟ قال: «**ثمّ أمّك**»، قال: ثمّ من؟ قال: «**ثمّ أمّك**»، قال:

ثمّ من؟ قال: «ثمّ أبوك»[1]، وهذه هي حقوق المرأة في الإسلام، وهي أعلى مرتبة يصل إليها الإنسان، وقد قُدِّمت على الرّجل، فهي الأمّ والزّوجة والأخت والبنت، وهي نصف المجتمع وتربّي المجتمع كلّه.. قال ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان]، ويقول ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: من الآية ١٥]، ولا يمكن أن تصل إلى رضا الله ﷻ إلّا من خلال رضا الوالدين، ورضا الله في رضا الوالدين وسخط الله في سخط الوالدين، وقد جاء الأمر ببرّ الوالدين في كلّ الأديان والشّرائع. وإذا كنت تبني المجتمع والوطن فهذا يتطلّب منك في أوّل خطوة حسن العلاقة مع الوالدين. والإحسان هو أن تقوم بأكثر من المفروض عليك، وقد فرض الله علينا برّ الوالدين، أمّا الإحسان إليهما فهو فوق المفروض علينا، وهو أن تتحرّى رضاهما وتتجنّب سخطهما في كلّ أمر.

ثالث بنود الميثاق: الإحسان لذي القربى: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أي أحسنوا إحساناً لذي القربى، وإذا تكفل كلّ إنسان بالفقراء والمحتاجين والمرضى من أقربائه، تتكامل الدّوائر ويتحقّق التّكافل الاجتماعيّ، وتحدث العدالة والمساواة في المجتمع، ولا يكون هناك تفاوت طبقيّ كبير، وينتفي الفقر من المجتمع.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب من أحقّ النّاس بحسن الصّحبة، الحديث رقم (٥٦٢٦).

فصلة الرّحم جزء من عبادة الله ﷻ، و«**الرّحم معلّقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله**»[1]، كما جاء في الحديث الشّريف.

رابع بنود الميثاق: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: اليتيم من فقد أباه، أي فقد المعين والكفيل والنّاصر، وأولى النّاس بالإحسان بعد الوالدين هو اليتيم، والإحسان إلى اليتيم لا يكون بالمال فقط، بل بالمعاملة أيضاً، وحين يحسن المجتمع إلى اليتيم فإنّه لا يشعر بالفقد، ويتحقّق التّكافل الاجتماعيّ، وقد قال رسول الله ﷺ وهو الّذي نشأ يتيماً: «**أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا**»، وأشار بالسّبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً[2]. ويقول ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾ [الضّحى]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون]، أي يزجر اليتيم ولا يحسن إليه. فقرن بين الكفر والتّكذيب بالدّين وبين الإساءة لليتيم؛ لأنّ الدّين قيم وأخلاق وحبّ وعطاء، وليس حقداً ولا قتلاً ولا طائفيّة، وهذا الميثاق ورد في كلّ الشّرائع والأديان.

خامس بنود الميثاق: ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: المسكين هو من يملك شيئاً يسيراً لا يكفيه. وقد ورد في سورة (الكهف): ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب صلة الرّحم وتحريم قطيعتها، الحديث رقم (٢٥٥٥).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الطّلاق، باب اللّعان، الحديث رقم (٤٩٩٨).

﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: من الآية ٧٩]، فهؤلاء فقراء ويملكون سفينة لكن واردهم لا يكفيهم.. فعلينا أن نحسن إلى من يملك ولا يكفيه ما يملك.

والإحسان إلى كلّ هؤلاء يرفع الحقد والكراهية من المجتمع، ويمنع التّفاوت الطّبقيّ، فمن يفعل ذلك فهو يبني حركة إصلاح حقيقيّة في المجتمع.

سادس بنود الميثاق: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: ولم يقل إحساناً؛ لأنّ كلمة (حسن) مصدر الحسن كلّه، وفيها لفتة قرآنيّة، أي ليكن كلامك كلّه حسناً أي مصدراً للحسن كلّه، ولا تكن بذيئاً ولا فاحشاً ولا تؤذي النّاس بلسانك ولا تنطق إلّا بالخير، ويقول ﷻ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ [فصّلت: من الآية ٣٤]، ويقول ﷻ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾ [المؤمنون]، وجاء في الحديث الشّريف: «**ليس المؤمن بالطّعان ولا اللّعان ولا الفاحش ولا البذيء**»[1].

ومن النّاس من لا يُبالي أن يكون بذيء الكلام ويؤذي غيره بلسانه، ومنهم من يدعو إلى السّوء والبغض والطّائفيّة، كالإعلام المغرض الّذي يستخدم كلّ قبيح وخبيث، ويبثّ الفرقة والأحقاد والطّائفيّة، فهو لا يقول للنّاس حسناً، بل يقول للنّاس قبحاً.

والحسن هو ما حسّنه الشّرع، وما وافق قول الله تعالى.

سابع بنود الميثاق: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب البرّ والصّلة، باب اللّعنة، الحديث رقم (١٩٧٧).

ثامن بنود الميثاق: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وقد جاءت الأفعال قبل الأمر بالصّلاة والزكاة والعبادات؛ لأنّ من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلن تزيده صلاته من الله إلّا بعداً، فأيّ صلاة وأيّ زكاة تقدّمها بين يدي الله تعالى إذا لم تكن بارّاً بوالديك ومحسناً لذوي القربى واليتامى والمساكين؟! ومن لا يحقّق هذا فستكون صلاته مجرّد حركات جوفاء لا قيمة لها ولا وزن، كما يقول تبارك وتعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان]، فجاءت أوّلاً الأفعال التي تؤدّي إلى إقامة الصّلاة، وإقامة الصّلاة ليست مجرّد أداء، بل هو أن تقيم الصّلاة بكلّ شروطها وأركانها وخشوعها، بأهدافها وغاياتها، يقول ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: من الآية ٤٥]، وذكر الله أكبر من الفحشاء والمنكر، وليس كمن استخدم: "الله أكبر" رمزاً لجريمته.

وكلّ الشرائع فيها صلاة وزكاة، وقد تختلف حركات الصّلاة، لكنّها في كلّ الشّرائع صلة بين العبد والرّبّ، وقد تختلف مقادير الزكاة، لكنّها أيضاً موجودة في كلّ الشّرائع. والزكاة هي صنو الصّلاة، وهي هنا غير الإحسان (صدقة التّطوّع)، فهي فرض وحقّ للفقراء، وليست منّة ولا إحساناً؛ لأنّ الإحسان فوق المفروض، والصّدقة برهان، تبرهن بها على حسن صلتك بالله، فإن أديت الزكاة للأقرباء فهي صلة وزكاة، وإذا قدّمت الصّدقة إليهم فهي صلة وصدقة، فأنت تصل الرّحم وتتصدّق.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾: تولّوا عن الشّيء أي أعرضوا، إلّا قليلاً منهم (حسب صيانة الاحتمال) والله تبارك وتعالى لا يعمّم بل يقول: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾، فالمولى عَزَّ وَجَلَّ يرصد بواطنهم، ويكشف دخائلها، فهم يتولّون عن الميثاق وقلوبهم معرضة عنه.

وهذه صفة اليهود دائماً، يعرضون بقلوبهم عمّا أقرّوا به بألسنتهم.

(الآية ٨٤) – ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

فمن سفك دم إنسان كان كمن سفك دم نفسه، ومن قتل نفساً فكأنّه قتل النّاس جميعاً: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: من الآية ٣٢].

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾: أي غيركم وفي هذا إثبات للأخوّة الإنسانيّة، وإنّما المؤمنون إخوة. وهذه أخوّة في الإنسانيّة، وكان سيّدنا عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "النّاس صنفان: إمّا أخ لك في الدّين أو نظير لك في الخلق..".

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾: أي لا يُخرج بعضكم بعضاً، واستخدم كلمة أنفسكم إثباتاً للأخوّة الإنسانيّة، وقد أقرّوا هذا الميثاق حين أخذ سيّدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ معه النّقباء من بني إسرائيل وعددهم اثنا عشر ليشهدوا الميثاق.

(الآية ٨٥) - ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف يفيد التّراخي في الزّمن.

أمّا الفاء فتفيد التّعقيب الفوريّ.

واستخدام كلمة ﴿ثُمَّ﴾ تعني أنّ الكلام انتقل الآن إلى اليهود الّذين كانوا في المدينة المنوّرة وقت تنزّل القرآن الكريم، وكانوا فريقين: فريق مع الأوس وفريق مع الخزرج. فإذا نشب قتال بين الأوس والخزرج قاتل فريق من اليهود مع الأوس وقاتل فريق منهم مع الخزرج، فيقتلون فريقاً من قومهم ويخرجونهم من ديارهم.

﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾: أي تنصرون فريقاً على آخر.

﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: الإثم هو الاعتداء بدون حقّ، والعدوان هو تجاوز الحدّ.

والمقصود بهذه الآيات أنّه بعد الحرب يكون افتداء للأسرى، وجمع أسير عادة: أسرى، كما في قول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٧]، وقد جيء هنا بكلمة ﴿أُسَٰرَىٰ﴾ وجمع التّكسير في اللّغة العربيّة يحتمل أكثر من معنى، وهي هنا إشارة إلى

كثرة الأسر، ولا يكون هذا في اللّغة العربيّة إلّا عندما يكون القائل عالماً بدخائل النّفوس، وكلام الله ﷻ يتحدّث عن الإنسان بمظهره ومخبره، وكان اليهود يفتدون الأسرى من قومهم مع أنّ الله تعالى حرّم عليهم أصلاً إخراجهم. والقرآن الكريم يتحدّث عن دخائل النّفوس ويسبر أغوارها، وحين يتحدّث عن الملائكة مثلاً يقول ﷻ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[البقرة: من الآية ٣٠]، وهذا القول قد يكون في نفوسهم وسرّهم ولا يعلمه إلّا الله تبارك وتعالى. وهؤلاء اليهود يفادون الأسارى وهو محرّم عليهم إخراجهم أصلاً.

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾: الكفر هو السّتر، فهم يظهرون بعض الكتاب ويسترون بعضه الآخر، يأخذون جزءاً من الكتاب ويتركون جزءاً. بعض النّاس يأخذ من القرآن الكريم ما يرى فيه مصلحته، كمن يسارع لأخذ الميراث، ويقول: أمر الله بذلك في القرآن الكريم، فإذا ما ورد في القرآن ذكر لحقوق مترتّبة عليه، تهرّب وأعرض، فهو يأخذ من القرآن ما يناسبه ويترك منه ما لا يناسبه بنظره.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ﴾: فالجزاء في الدّنيا قد يكون وقد لا يكون، ومن اعتقد أنّه أفلت بجريمته فقد وَهِمَ؛ لأنّ الجزاء الأوفى في الآخرة.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾: وقد يؤخّر الله ﷻ الجزاء، فهو تعالى يمهل ولا يهمل، ولا بدّ من أن يكون الجزاء في الآخرة.

(الآية ٨٦) – ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾:

(بالآخرة) الباء دائماً تدخل على المتروك، فالشّاري يدفع المال ويأخذ البضاعة. فمثلاً إذا اشتريت كتاباً بألف ليرة تكون قد دفعت ألف ليرة وأخذت الكتاب، وهؤلاء أخذوا الدّنيا وتركوا الآخرة، وكذلك من يفصِّل الدّين وفق هواه. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

(الآية ٨٧) – ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾:

في هذه الآيات وما سبقها رصد القرآن الكريم كلّ حركات شعب بني إسرائيل وأتباعهم حتّى وصل الأمر إلى يهود المدينة المنوّرة من بني قينقاع والنّضير وقريظة ويهود خيبر الّذين كانوا يثيرون الفتن والأحقاد بين الأوس والخزرج، ويعادون النّبيّ ﷺ ويفعلون المنكرات.

ويقول لهم الله ﷻ هنا: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وحين تأتي كلمة ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مع ذكر النّبيّ المختصّ، فهو الكتاب الّذي نزل على هذا النّبيّ، وهو هنا التّوراة.

﴿وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ﴾: قفَّينا: من القفا، أي ما يأتي بعده مباشرة، وقد توالى الأنبياء بعد موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، ويعتقد بنو إسرائيل أنّ كثرة الأنبياء فيهم هي منحة من الله تبارك وتعالى، فهم يقولون:

﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: من الآية ١٨]، والحقيقة أنّ كثرة الأنبياء في شعب واحد دليل على كثرة أمراضه، تماماً مثل حاجة من كثرت أمراضه واستفحلت إلى مجموعة من الأطبّاء، وما بين موسى وعيسى عليهما السلام بُعث في بني إسرائيل كثير من الرّسل والأنبياء، فقد جاءهم يوشع واليسع وداود وسليمان ويونس وزكريّا ويحيى وصولاً إلى سيّدنا عيسى عليه السلام... وهناك رسل لم يقصصهم الله تعالى علينا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النّساء].

وأعطى الله سبحانه وتعالى سيّدنا عيسى عليه السلام البيّنات، وهي المعجزات الدّالّات على صدق بلاغه عن الله سبحانه وتعالى، وأيّده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام، وقد ولد المسيح من دون أب وتعرّض لما لم يتعرّض له الأنبياء من جحود النّاس وكفرهم، فكان مؤيَّداً دائماً بروح القدس. والقدس: أي الطّهر.

والرّوح:

- إمّا تطلق على القيم التي نزلت في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]؛ لأنّ القرآن هو روح الحياة وغذاء الرّوح.

- أو الرّوح التي تحيي الجسد، والإنسان عبارة عن قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله.

وسمّى الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام بروح القدس: أي روح الطّهر. فكان سيّدنا المسيح مؤيَّداً بالآيات البيّنات وبروح القدس.

وبرغم كلّ المعجزات: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾[النّساء: من الآية ٤٩]، وبرغم تأييد روح القدس، كان بنو إسرائيل لا يؤمنون به. وقد نزل المسيح عليه السلام على بني إسرائيل ليخلّصهم من الموبقات، لكنّهم كذّبوا واستكبروا، وردّوا الأمر على الرّسول الّذي جاءهم، وهكذا فعلوا مع كلّ الأنبياء، وقتلوا الأنبياء مثل سيّدنا يحيى عليه السلام فهم قتلة الأنبياء سابقاً، وقتلة الشّعوب لاحقاً، وهذه طبيعة شعب بني إسرائيل.

(الآية ٨٨) – ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾:

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾: أي مغلقة، مكتفية ومغلّفة، فيها من العلم ما يكفيها، ولا تحتاج لشيء جديد من الرّسائل والشّرائع، أو قلوبهم مغلّفة ومطبوع عليها، أي أنّ الله طبع على قلوبهم وختم عليها حتّى لا ينفذ إليها نور الهداية، ولا يخرج منها ظلام الكفر.

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾: حسب (صيانة الاحتمال) فهم قليلاً ما يؤمنون، ولم ينف الإيمان عنهم بشكل مطلق، فمنهم من آمن.

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾: وكلمة ﴿بَل﴾ تنفي قولهم وادّعاءهم، فهم مطرودون من رحمة الله، لا تنفذ إشعاعات النّور والهداية إلى قلوبهم.

وهنا يحتجّ بعض من يدّعي العقلانيّة فيقول: إنّهم لا ذنب لهم، والله تعالى يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، أو يقول: ما ذنب من أضله الله؟؟ وحين يكون هناك إطلاق في القرآن وفيه تخصيص نأتي إلى التّخصيص الّذي يفسّر الإطلاق والتّعميم، لذلك يجب أن لا يتصدّى للتّفسير من لا يفهم دقائق علم التّفسير.

وقد حرّف الوهّابيّون التّفسير؛ لأنّهم لا يعرفون هذا العلم، وهناك آيات تقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة: من الآية ١٠٨]، والفاسق هو من خرج عن أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]، الظّالمون هم الّذين يظلمون النّاس ويظلمون أنفسهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٤]، الكافرون هم الّذين يسترون ما أمر الله وما جاء من آيات الله. فلا تقل: إنّ الله لم يهده، بل قل: إنّه فاسق وظالم وكافر، فلم يهده الله. والله عَزَّ وَجَلَّ هنا لعنهم بسبب كفرهم وسترهم لأوامر الله وما جاء من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(الآية ٨٩) – ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾:

المقصود بالكتاب هنا هو القرآن الكريم، ولا يأتي كتاب إلّا مصدّقاً لما قبله من الكتب؛ لأنّه من عند الله؛ لأنّه من لدن إله واحد: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ

ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[الشّورى: من الآية ١٣]، فالدّين من عند الله ﷻ.

وكان اليهود في المدينة المنوّرة ينتظرون مجيء نبيّ، وحين كانت تنشأ النّزاعات بينهم وبين الأوس والخزرج في المدينة كانوا يقولون لهم: عندما يأتي النّبيّ الموعود سنكون معه ونقتلكم قتل عاد وإرم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾، فهو موجود عندهم في التّوراة كما في الإنجيل، كما قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾[الصّفّ: من الآية ٦]، لكنّهم كفروا به: أي ستروا ما جاء في القرآن وأنكروا ما فيه، ورفضوا أن يؤمنوا به، فلعنهم الله ﷻ: أي طردهم من رحمته، كما لعن إبليس وطرده من رحمته.

(الآية ٩٠) – ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾:

استخدام كلمة (الشّراء)؛ لأنّهم ماديّون لا يفهمون إلّا لغة التّجارة والمال، لا يفهمون إلّا بالدّرهم والدّينار والدّولار، وهذه حياتهم، وقد اشتروا الكفر، وهي تجارة خاسرة: أن يكفروا بما أنزل الله في القرآن.

والكفر هو الجحود والسّتر، وليس بمعنى القتل والإرهاب وما يريده الإرهابيّون من التّكفير.

البغي: هو العدوان وتجاوز الحدّ.

﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾، فقد نزل القرآن الكريم على العرب وعلى نبيّ عربيّ فرفضوه؛ لأنّهم كانوا يودّون أن يكون النّبيّ من ذريّة بني إسرائيل، وكانوا يستفتحون على أهل المدينة بأنّه سيكون من اليهود فكان من العرب. والله أعلم حيث يجعل رسالته، والنّبوّة فضل، وختام النّبوّات بنبيّنا محمّد ﷺ هو أكبر فضل، بعثه الله من العرب، فشرّف به الأمّة العربيّة، فنبيّنا عربيّ والقرآن عربيّ ولسان أهل الجنّة في الجنّة عربيّ، كما ورد عن نبيّنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾، الغضب الأوّل؛ لأنّهم كفروا بالحقّ الّذي جاء به النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، وهذا الغضب يشتركون به مع الكافرين الّذين لا كتاب لهم، والغضب الثّاني اختصّ به بنو إسرائيل؛ لأنّهم كفروا بالنّبيّ ووصفه موجود عندهم في التّوراة، ذكرت صفاته عليه الصّلاة والسّلام فيها فكفروا به، وهم يعرفون صدقه وأنّه الحقّ، فستروا ما جاءهم في التّوراة. والكفر هو السّتر، أي ستروا ما جاءهم من عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾: هو الإهانة يوم القيامة، وذلك أشدّ أنواع الإيلام؛ لأنّ الإنسان الّذي كان يتكبّر ويتجبّر يُهان يوم القيامة بسبب ما كان منه في الدّنيا.

(الآية ٩١) – ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾:

إذا قيل لهم: آمنوا بالقرآن الكريم قالوا: بل نؤمن بالتّوراة، ويكفرون بما وراءه، أي بما نزل بعدها وهو القرآن الكريم، وهو الحقّ مصدِّقاً لما معهم، أي لما جاء في التّوراة وفي كلّ الكتب السّماويّة، وهذه وحدة العقيدة، فيحاجّهم القرآن الكريم: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، يخاطب اليهود الموجودين في زمن تنزيل القرآن، ويذكّرهم بما فعله آباؤهم من قتل للأنبياء، وهم كاذبون لم يؤمنوا بالتّوراة ولا بالإنجيل ولا بالقرآن، فهم لا يؤمنون إلّا بالمال وبمصالحهم.

(الآية ٩٢) – ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

هنا يعود إلى اليهود الّذين كانوا في زمن موسى عليه السلام، وهم الّذين جاءتهم البيّنات.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والبيّنات: هي المعجزات التي أيّد الله بها سيّدنا موسى، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: من الآية ١٠١]، وهي: الطّوفان، والجراد، والقمّل، والضّفادع، والعصا، واليد، وفرق البحر، والدّم، والسّنون... وهي معجزات دالّات مبيّنات واضحات، ورغم ذلك كلّه قتلوا أنبياء الله، وكفروا بالتّوراة وكفروا بالإنجيل وكفروا بالأنبياء، فيقول الله سبحانه وتعالى لهم: ثمّ اتّخذتم العجل إلهاً!!، وعبدتم العجل برغم كلّ هذه الآيات البيّنات!!!، ووصل بهم الجحود إلى أن قالوا لسيّدنا موسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[النّساء: من الآية ١٥٣].

وهم ظالمون؛ لأنّهم ظلموا أنفسهم واشتروا الحياة الدّنيا بالآخرة.

(الآية ٩٣) – ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

رفعُ الجبلِ فوقهم معجزة خصّ الله ﷻ بها بني إسرائيل، وقد خافوا من نتق الجبل فوق رؤوسهم أكثر من خوفهم من الله، فسجدوا وهم ينظرون جانباً خوفاً من الجبل، فهم لا يخافون الله ﷻ بل يخافون الجبل. وبقيت هذه الحركة عندهم حتّى الآن.

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾: أي أن تأخذ الدّين عن قناعة ويقين، أن تأتي إلى الصّلاة بقوّة ونشاط وبهمّة عالية، وكان رسول الله ﷺ يقول لسيّدنا بلال ليؤذّن للصّلاة: «**يا بلال، أقم الصّلاة، أرحنا بها**»[1]، وليس "أرحنا منها يا بلال"، أي لا تتكاسلوا عن طاعة الله. وأن تؤدّي زكاة مالك طيّبة بها نفسك، وكذلك كلّ أوامر الله تبارك وتعالى.

﴿وَاسْمَعُوا﴾: افهموا وأطيعوا، كما قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال]، فالسّمع وسيلة للفهم عن الله، وأنت تسمع من الله حين تقرأ القرآن، والقرآن الكريم لا يمكن تعلّمه إلّا عن طريق السّماع والتّلقّي، وبلاد الشّام –والحمد لله– مشهورة بالإقراء وبالإجازات بالسّند، ومنها تخرّج القرّاء إلى دول العالم

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، الحديث رقم (٤٩٨٥).

الإسلاميّ كافَّةً عبر القرون، ولا يمكن تعلّم القرآن الكريم إلّا بالسّماع والتّلقّي، فكيف يميّز من لم يسمع القرآن بين قوله ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة]، وبين قوله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٤]، ورسم الكلمة واحد في (الم) والقراءة تختلف، وأحكام التّجويد هي كيفيّة قراءة القرآن كما قرأه رسول الله ﷺ، وأخذه القرّاء عن الصّحابة جيلاً بعد جيل، وقارئاً عن مقرئ، حتّى وصل إلينا كما أُنزل، ونحن نسمع لنتعلّم القراءة، ونقرأ على المقرئين.

﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾: أيضاً بمعنى أطيعوا.

﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾: لا يمكن لهم أن يقولوا: (سمعنا وأطعنا) كما نقول نحن: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٥]، لكنّهم قالوا: سمعنا (باللّسان) و(عصينا) بالقلوب، ولا يمكن أن يقولوا: عصينا بألسنتهم، فهم نووا المعصية بقلوبهم وعلم الله ذلك منهم، وهم لم يقولوا: عصينا بألسنتهم بل قالتها قلوبهم، فهم أضمروا المعصية، وهذا كلام الله، ولا يمكن أن يقول بشر مثل هذا، بل الله يقول؛ لأنّه يعلم ما يضمرون في قلوبهم.

﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾: العجل كبير، والقلب صغير، فكيف يشرب العجل؟! هذه صورة مجازيّة، أي أُشربوا في قلوبهم محبّة العجل: كالماء تتشرّبه كلّ خلايا الجسم وأنسجته، وليست هناك أيّة خليّة ليس فيها ماء، وقد دخل الكفر والجحود إلى كلّ خلاياهم، وهذا من دقّة التّشبيه، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وقد أُشربوا في

قلوبهم محبّة العجل، بسبب كفرهم وجحودهم، وليس ظلماً من الله ﷻ.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾.

(الآية ٩٤) – ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤﴾:

كلمة ﴿قُلْ﴾ موجّهة إلى رسول الله محمّد ﷺ، فهي آيات يبلّغها جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ بكامل الدّقّة والأمانة كما نزلت، قل لهم يا محمّد: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأنّهم كانوا يقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: من الآية ٨٠]، ويزعمون بأنّهم شعب الله المختار، فتحدّاهم القرآن بهذا، وفسّرها ابن عبّاس رضي الله عنهما بالمباهلة، وتكون المباهلة بتمنّي كلّ فريق الموت إن كان كاذباً، فيقول: إن كنّا كاذبين فليمتنا الله، ولن يقولوها، ولو قالوها لماتوا من ساعتهم بشرقتهم، أي: بريقهم، ولكنّهم لم يقولوها ولن يقولوها.

(الآية ٩٥) – ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥﴾:

لن يتمنّى الموت من ارتكب كلّ هذه السيّئات والموبقات، أمّا المسلمون فلا يهابون الموت بل يتمنّونه في سبيل الله، وفي غزوة حُنين جاء سيّدنا الحسن لسيّدنا عليّ بالدّرع، فقال له سيّدنا عليّ رضي الله عنه: "يا بنيّ، إنّ أباك لا يبالي أسقط على الموت أم سقط الموت عليه".

أمّا اليهود فلن يتمنّوه أبداً لا من قبل ولا من بعد، فهو نفي للمستقبل، والدّليل هو ما نشاهده من الصّهاينة اليوم. وذلك لأنّ الله ﷻ يعلم ظلمهم لأنفسهم وظلمهم للآخرين، ولن يتمنّى الموت من قدّم كلّ هذه الموبقات والسّيئات والمثالب، بل يتمنّى الحياة الدّائمة، والله عليم بالظّالمين، الّذين يظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم.

(الآية ٩٦) – ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

لم يقل: الحياة (معرّفة بلام التّعريف)، بل قال: ﴿حَيَوٰةٍ﴾ مُنكرة، أي نوع من الحياة، أيّة حياة مهما كانت سيّئة وتافهة، فهي أفضل عندهم من الموت. ولأنّ المشرك لا آخرة له، فالدّنيا هي كلّ همّه ومبلغ علمه، واليهود أحرص على الحياة من المشركين على حياتهم، فهم يودّون ويحبّون أن يعيشوا ألف سنة أو أكثر، ولو عاش ألف سنة لما زحزحه عمره هذا عن العذاب، وما دامت النّهاية هي الموت، يتساوى من عاش سنوات قليلة ومن عاش مئات السّنين. وقد جاءت كلمة ﴿يُعَمَّرُ﴾ مبنيّة للمجهول؛ لأنّ العمر ليس بيد أحد بل بيد الله ﷻ، فالله ﷻ هو الّذي يعطي العمر وهو الّذي ينهيه، وبما أنّ العمر ليس بيد الإنسان فجاء ﴿يُعَمَّرُ﴾ مبنياً للمجهول. والعمر هو السّنون التي يقطعها الإنسان ما بين ميلاده وموته، مأخوذ من العمار؛ لأنّ الجسد تعمره الحياة، وعندما تنتهي الحياة يصبح الجسد جثّة هامدة.

وقد ورد العدد ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ لأنّ الألف نهاية ما كان يعرفه العرب من الحساب، وكانوا عند العدّ يقولون ألف ألف، ولم يقولوا مليوناً.

(الآية ٩٧) – ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

فاليهود كما قتلوا الأنبياء، عادَوا الملائكة، فأضمروا العداوة لسيّدنا جبريل عليه السلام وهو من كان ينزل بوحي القرآن فقالوا: إنّ جبريل عدوٌّ لنا.

وقد سأل أحد أحبار اليهود رسول الله ﷺ من الّذي ينزل عليك بالوحي؟ فقال عليه الصّلاة والسّلام: «جبريل»[1]، فقال اليهودي: "لو كان غيره لآمنّا بك؛ لأنّ جبريل عدوّنا، وهو الّذي ينزل دائماً بالخسف والعذاب، أمّا ميكال[2] فينزل بالرّحمة والغيث والخصب". وهذا يؤكّد ماديّة اليهود، فهم يقيسون الأمور على البشر، فقولهم: ميكائيل حبيبنا وجبريل عدوّنا من ماديّتهم التي طُبعوا بها. والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ: إنّهم يعادون جبريل؛ لأنّه نزل على قلبك بإذن الله، وهو مصدّق لما بين أيديهم من التّوراة، وهو هدى وبشرى للمؤمنين، وإنّ عداوتهم لجبريل عداوة لله سبحانه وتعالى.

(الآية ٩٨) – ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

المقصود بهذه الآية هم شعب بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى بعلمه الكاشف

---

(١) جِبريل، جَبرئيل، جَبرئل، جَبريل: مسمّيات متواترة لملك واحد.

(٢) ميكال، ميكاءل، ميكائيل: مسمّيات متواترة لملك واحد.

يعلم بأنّ اليهود هم أسّ الشّر ومنبته في العالم، وستعاني منهم هذه الأمّة ما تعانيه، وأكبر دليلٍ على هذا ما عاناه العرب منهم في الماضي والحاضر، ومن مؤامراتهم التي لم تَفترْ ساعة واحدة، حتّى ما نراه اليوم في سورية من تخريب ودمار هو من مكرهم وكيدهم.

وحين دخل رسول الله ﷺ المدينة المنوّرة كانت له جولة مع المشركين وجولات مع اليهود، ولذلك باؤوا بغضب على غضب: غضب؛ لأنّهم ردّوا ما جاء به محمّد ﷺ ويشتركون فيه مع المشركين، وغضب يختصّون به؛ لأنّهم أُمروا باتّباعه كما ورد في توراتهم. وكلّ ما عانى منه رسول الله ﷺ من فتن ومكائد في داخل المجتمع الإسلاميّ كان بسببهم، ولا يخفى على أحد ما كان منهم في غزوة الأحزاب من كيد وخيانة.

وفي هذه الآية ذكر الله ﷻ من الملائكة جبريل وميكال، وجبريل هو الّذي يأتي بالرّسالات والأوامر الإلهيّة، وميكال هو الموكل بالأرزاق ينزل بالخصب والمطر. وقد قالوا: إنّ عدوّنا من الملائكة جبريل، فنحن لا نحبّه ولكن نحبّ ميكال، وقد قاسوا العداوة على مقاييس البشر بسبب مادّيّتهم، كحالنا حين نقول: نحبّ فلاناً من النّاس ونكره فلاناً، ولا يصحّ هذا القياس؛ لأنّ الملائكة وحدة إيمانيّة متكاملة.

وفي هذه الآية يجيبهم الله ﷻ، ولم يقل: فإنّ رسله وملائكته وجبريل وميكال أعداء للمشركين، واكتفى بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنّ الرّسل والملائكة وجبريل وميكال يستمدّون قيمتهم من الله ﷻ، فمن

عادى هؤلاء فكأنّما عادى الله ﷻ، وهو القاهر القويّ والقادر، وبيده مقادير كلّ شيء.

(الآية ٩٩) – ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ٩٩﴾:

الخطاب موجّه إلى رسول الله محمّد ﷺ، وهذا ردّ على اليهود الّذين كانوا يجادلونه.

والآية هي المعجزة، ولذلك نقول: إنّ القرآن الكريم معجز بألفاظه ومعانيه، في المبنى وفي المعنى، ولذلك سمّيت بالآيات، وفي كلّ آية من آيات القرآن الكريم هناك إعجاز.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الكفر هو السّتر والجحود، وما يجحد بآيات الله ويسترها إلّا الفاسقون، وهم الخارجون عن المنهج، من فسقت الرّطبة، إذا خرجت عن قشرها.

(الآية ١٠٠) – ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٠﴾:

العهود التي أخذت على بني إسرائيل كثيرة جدّاً.. منذ أن أنزل الله عليهم المنّ والسّلوى، وعفا عنهم عندما عبدوا العجل، وعندما جاوز بهم البحر ونجّاهم من آل فرعون.. وعندما نزلت التّوراة كانت الميثاق والعهد الّذي أخذه الله عليهم، وفيها تبشير بالنّبيّ محمّد ﷺ وذكر لأوصافه.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ﴾: لم يقل: نبذوه؛ لأنّه لا

يعمّم الحكم على جميع اليهود، فهناك من آمن منهم والتزم بميثاق الله، مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام.. وغيرهم، وهذا مصداق لقول الله تبارك وتعالى. من صفات اليهود أنّهم كلّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم، وكأنّ نقض العهود من طبعهم وتكوينهم وجبلّتهم، فكلّ الاتّفاقيّات التي يوقّعها اليهود الصّهاينة في عصرنا هذا يوافق عليها فريق منهم وينكرها فريق آخر، وكأنّهم يتّفقون فيما بينهم على ذلك، وكأنّ هذه الصّفة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم.

(الآية ١٠١) – ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾:

المقصود بالرّسول محمّد ﷺ، وقد جاءهم بالقرآن مصدّقاً لما معهم وهي التّوراة، وكلّ كتاب يأتي من عند الله فهو مصدّق لما قبله من الكتب؛ لأنّ العقيدة واحدة لا تختلف، نزلت من لدن إله واحد سبحانه وتعالى. وكذلك الإخبار عن الجنّة والنّار، وما يتعلّق بالأخلاق والقيم، وكلّ ما يتعلّق بوحدانيّة الله وصفاته سبحانه وتعالى يتكرّر في كلّ الرّسالات.

وقد جاءهم محمّد ﷺ مصدّقاً للتّوراة، لكنّهم نبذوا القرآن وراء ظهورهم وتركوه وابتعدوا عنه حتّى لا يتذكّروا أيّ شيء ممّا ورد في القرآن الكريم، كأنّهم لا يعلمون، وقد قال عنهم: ﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنّهم يعلمون، وهم يعرفون تماماً صدق رسول الله ﷺ في البلاغ عن الله تعالى.

حتّى أنّ الكثير من الأسئلة التي كان يسألها أحبار اليهود رسول الله ﷺ جاءت إجاباتها مطابقة لما عندهم في التّوراة، لكنّهم تظاهروا بأنّهم لا يعلمون، وهم يعلمون الحقيقة.

(الآية ١٠٢) – ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ١٠٢﴾:

هذه الآية هي الوحيدة التي تتحدّث عن السّحر وأنّه كفر.. وعن ما يتعلّق بعلومه، والحديث هنا عن اليهود من بني إسرائيل، وهم الّذين اتّبعوا ما تتلو الشّياطين على ملك سليمان عليه السلام في زمانه، لكنّه لم يقل: ما تلت الشّياطين، مع أنّ هذا الاتّباع كان في أيّام سليمان عليه السلام، فقد جاء الفعل بصيغة المضارع ﴿تَتْلُواْ﴾ كأنّ الشّياطين لا تزال تتلو؛ لأنّ كثيراً من اليهود ما زالوا يتّبعون ما تتلو الشّياطين. وكثيرٌ من اليهود لا يعتقدون أنّ سيّدنا سليمان عليه السلام نبيّ، ويقولون عنه: إنّه ليس بنبيّ.

وسيّدنا سليمان هو ابن نبيّ الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد طلب سليمان من ربّه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فسخّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الرّيح والطّير والجنّ وأَلانَ له الحديد، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾[ص]، وهو نبيّ مَلِك، وكان الجنّ يعملون بأمره، فمن هم الجنّ؟ نحن نحترم كلّ العقول، ونخاطب كل عقل بشريّ وليس من آمن بالقرآن فحسب، وهذه نصوص لا شكّ فيها عند المؤمنين ولا اجتهاد، فهي قاطعة. أمّا غير المؤمنين فنشرح ونبيّن لهم ونحاورهم بما يقنع عقولهم حتّى نصل إلى العقيدة ونوصل إليهم الرّسالة الصّحيحة.

ونحن أهل العلم والمعرفة والإيمان، وفي القرن الحادي والعشرين نحاكم كلّ شيء بالعقل الّذي أعطانا الله إيّاه وكرّمنا به، وكلّ الآيات القرآنيّة دعت إلى التّفكير واستخدام العقل الّذي كرّم الله تعالى به البشر على سائر المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[الإسراء: من الآية ٧٠]، ويمتدح القرآن الكريم القوم الّذين يتفكّرون.

والسّؤال: هل هناك جنّ أم لا؟

ونجيب: ما المانع العلميّ لوجود الجنّ؟

بغضّ النّظر عن الاسم نحبّه أو لا نحبّه، وليس هناك أيّ مانع في أن يكون هناك مخلوقات من غير البشر لا نراها، ولو أتينا بمجهر لاكتشفنا وجود الجراثيم من حولنا، ولا يمكن إنكار وجود ما لا نراه. وفي هذا العصر

توصّلنا للمجهر فكشفنا وجود الجراثيم وانتقال العدوى عن طريقها، فما المانع من وجود الجنّ؟ وهناك الكثير من المخلوقات لم تتوفّر لنا وسائل معرفتها وليس هناك معطيات حسّية للوصول إليها. وحين لا تتوفّر لنا معطيات الإدراك بالعقل نعلمها بالنّقل ونؤمن بها.

وقد أخبر القرآن الكريم عن الجنّ، وهي مخلوقات من نار سريعة الحركة، وقد عرفنا هذا عن طريق النّقل، وهو ما أخبر به الله ورسوله؛ لأنّنا لا نمتلك وسائل اكتشافها. هناك مجرّات بعيدة تبعد عنا آلاف السّنين الضوئيّة بل ملايين السّنين الضّوئيّة لا نملك بعد وسائل لاكتشافها، هل هذا يعني عدم وجودها؟ كذلك الجنّ إذا أخبرنا الله ﷻ عنهم بالقرآن الكريم نؤمن بوجودهم؛ لأنّنا نؤمن عن عقيدة بأنّه كلام الله، والعقيدة تتكوّن بعد تفكير وتمحيص، وإخضاع لكلّ المعايير ثمّ تنتقل إلى القلب، فَيُعقدُ عليها، فتتحوّل إلى عقيدة، من هنا نحن نحترم عقائد النّاس؛ لأنّها مرّت على كلّ المعايير والمقاييس. ونحن نؤمن بالنّقل وهو القرآن والحديث، أي ما أخبر عنه الله ورسوله. والشّياطين هم المتمرّدون على منهج الله من جنّ أو من إنس. فهناك جنّ مؤمنون طائعون، وجنّ متمرّدون وهم الشّياطين.

وفي سورة (الجنّ) يقول تبارك وتعالى على لسان الجنّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾ [الجنّ]، وقال ﷻ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: من الآية ١١٢]، والجنّ والإنس فقط لهم اختيار، أمّا الملائكة فليس لها الخيار ولا تعصي، وحين أمر الله تعالى الملائكة بالسّجود لآدم

سجدوا، وتمرّد إبليس على أوامر الله وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: من الآية ١٢]، وقد تحدّث القرآن عن الجنّ، فنحن نؤمن بوجودهم، وكان الجنّ يسترقون السّمع قبل مبعث النّبيّ ﷺ ثمّ مُنعوا من ذلك بعد مبعثه، وكان سليمان عليه السلام يسخّر الجنّ ويتعامل معهم، كما أخبرنا سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [سبأ: من الآية ١٢]، وليس هناك مانع عقليّ من التّواصل بين الإنس والجنّ، ولكن هناك مانع شرعيّ فهو محرّم علينا. وكان سليمان عليه السلام بُعِث إلى بني إسرائيل كما بعث داود وزكريّا ويحيى ويوشع واليسع وعيسى عليهم السلام إليهم.

وكان الشّياطين يوحون إلى النّاس زخرف القول، ويعلّمونهم شعوذة معيّنة أخذ اليهود يتّبعونها، والسّحر كفر، ولم يكفر سليمان لكنّ الشّياطين كفروا؛ لأنّهم كانوا يعلّمون النّاس السّحر. فمن يتعامل بالسّحر فهو كافر، وهذا هو الحكم الشّرعيّ.

وهذه الآية فيها لمسة من غموض لتعلّقها بالسّحر، والسّحر كفر؛ لأنّ فيه ضرر وإضرار، يفرّق به بين المرء وزوجه، وقد أورد الله هنا عبارات في غاية الدّقّة. والسّحر من السَّحر وهو آخر وقت من اللّيل حيث يتداخل الوهم والخيال، فالسّحر نوعان:

النّوع الأوّل: وهمٌ وتخيّل، ومنه سحر العين وتضليلها كما حدث مع سحرة فرعون: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ [طه: من الآية ٦٦]، ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[الأعراف: من الآية ١١٦]، وحبال سحرة فرعون وعصيّهم

لا تسعى في الحقيقة، وإنّما العين تتخيّل الشّيء على غير واقعه، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾[طه]، ولـمّا ألقى موسى عصاه أُلقيَ السّحرة سجّداً؛ لأنّها تحوّلت إلى ثعبان حقيقيّ، وقال السّحرة: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾[الأعراف]، وفي آية أخرى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾[طه].

والنّوع الثّاني من السّحر: هو علم يضرّ ولا ينفع، ولا يكون إلّا عن طريق الجنّ.

وفي هذه الآيات يخاطب الله تعالى اليهود الّذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ ويخبرهم بما فعله أجدادهم فيقول لهم: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ وكان سيّدنا سليمان نبيّاً مَلِكاً وكان يسخِّر الجنّ بفضلٍ من الله ﷻ، وقد اتّبع اليهود ما كانت الشّياطين تتلوه على ملك سليمان من الشّعوذات.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾: كفر الشّياطين؛ لأنّهم كانوا يعلّمون السّحر، من هنا كان تعلّم السّحر وتعاطيه والعمل به كفر، أي ستر للإيمان، وقد ادّعى اليهود بأنّ سليمان كان يخفي كتب السّحر التي كان يسخّر بها الجنّ والرّيح تحت عرشه، والتي كانوا يعلّمون بها الشّعوذة والسّحر، وأنّهم استخرجوها بعد موته، وهذا كذب وافتراء؛ لأنّ السّحر كفر، وسيّدنا سليمان عليه السلام لم يكفر ولم يعلم السّحر على الإطلاق، لكنّ

الشّياطين هم الّذين كفروا. والشّيطان هو المتمرّد على منهج الله ﷻ من جنّ أو إنس، وكلّ من يتعلّم السّحر الآن يتعلّم ما تتلوه الشّياطين؛ لأنّ القرآن الكريم استخدم صيغة الفعل المضارع: ﴿مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي أنّها لا تزال تتلو. ولم يرد عن النّبيّ ﷺ تفسير لهذه الآية، لذلك اختلف المفسّرون فيها:

- فهناك من يقول: إنّ هاروت وماروت كانا مَلَكين يعلّمان النّاس السّحر في منطقة بابل من العراق، ويحذّرانهم من تعلّمه وممارسته، ويقولان لهم: إنّه اختبار لهم، وينصحانهم بتركه؛ لأنّه كفر.

- وهناك قراءة للقرآن الكريم تقرأ: ﴿وما أنزل على المَلِكين ببابل هاروت وماروت﴾ بكسر اللّام[1]، أي أنّهما لم يكونا مَلَكين بل كانا مَلِكين، فالاختلاف في طبيعة هاروت وماروت اللّذين كانا يعلّمان النّاس السّحر، والآية لم توضّح طبيعتهما، بل تركت شيئاً من الإبهام يناسب السّحر القائم على الغموض. ولو أراد الله ﷻ أن نعرف طبيعة هاروت وماروت لأوضحهما لنا أكثر، لكنّه ترك الأمر فيه شيء من الغموض. وهناك تناسب بين إبهام السِّحر ووقت السَّحر الّذي لا تبدو فيه الأشياء واضحة في آخر اللّيل، وأشدّ ساعات اللّيل حلكةً هي التي تسبق الفجر.

وشأن القرآن الكريم ألّا يهتمّ بتفسير التّفاصيل التي لا تفيد معرفتها، مثل عدد فتية أهل الكهف، فيجيب القرآن من يسأل عن عددهم:

---

(١) قراءة من الشّواذ، قرأ بها الحسن البصريّ وابن عبّاس والضّحاك بن مزاحم وعبد الرّحمن بن أبزى، قيل المراد بالملِكين: داود وسليمان عليهما السلام.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾[الكهف]؛ لأنّ الله ﷻ يريد منّا أن نعرف العبرة والغاية والوظيفة المطلوبة من خلال الحدث التّاريخيّ وليس لمعرفة عددهم وأسماءهم فائدة.

كذلك عندما سئل رسول الله ﷺ عن الأهلّة اقتصر القرآن الكريم على ما تفيده المعرفة بالأهلّة، فقال ﷻ: ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٩]، وهذا ما يفيد السّائلين في ذلك الوقت، وقد يأتي زمن آخر يكتشف فيه النّاس أموراً جديدة تفيدهم بشأن الأهلّة.

كذلك هاروت وماروت لا تهمّنا معرفة طبيعتهما وهل هما ملَكين أم ملِكين، ويكفي أن نعرف أنّ السّحر علم ضارّ لا يجوز تعلّمه، وهو كفر وفتنة وبلاء.

وقد كانت هناك اختبارات للنّاس في حياة رسول الله ﷺ مثل الإسراء والمعراج، قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾[الإسراء: من الآية ٦٠]. وكذلك في تحويل القبلة ابتلاء، فبعد أن توجّه المسلمون في صلاتهم إلى بيت المقدس في بادئ الأمر، أُمِروا بالتّوجّه إلى الكعبة، وكانوا يتمنّون ذلك، قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾[البقرة: من الآية ١٤٣].

وكذلك كان هاروت وماروت فتنة، أي ابتلاء واختبار.

وكان اليهود يتعلّمون السّحر رغم التّحذير والتّنبيه إلى أنّه كفر، فيتعلّمون ما يفرّقون به بين المرء وزوجه، ويُطمئن الله تبارك وتعالى عباده بأنّ الضّرّ والنّفع لا يكون خارجاً عن مشيئته وقدره: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: من الآية ١٠٢]. فلا شيء في كون الله يخرج عن إرادته، ولا يضرّ شيء بغير أمره، حتّى سمّ الأفعى والعقرب لا يضرّ إلّا إن أذن الله، فلا يخرج شيء عن أمر الله في ملكه، ولا أحد يضرّ وينفع أو يفرّق ويجمع إلّا بإذن الله تبارك وتعالى.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: ونخلص إلى القول إلى أنّ علوم السّحر ضارّة غير نافعة، وتكون عن طريق الاتّصال بالشّياطين. ونؤمن بأنّ هناك سحراً وحسداً وعيناً مؤذية، والله ﷻ يقول: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾[الفلق]، فالحاسد يضرّ بالعين بإذن الله وقد علّمنا رسول الله ﷺ أن نستعيذ بالله من شرور السّحر والعين والحاسد، وذلك بقراءة (المعوّذتين) وسورة (الإخلاص)، فنحصّن أنفسنا بسلطان الله من شرّ خلقه.

كما علّمنا رسول الله ﷺ أنّ قراءة سورة (البقرة) تحمي من السّحر والشّياطين، وأنّ البيت الّذي تقرأ فيه سورة (البقرة) لا تدخله الشّياطين، قال ﷺ: «**اقرؤوا سورة البقرة، فإنّ أخذها بركة وتركها حسرة، ولا**

تستطيعها البَطلة»[1] أي السّحرة. والمؤمن يحصّن نفسه بالقرآن ولا يتّبع الشّعوذة والأقاويل ولا يخاف من أحد ما دام يقرأ القرآن ويصلّي ويُحكم صلته مع الله، فابقوا مع القرآن، والزموا كثرة السّجود وقراءة القرآن، فهذان اتّصالان مع الله اتّصال سجوديّ بالصّلاة واتّصال كلاميّ بقراءة القرآن، وعلى المؤمن ألّا يخرج من بيته في الصّباح إلّا بعد أن يقرأ شيئاً من القرآن، فإن كان مصلّياً وتالياً للقرآن الكريم فلا يخشَ شيئاً، أمّا من يتعاطى السّحر فقد خسر دينه وآخرته.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾: إنّ من تعلّم السّحر وآذى الخلق به ليس له نصيب من الآخرة؛ لأنّه باع نفسه ودينه للشّيطان عن طريق تعلّم السّحر والشّعوذة.

(الآية ١٠٣) – ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

إنّ تحصين الإيمان والحفاظ عليه يكون بالتّقوى، والتّقوى هي الزّيادة من كلّ خير، قال سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: "التّقوى هي: الخوف من الجليل، والعمل بالتّنزيل، والرّضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرّحيل"، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة (البقرة)، الحديث رقم (٨٠٤).

مُحۡسِنِينَ ١٦﴾ [الذّاريات]، ويقول ﷻ: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٣﴾، ولم يقل: ثواباً بل مثوبة، والمثوبة من التّثويب، وهو ترديد تكبيرات الإمام في الصّلاة بعده ليَسمع النّاس، ويسمّى من يرجّع قولَ الإمام (المثوّب). والمثوبة هي إعادة العمل أفضل ممّا كان، وهو مأخوذ من الثّوب يأخذه الخيّاط الماهر فيعيده أفضل ممّا كان.

وكلمة (خير) هي الوحيدة في اللّغة العربيّة التي يساوي الاسم فيها أفعل التّفضيل، فيقال: هذا خير من هذا ولا يُقال: أخيَر، كأن نقول: زيد أخير من عمرو بل نقول: زيد خير من عمرو.

والشرّ نقيض الخير، وقد يكون أحد الأمرين خيراً والثّاني أكثر خيراً ولكنّنا لا نقول أخيَر بل نقول هذا خير من هذا..

(الآية ١٠٤) – ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾:

كانت اللّغة العبريّة التي يتحدّث بها اليهود قريبة إلى حدّ ما من لغتنا العربيّة.

﴿رَٰعِنَا﴾: تعني: راعينا أي اجعلنا في رعايتك وعنايتك، ولكنّهم كانوا يقصدون الرّعونة. وقد سمع سعد بن معاذ رضي الله عنه أحد اليهود يقول لرسول الله ﷺ: ﴿رَٰعِنَا﴾ ففهم مراده فهدّده، فخاف اليهوديّ ووعده بأن يكفّ عن قول ذلك.

﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾: أي اجعلنا محطّ نظرك.

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾: فقال اليهود: "سمعنا وعصينا"، بينما قال المؤمنون: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: جزاء من يكفر بآيات الله.

(الآية ١٠٥) – ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾:

الّذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود، وكان هناك في المدينة المنوّرة بقيّة من المشركين. وكان هؤلاء لا يودّون أن تنزل هذه الآيات على رسول الله ﷺ؛ لأنّ فيها خيري الدّنيا والآخرة، وقد أنزلها الله ﷻ على قلب نبيّ عربيّ، وما كانوا يريدون ذلك لكنّ الله تعالى يختصّ بعطائه من يشاء، وقد اختصّ بهذا القرآن نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام فضلاً منه ﷻ: ﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النّساء: من الآية ١١٣]، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢٤].

(الآية ١٠٦) – ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾:

وهنا نعرض لمسألة البَداء، والبَداء هو أن يأتي حكم ثمّ عند تطبيقه يثبت قصوره عن مواجهة القضيّة فيُعَدّل الحكم، وهذا محالٌ بالنّسبة لله تعالى، والنّسخ يختلف عن البداء فهو إزالة الحكم والإتيان بحكم آخر.

والنّسخ في اللّغة يعني: الإزالة، نقول: نسخت الشّمس الظّل، أي

أزاحته وأزالت أثره وجاء الضّوء مكانه. والنّسخ في القرآن الكريم يعني إزالة الحكم والمجيء بحكم آخر. ونقول: إنّ الله ﷻ يعلم عند أمره بحكم من الأحكام التي فيها تدرّج بأخذ المؤمنين عليها، أنّ هذا الحكم لوقت محدود ينتهي فيه ويحلّ مكانه حكم جديد، ولكنّ الظّرف والمعالجة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتّدريج، ولا يعني ذلك أنّ الله تعالى قد حكم بشيء ثمّ جاء واقع آخر أثبت أنّ الحكم قاصر فعَدَل عن الحكم إلى غيره، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، لكنّه أنْزَل الحكم على أنّه مؤقّت لمدّة زمنيّة معيّنة، وكلّ آية نُسخت أنزلها الله لتطبّق لفترة محدّدة ثمّ تعدّل، وكان ذلك معلوماً ومقرّراً عند الله منذ الأزل. ولا يكون النّسخ في آيات العقيدة ولا في الإخبار عن الله ولا في قصص القرآن ولا في الإخبار عن الجنّة والنّار، ولا في الثّواب والعقاب. فما ورد في القرآن من قصص الأنبياء لا ينسخ كما في قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾[سبأ]، ولا في الحديث عن الذّات الإلهيّة كقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الحشر]، بل يكون النّسخ في الأحكام والتّكاليف، من أجل التّدرّج في السّلوك الإنسانيّ أو للابتلاء والاختبار، أو لعلّة وغاية مؤقّتة مثل التّوجّه إلى بيت المقدس لفترة من الزّمن ثمّ جاء الأمر بالتّحوّل إلى المسجد الحرام، فقال ﷻ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[البقرة: من الآية ١٤٤]، فكان هناك هدف وغاية

من توجيه المسلمين إلى بيت المقدس لتوحيد الرّسالات السّماويّة وتألّف أهل الكتاب ولابتلاء المسلمين، فلمّا تحقّقت الغاية أعادهم للتّوجّه إلى المسجد الحرام، وكان ذلك التّحوّل مقدّراً عند الله عَزَّوَجَلَّ منذ الأزل. ولم يحدث هذا التّحوّل لأجل تحرّك قلب النّبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وتقلّب نظره في السّماء فقط، بل كان ذلك كلّه معلوماً عند الله عَزَّوَجَلَّ فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، وكانت الآية التي نُسخت خيراً في وقتها، وكان الحكم الثّاني زيادة في الخير بعد مدّة من الزّمن، وكلاهما خير في زمانه وأحكامه. والله يعلم كلّ أمر قبل وقوعه وهو سبحانه ربّ الزّمان والمكان.

هناك شبهات تثار ضدّ القرآن الكريم وهي في حقيقة الأمر عناصر قوّة في كتاب الله، (وكلّ كتاب الله عناصر قوّة)، لكنّهم حين يثيرون قضيّة ما حول آية معيّنة يتبيّن لنا أنّها مكمن إعجاز، ونستطيع أن نتغلّب بها بالعقل والفكر على من يحاجّنا في كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والنّسخ هو الإزالة، كقولنا: جاءت الشّمس فنسخت الظّلّ. وفي القرآن الكريم يعني إزالة آية والإتيان بغيرها حكماً أو لفظاً وشكلاً. وقد أثاروا قضيّة البَداء في النّاسخ والمنسوخ.

والبَداء من (بدا) ويعني أن تصدر حكماً معيّناً ثمّ بدا لك ما هو خير منه فغيّرت ذلك الحكم فنسخته وجئت بحكم آخر. وهم يقولون: إنّ الله تعالى أنزل حكماً ثمّ بدا له ما هو أفضل منه فنسخه وجاء بغيره وهذا لا يجوز في حقّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويكون هذا عند البشر ولا يكون عند ربّ البشر.

وهناك شبهة ثانية تثار: لماذا يكون هناك نسخ ما دام القائل هو الله تعالى، فلماذا تأتي آيات تنسخ غيرها، وهذا كتاب مقدّس ومبارك وعظيم فلماذا يكون فيه تغيير ونسخ؟ ونردّ عليهم من نفس نقطة الضّعف التي أرادوها نأتي بنقاط القوّة، هم قاسوا قياساً فاسداً؛ لأنّهم يقيسون كلام الله على كلام البشر، ولا يُقاس البشر على ربّ البشر، والقوانين البشريّة تتغيّر بتغيّر البيئة أو حين يتبيّن قصور هذا القانون عند تطبيقه فننسخه إذا ما بدا لنا ما هو أفضل منه، وهذا هو البداء في قوانين البشر، أي بدا لنا ما لم يكن بادياً حين وضعنا القانون فنأتي إلى تعديل القانون. ولا ينطبق هذا المعيار على قوانين الله؛ لأنّ هناك قواعدَ وأحكاماً للقرآن الكريم حدّدها لنا رسول الله ﷺ، ومن أراد تفسير القرآن الكريم فعليه أن يلمّ بعلوم كثيرة كالأحكام، وأسباب النّزول، والخاصّ والعامّ، والنّاسخ والمنسوخ، والمتشابه والمحكم... وغيرها، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النّحل: من الآية ٤٣]، وهناك آيات يُرجع في تأويلها إلى آيات أخرى كي تفهم على وجهها الصّحيح. وقد استغلّ أعداء الإسلام ثغرات عند الجهلة فوضعوا لهم الإسلام السّياسيّ، وقالوا لهم: اقتلوا المشركين، مستشهدين بآيات مجتزأة من القرآن الكريم خارج سياقها الّذي وردت فيه، ودعوا إلى مظاهر التّطرّف والإرهاب.. اقتطعوا الآيات عن سياقها ووظّفوها لمآربهم، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: من الآية ٥٧]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: من الآية ٤٤].

والنّسخ يكون في بعض الأحكام ولا يكون في مواضيع العقيدة ولا في القصص القرآنيّ الّذي شغل جزءاً كبيراً من آيات القرآن وسوره. فقصّة أصحاب الفيل التي وردت في القرآن مثلاً لا يشملها النّسخ؛ لأنّ أحداث القصّة هي هي كما وردت في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]، ولا يكون النّسخ في الإخبار عن الله عزّ وجلّ ووحدانيّته تعالى وصفاته وعن الجنّة والنّار... فالإخبار بصدق البلاغ عن الله تعالى واحد، وإنّما يكون النّسخ في بعض الأحكام فقط وليس في جميعها، والحكم حين نزل لم يكن أمره غائباً عن الله وبدا له غيره، بل الله تعالى يعلم بعلمه الكاشف الأزليّ أنّ هذا الحكم نزل لفترة زمنيّة معيّنة، وأنّه ستأتي مرحلة أخرى يكون فيها النّاس مستعدّين للحكم الّذي بعده ويكونون قد اعتادوا على الوظيفة الإيمانيّة المطلوبة منهم، ولم يكن الأمر بسبب قصور في الحكم. ومثال ذلك كما مرّ معنا في قضيّة التّوجّه إلى القبلة، فأمرهم الله تعالى أن يتوجّهوا إلى بيت المقدس أوّلاً لاختبار إيمان المسلمين وثباتهم عليه وللإشارة إلى وحدة الرّسالات السّماوية وتقريباً بين أتباعها، فأمرهم أن يتوجّهوا جميعاً نحو بيت المقدس لتأليف قلوب أهل الكتاب، وقد أراد الله هذا الحكم لمرحلة معيّنة، والله سبحانه وتعالى يعلم أنّ هذا الحكم لفترة زمنيّة معيّنة ينتهي وقتها وينتهي فيها حكم الآية ويأتي حكم آخر ينسخ السّابق وقد تبقى الآية موجودة في كتاب الله، ولكن يُنسخ العمل بها، والله يعلم أنّه سيغيّر هذا الحكم، ومثلها تحريم الخمر، فحين أنزل الله

تعالى قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النّساء: من الآية ٤٣]، كان الله تعالى يعلم أنّه ستأتي آيات تحرّم الخمر بشكل نهائيّ، ولكن كانت هناك مرحلة زمنيّة يعتاد النّاس فيها على ترك الخمر، فنسخ هذه الآية وجاء بآيات التّحريم النّهائيّ للخمر فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة]، ولكنّ الحكمة اقتضت التّدرّج في التّحريم حتّى يعتاد النّاس على ترك الخمر، إذاً هناك علّة ووظيفة للنّسخ.

وللنّسخ أنواع ثلاث هي:

النّوع الأوّل: تبقى فيه الآية في القرآن الكريم وينسخ الحكم الّذي جاءت به الآية، مثل آيات تحريم الخمر الّذي مرّ بمراحل تدريجيّة، وحين نزلت آية التّحريم النّهائيّ نسخت الآيات التي تدرّج التّحريم من خلالها فنسخ حكمها وبطل العمل بها، والحياة تتّسع وزمن النّزول استغرق ثلاثة وعشرين عاماً، وحين قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: من الآية ٣]: تكامل تنزّل القرآن الكريم وانتهى الوحي، وثبتت الأحكام بشكلها النّهائيّ.

أمّا فترة تنزّل القرآن الكريم فقد كانت تتنزّل آيات تتعلّق بغزوة بدر أو أحد مثلاً. وكان يمكن أن تنسخ عندما تنتهي الغاية من نزول هذه الآيات، ويأتي غيرها من الأحكام، وحين ينتهي وقت الآية المؤقّتة يأتي غيرها مثلها أو خيرٌ منها.

ونتساءل لماذا تبقى الآية ما دام العمل بها منسوخ؟

والجواب: هو أنّنا نتعامل مع كلام الله تبارك وتعالى فنستفيد من الشّكل والمبنى والمعنى والإعجاز، وكلّ ذلك بركة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ [ص: من الآية ٢٩]، وفي كلّ آية نتلوها لنا في كلّ حرف منها عشر حسنات، قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**»(١)، ومثالُ هذا النّوع من النّسخ آية الوصيّة للوالدين من الميراث في سورة (البقرة): ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٠]، وهذه الآية نُسخت حين نزلت آيات المواريث في سورة (النّساء) حيث جعلت للوالدين ميراثاً شرعيّاً: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النّساء: من الآية ١١]، ولا وصيّة لوارث.

وفي البدء كان هناك تدريب على الوصيّة للوالدين، فلمّا استقرّت هذه المعاني في النّفوس وصارت مستعدّة لتقبّل الحكم الّذي يليه نُسخت وجاءت آيات الإرث وحدّدت كيفيّة توزيع الشّركة.

النّوع الثّاني: أن تُنسخ الآية من كتاب الله ﷻ ويبقى الحكم: مثل آية الرّجم التي نُسخت لفظاً وبقي حكمها معمولاً به، (الشّيخ والشّيخة إذا

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، الحديث رقم (٢٩١٠).

زنيا فارجموهما البتّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم)[1].

النّوع الثّالث: أن تُنسخ الآية والحكم مثل موضوع عدد الرّضعات، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثمّ نسخن بخمس معلومات فتوفّي رسول الله ﷺ، وهنّ فيما يقرأ من القرآن[2].

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾: أي بخير منها في وقتها وكلّ آية كانت خيراً في وقتها، وننسها: تعني نسخ الإزالة، والنّسيان هو عدم تذكّر الحكم الّذي كان أو إلغاؤه، أي نسيان الحكم السّابق بمجيء حكم مماثل في الخير، أو حكم خير من السّابق، وكلّ حكم أتى من عند الله تعالى هو خير في وقته وزمانه. وكلمة خير يتساوى فيها الفعل مع الاسم وهي تفيد التّفضيل ويقال: خير وشرّ، ولا يقال أخيَر وأشرّ.

وتنتهي الآية بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦﴾، فالله قادر بأن يجعل هذا الحكم في زمان ويجعل الحكم الآخر في زمان آخر، وبقدرته كان هذا النّسخ وتغيير الحكم.

---

(١) روى النّسائيّ عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما قال: سمعت عمر يقول: "قد خشيتُ أن يطول بالنّاس زمان حتّى يقول قائل: ما نجد الرّجم في كتاب الله، فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإنّ الرّجم حقّ على من زنى إذا أحصن وكانت البيّنة، أو الاعتراف، وقد قرأناها: (الشّيخ والشّيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة)، وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده".

قال البيهقيّ: آية الرّجم حكمها ثابت وتلاوتها منسوخة، وهذا ممّا لا أعلم فيه خلافاً.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الرّضاع، باب التّحريم بخمس رضعات، الحديث رقم (١٤٥٢).

(الآية ١٠٧) – ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾:

الكلام موجّه إلى كلّ من يقرأ القرآن الكريم. وإن كان موجّهاً إلى حبيبنا المصطفى عليه الصّلاة والسّلام، فكلّ ما خوطب به رسول الله ﷺ موجّه إلى النّاس جميعاً.

والمُلك يقتضي المالِكَ والمُلْكَ الّذي يتصرّف فيه والمِلك الّذي يحكم المالِك، والله ﷻ يملك المِلك والمالِك والمُلك، وما دام المُلك لله ﷻ فالحكم له في السّموات والأرض، ويخضع لحكمه كلّ من في السّموات والأرض.

وهذا الكلام ردّ على المشكّكين وهم اليهود الّذين شكّكوا في قضيّة النّسخ وتغيير الحكم الشّرعيّ، وقالوا: إنّ المسلمين كانوا على قبلتنا واليوم توجّهوا إلى غير قبلتنا... وقد قال ﷻ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٤]، ولم يكن تحويل القبلة استجابة لتقلّب وجه النّبيّ ولرغبته في التّوجّه إلى الكعبة في الصّلاة، لكن هذه أسباب، والله ﷻ هو الّذي خلق النّبيّ ﷺ وقلبه، وهو الّذي حرّك وجدان النّبيّ وحرّك الحبّ في قلبه، فقلّب وجه النّبيّ ﷺ في السّماء لتأتي آية تحويل القبلة. والله ﷻ يعرف بعلمه الكاشف ما كان وسيكون. وحين نقول: إنّ الدّعاء يردّ القضاء فهذا يعني أنّ الله تعالى بعلمه الكاشف يعلم أنّه سيكون الدّعاء وستكون الاستجابة، ولا شيء يخرج عن علم الله ﷻ وقدرته.

(الآية ١٠٨) – ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾:

شكّك اليهود في قضيّة النّسخ في القرآن الكريم، وفي هذه الآية يخاطب الله ﷻ المسلمين فيقول لهم: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ﴾، وهنا لفتة رائعة حين جاء فعل ﴿سُئِلَ﴾ مبنيّاً للمجهول، ولم يأتِ مبنيّاً للمعلوم: (كما سألَ اليهودُ موسى)، بل أغفل كلمة اليهود؛ لأنّ الله تعالى لم يرد أن يُقارن المسلمين باليهود الّذين فعلوا ما فعلوه مع سيّدنا موسى عليه السلام، وسألوه بأن يريهم الله جهرة بعد كلّ ما جاءهم به من معجزات: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [الإسراء: من الآية ١٠١]، منها فرق البحر ونتق الجبل وإنزال المنّ والسّلوى، والعصا واليد... لكنّهم جحدوا وكفروا وسألوا موسى أن يروا الله جهرة؛ لأنّهم مادّيون.

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: والباء من: ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وأمثالها تدخل على المتروك، فمن اشترى شيئاً بمئة ليرة يكون قد ترك المئة ليرة وأخذ الشّيء الّذي اشتراه، ومن أخذ الكفر وترك الإيمان فقد ضلّ. وعندما يتحدّث القرآن عن الكفر والإيمان فهو يتحدّث عن عقيدة وفكر، ولا يتحدّث عمّا يترتّب على ذلك، ولا علاقة لذلك بالقتل. فالكفر معناه السّتر والجحود وليس ما أرادته الحركات الإرهابيّة من قتل وإجرام، حتّى عبارة الأذان (الله أكبر.. الله أكبر) التي هي شعار لدعوة المسلمين إلى الصّلاة، وتأكيد بأنّ أمر الله أكبر من كلّ شيء، استخدمها الإرهابيّون

للدّعوة إلى القتل والإرهاب. والكفر اعتقاد، وهو مقابل الإيمان. وفي شرع الله ﷻ لا يجوز لأحد أن يُلزم غيره باعتناق الإسلام، قال ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، وقال ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، وهذه حريّة اعتقاد، فمن اختار الكفر وترك الإيمان فقد ضلّ الطّريق، وانحرف عن جادّة الصّواب.

(الآية ١٠٩) – ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾:

نزلت هذه الآيات بعد غزوة (أحد) حيث اعتقد اليهود أنّ المسلمين قد هزموا، والهزيمة هي أن تخسر الأرض وتخسر المعركة، والمسلمون لم يخسروا أرضاً ولا معركة في أُحُد، إلّا أنّ الرّماة خالفوا أمر رسول الله ﷺ حين أمرهم بعدم مغادرة الجبل المشرف على أرض المعركة، فنزلوا منه ظنّاً منهم أنّ المعركة قد انتهت، فأراد الله تعالى أن يجعل من هذه المخالفة درساً لتعليمهم الإيمان والطّاعة. وقد ودّ كثير من أهل الكتاب، أي أرادوا وأحبّوا أن يردّوا المسلمين عن دينهم إلى الكفر وقالوا لهم: لو كان نبيّاً لما هُزِم ولَمَا هُزمتم معه. وفي الآية: ﴿كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ولم تأت (كلّهم)؛ لأنّ فيهم من أسلم واتّبع النّبيّ ﷺ، فلم يكن التّعميم. أمّا الّذي دفع اليهود إلى أن يتمنّوا ارتداد المسلمين عن دينهم فهو حسد نشأ من أنفسهم لم يأمرهم به دينهم، كما

قال ﷻ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ هم يعلمون أنّ المسلمين على دين حقّ، ورد ذلك في توراتهم، لكنّهم يريدون إعادتهم إلى الكفر حسداً. والحسد يضرّ المحسود بأمر الله، وقد ثبت في كتاب الله أنّ للحسد ضرراً وشرّاً، قال تبارك وتعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق]، وعلّمنا رسول الله ﷺ الوقاية من الحسد بقراءة المعوّذتين ونفثها.

والحسد: تمنّي زوال النّعمة عن الغير وإن لم تنتقل النّعمة إلى الحاسد، فالحاسد يسوؤه أن يملك المحسود مالاً أو منصباً أو متاعاً من متاع الدّنيا ويتمنّى أن تزول عنه حتّى وإن لم تأت هذه النّعم إليه. والحاسد يضرّ المحسود بقدر الله؛ لأنّه لا يخرج شيء في ملك الله عن قدره، كما أنّ الأفعى تؤذي الإنسان إذا لدغته بقدر الله، فلا شيء يخرج عن قدر الله تعالى.

﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾: بهذا أمر الإسلام، بالعفو والصّفح، ولم يقل: اقتلوا واذبحوا، رغم أنّ اليهود حاولوا تخذيل المسلمين عن نبيّهم وإبعادهم عن دينهم، وكانوا يتمنّون هزيمتهم، لكنّ ديننا دين العفو والصّفح. ورغم كلّ ما أراده الحاسدون بالمسلمين من ضرر وأذى فقد أمرهم الله تعالى بالعفو والصّفح، وفي آيات أخرى قال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤﴾ [فصّلت: من الآية ٣٤]، وقد حاول أعداء الإسلام أن يظهروه دين حقد وكراهية وإرهاب وقتل وليس في الإسلام شيء من ذلك، وكلّ ما اتُّهِم به الإسلام كان زوراً وبهتاناً، والإسلام يطلب العفو والصّفح عن المسيء، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشّورى]، وقال الله تعالى

مخاطباً النّبيّ ﷺ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[النّحل]، هذا هو الإسلام. والفرق بين العفو والصّفح هو: أنّ العفو يعني الإزالة، كقولنا: عفت الرّيح الأثر، أي جاءت الرّيح ومحت الأثر، وهو إزالة الأثر الظّاهريّ في مشكلة معيّنة مع أحد النّاس، وربّما مع بقاء شيء في النّفس، أمّا الصّفح فهو قلب الصّفحة تماماً ونسيان الذّنب والإساءة، فلا يعود يخطر منه في البال شيء.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فلا بدّ من أن يأتي أمر الله ﷻ بالنّصر عليهم، ولا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، فهو وحده القادر على كلّ شيء.

(الآية ١١٠) – ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾:

الردّ على ما يفعله اليهود وغيرهم من محاولة ردّ المسلمين عن إيمانهم ودينهم، هو الأمر بالصّلاة والزكاة، وقد جاء هنا بالصّلاة والزكاة وهما من أركان الإسلام.

﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فالصّلاة عماد الدّين، من أقامها أقام الدّين، ومن هدمها فقد هدم الدّين. والعبادات في الإسلام غير الأركان، وكلّ عمل ترجو فيه مرضاة الله فهو عبادة، أمّا الأركان فهي خمسة، وأوّلها بعد الشّهادتين الصّلاة. والصّلاة هي إعلان استدامة الولاء لله على مدار ساعات اليوم واللّيلة من خلال خمس أوقات فيهما، قال ﷻ: ﴿وَأَقِمِ

﴿ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: من الآية ١١٤]، وقال ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾[طه: من الآية ١٤]، وقال ﷻ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾[الإسراء]، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصّلاة؛ لأنّ فيها إعلان استدامة الولاء لله. ومفتاح الصّلاة (الله أكبر)، ولا تقبل الصّلاة بدونها، فالله أكبر من نفسي ومن همّي ومن شغلي ومن عدوّي.. والله أكبر من كلّ شيء، وحين ينادي المنادي: (الله أكبر.. الله أكبر) فهو يدعو بأعظم نداء إلى أعظم العبادات، أي أعلن استدامة ولائك لله واترك كلّ شيء وائت إلى الصّلاة.

وكلّ الفرائض قد تسقط عند عدم الاستطاعة إلّا الصّلاة، فالصّوم يؤجّل لمن كان مريضاً أو على سفر، والحجّ لمن استطاع إليه سبيلاً، والزكاة تسقط عمّن لم يمتلك النّصاب، لكنّ الصّلاة لا تسقط بحال من الأحوال، فمن لم يستطع الصّلاة قائماً فقاعداً أو مستلقياً أو يومئ بعينيه أو يجري أفعال الصّلاة على قلبه، ولا تسقط الصّلاة عن المسلم في أيّ حال؛ لأنّك لا يمكن أن تسقط ولاءك لله؛ لأنّ فيها (الله أكبر)، وفيها العبوديّة لله. ولن تكون حرّاً أبداً إذا لم تكن لله عبداً، فإمّا أن تكون عبداً لبشر مثلك أقوى منك أو للمال أو لخفايا نفسك أو لأهوائك... أو أن تكون عبداً لخالقك فتتحرّر من عبوديّة سواه. فإذا كنت عبداً لله كنت سيّداً بين البشر؛ لأنّك لن تخاف إلّا الله، ولا يجتمع في قلب العبد مخافتان، مخافة الله ومخافة البشر؛ ولأنّك تعلم أنّه لا يضرّ ولا ينفع ولا يصل ولا يقطع إلّا الله ﷻ.

وكما قال الشّاعر:

حسب نفسي عزّاً أنّي عبدُ يحتفي بي بلا مواعيد ربُّ

والصّلاة -وهي أحد أركان الإسلام الخمسة- بينها وبين الأركان الأربعة الأخرى علاقة مشتركة، فالتّوجّه إلى القبلة (بيت الله الحرام) في الصّلاة يُشبه الحجّ إليه، وأنت في الصّلاة تمتنع عن الطّعام والشّراب وهذا رمز للصّوم، وفي الصّلاة ترديد للشّهادتين (أشهد ألّا إله إلّا الله، أشهد أنّ محمّداً رسول الله)، وهذا هو الرّكن الأوّل من أركان الإسلام، كذلك الزكاة مشتملة في الصّلاة؛ لأنّ في الصّلاة صرف لجزء من الزّمن في سبيل الله، وفي الزّكاة صرف لجزء من المال في سبيل الله، فكأنّك تدفع من مالك لتقف في الصّلاة.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: وقد فرضت الزكاة على المسلم كي يتعدّى نفعه إلى غيره، ولا تفرض الزكاة إلّا على من كان كسبه أكبر من حاجته، وأداء الزّكاة يدفع صاحب المال للعمل به فيفيد هو وغيره من حركة ماله. فالزكاة تؤدّي إلى توسيع حركة المسلم في الحياة وتحقيق التّكافل الاجتماعيّ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج]، فهي حقّ وليست منّةً ولا عطاءً. والعفو والصّفح وإقامة الصّلاة وأداء الزكاة وكلّ ما نفعل من خير للغير يعود علينا، فهو لأنفسنا، فنحن لا نقدِّمه لله ﷻ بل نقدّمه لأنفسنا، وقد جاء في الحديث القدسيّ: «**يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد**

ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»[1] فكلّ ما تفعله من خير للغير يعود نفعه عليك؛ لأنّ فيه الثّواب، والثّواب من الثّوب الّذي يأخذه الخياط فيعيده أفضل ممّا كان. كذلك يضاعف الله ﷻ الحسنات، قال ﷺ: «**من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيّب، ولا يقبل الله إلّا الطيّب، وإنّ الله يتقبّلها بيمينه ثمّ يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه حتّى تكون مثل الجبل»**[2].

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٠﴾: هذا يبعث الطّمأنينة عند المؤمن؛ لأنّ حركة حياته هي ثواب وأجر عند الله تعالى، وكفى بالله حسيباً: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة]، ولا أحد يستطيع أن يأتي بمثقال الذرّة إلّا الله وهذا يطمئنك أنّ الله تعالى يرى عملك ويحصيه لك مهما صغر.

(الآية ١١١) – ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١١١﴾:

هذه قضيّة عقيدة، وحين ترى آية فيها ذكر اليهود والنّصارى عليك أن تفرّق بين اليهود من جهة وبين النّصارى من جهة أخرى بحسب موقفهم

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل إلّا من كسب طيّب، الحديث رقم (١٣٤٤).

من المسلمين. وهناك من يحاول أن يشوّه العلاقة بين الإسلام والمسيحيّة، وحين تحدّثت الآيات عن أهل الكتاب جرّمت اليهود وذكرت عداءهم للمسلمين فقال ﷻ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾ [المائدة: من الآية ٨٢]، أمّا حين تحدّثت عن النّصارى فقد أعطت حكماً عامّاً فقال ﷻ: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: من الآية ٨٢]، وكلّ ما ورد في القرآن عن اليهود كان تقريعاً لهم، أمّا النّصارى فقد امتدحهم القرآن الكريم. وما جاء في هذه الآية فهو توصيف لحالة أناس وأشخاص وليس تعميماً، وهذه حريّة اعتقاد والله ﷻ يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، وديننا يكرم السيّد المسيح وأمّه السيّدة مريم العذراء، وقد جاءت في القرآن الكريم سورة باسم (آل عمران) منها قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ [آل عمران: من الآية ٣٥]، وامرأة عمران هي جدّة السيّد المسيح ووالدة السيّدة مريم، ولا يمكن لمسلم أن يسيء للمسيحيّين أو لمعتقدات المسيحيّة أو الكنيسة ويدّعي أنّه يجد ذلك في القرآن الكريم. وإذا كان اليهود والنّصارى يرون أنّه لن يدخل الجنّة إلّا من كان على دينهم فهذا أمرٌ اعتقاديّ وطبيعيّ، وقد كانت مجموعة من كلّ فريق تقول ذلك، وهي قضيّة تحتاج إلى برهان، ولسنا نحن من نحدّد فالحكم لله. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: من الآية ١١١]، وأيّة قضيّة تحتاج إلى برهان، حتّى قضيّة الدّخول إلى الجنّة.

(الآية ١١٢) - ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾:

﴿مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ﴾: ذكر الوجه؛ لأنّه أشرف شيء في الإنسان، وهكذا أجاب القرآن على مزاعمهم، فمن أسلم وجهه لله فهو المقبول عند الله بشرط الإحسان، ولا يقبل ذلك من غير إحسان، بل يجب أن يكون محسناً لا مسيئاً، فلا تكفي الصّلاة والصّيام مع عقوق الوالدين والإفساد والكذب والسّرقة وقتل من يخالفنا في الرّأي، ولا تجوز الإساءة لأحدٍ أبداً سواء كان مسلماً أم غير مسلم، فمن حقّق الإحسان بشروطه فله أجره عند ربّه، والله تعالى يفصل بين النّاس يوم القيامة، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحجّ]، ولسنا قضاة لنحاسب النّاس على معتقداتهم، بل نحترم معتقدات النّاس كي يحترموا معتقداتنا ولسنا نحن من يعطي الأجر فالأجر من الله ﷻ. والفرق بين الخوف والحزن هو أنّ الخوف يكون من المستقبل مثل عدوّ يتهدّدنا.. أمّا الحزن فهو على شيء وقع من مرض أو نقص مال أو فقدان عزيز.

(الآية ١١٣) - ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾:

في الوقت الّذي جاء فيه الإسلام كانت هناك ديانتان، هما اليهوديّة والمسيحيّة، ومن الطّبيعيّ أن يقول كلّ فريق عن الآخر: بأنّه ليس على شيء. وقد سجّل التّاريخ مواقف للمسيحيّين مع المسلمين، منها حماية النّجاشيّ ملك الحبشة للمسلمين وإيواؤهم، وكان نصرانيّاً، وحين جاءت جيوش الفتح إلى الشّام وقف المسيحيّون إلى جانب المسلمين لطرد الرّوم من بلاد الشّام، وكيف وقف المسيحيّون مع صلاح الدّين الأيوبيّ، فالحضارة التي بنيت في هذه البلاد بناها المسلمون والمسيحيّون، ونحن لا نقبل من أحد أن يسيء إلى المسيحيّين بتفسير منحرف، وكتابنا الكريم كرّم النّصارى كما كرّم السيّد المسيح عيسى ابن مريم وأمّه.

أمّا أمور العقائد فإنّها تترك لربّ النّاس، وهو الّذي يحاسب النّاس على عقائدهم، وإن اختلف النّصارى واليهود فيما بينهم فالله يحكم بينهم ولسنا نحن من يحكم.

(الآية ١١٤) – ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾:

الجواب: لا أحد أظلم، وهذا استفهام استنكاريّ، والمساجد هي بيوت الله، وقد قال ﷻ في بعض الكتب: «**إنّ بيوتي في أرضي المساجد، وإنّ زواري فيها عمّارها، فطوبى لعبد تطهّر في بيته ثمّ زارني في بيتي،**

فحقّ على المزور أن يُكرم زائره»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[2]، فالمسلم إذا أدركته الصّلاة يمكن أن يصلّيَ في أيّ مكان، أمّا المسجد فهو المكان الّذي حُدِّد في قطعة من الأرض تعارف عليه النّاس ليجعلوه بيتاً للصّلاة فيه، وذلك باختيارهم، والبيت الّذي اختار الله تعالى مكانه هو المسجد الحرام، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[آل عمران]، فالله وضعه للنّاس ولم يضعه النّاس.

ودور المساجد التي حدّدها المسلمون لكي تكون بيوتاً لعبادة الله هو أن تصدر أنوار الله تعالى إلى النّاس، وقد قال ﷻ في سورة (النّور): ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النّور: ٣٦]، وهي أماكن السّجود، والسّجود هو أشرف وقت يستجاب فيه الدّعاء؛ لأنّ العبد أقرب ما يكون من ربّه وهو ساجد. وسمّيت بالمساجد؛ لأنّ النّاس يسجدون فيها لله، ولا يُمارس في المسجد عملٌ إلّا لله، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[الجنّ]، وتخريب المساجد لا يكون فقط بتخريب العمران والبنيان، بل يكون بتخريب الإنسان، مثل مسجد الضّرار الّذي أسّسه المنافقون في عهد رسول الله ﷺ للإضرار بالمسلمين فأمر ﷺ بهدمه. وقد يأتي في عصرنا من يستغلّ المسجد للدّعوة إلى القتل والتّخريب، وهؤلاء هم الّذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، ولا أظلم منهم ولا من عملهم؛

---

(١) فيض القدير: حرف الهمزة، الحديث رقم (٢٢٥٨).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب التّيمم، الحديث رقم (٣٢٨).

لأنّهم سعوا إلى خراب المساجد وعطّلوا دور الخير والنّور فيها، وقد قال ﷺ: «**من سمع رجلاً ينشد ضالّة في المسجد فليقل: لا ردّها الله عليك فإنّ المساجد لم تُبْنَ لهذا**»(١)، مهما كانت الضّالّة والمطلب، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[التّوبة: من الآية ١٨]، والمقصود عمارة الإنسان وهو أسمى رسالةٍ للمسجد، وهي رسالة الخير للغير ورسالة العطاء والنّور.

(الآية ١١٥) – ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾:

كانت الآية التي سبقتها تتحدّث عن المساجد، وللمساجد آدابٌ وأحكام، والمساجد هي: بيوت الله في الأرض وزوّارها عمّارها كما يقول حبيبنا رسول الله ﷺ.

والمسجد هو قطعة من الأرض تقتطع بتعارف البشر وتحدّد لتكون مكاناً لمباشرة العبادة، ولكي تكون مسجداً لله، فلا يباشر فيها أيّ عمل آخر، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجنّ]، وهي باختيار البشر لا باختيار ربّ البشر، والمسجد الّذي كان باختيار ربّ البشر هو الكعبة المشرّفة في مكّة الّذي قال تبارك وتعالى فيه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَٰرَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]، والمسجد الّذي يبنيه البشر متعارف

---

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، باب النّهي عن نشد الضّالّة في المسجد وما يقوله من سمع النّاشد، الحديث رقم (٥٦٨).

عليه أنّه بيت لله مبني للعبادة، ومن أحكام المساجد أنّها تبنى باتجاه البيت الحرام فتتّجه باتّجاه البيت الأوّل الّذي هو القبلة، أي الكعبة المشرّفة وتتّجه الصّلاة في المسجد باتّجاه الكعبة المشرّفة، ويكون اتّجاه المحراب نحو جهة القبلة، واعتقد بعض النّاس أنّ وجه الله تعالى لا يكون إلّا في هذا الاتّجاه. وأراد الله تعالى أن يقول لهم إنّه تعالى موجود في كلّ مكان، وليست القضيّة قضيّة اتّجاهات، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: من الآية ١١٥]، وتجلّيات ربّكم موجودة في كلّ الاتّجاهات، وهو معكم أينما كنتم، فقال جلّ وعلا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: من الآية ١١٥]، فلماذا لم يقل الشّمال والجنوب؟ الجواب: أنّ كلّ الاتّجاهات تحدّد باتّجاه المشرق والمغرب، وإذا حدّدت المشرق والمغرب، أي شروق الشّمس وغروبها تحدّد لديك الاتّجاهان الآخران الشّمال والجنوب.

وفي كلّ بلد مشرق ومغرب، وفي أيّ جزء من الكرة الأرضيّة كنت لا بدّ إذا أردت أن تصلّي أن تتّجه إلى جهة مكّة جهة المسجد الحرام، فتكون عمليّاً قد أخذت كلّ الاتّجاهات؛ لأنّها متضمّنة في المشرق والمغرب، فهذه الملكيّة على الاختصاص، أي ليس لغير الله أن يملك المشرق والمغرب فهو تعالى يملك كلّ الاتّجاهات، ولهذا قال ﷺ: «**وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»[1]، أي أنّك حيث تكون فثمّ وجه الله وهو سبحانه معنا أينما كنّا. فلماذا نوجّه المساجد باتّجاه القبلة؟ ولماذا لا تصحّ الصّلاة إلّا باتّجاه القبلة؟

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّيمّم، الحديث رقم (٣٢٨).

ولماذا كان التّوجّه إلى القبلة شرطاً من شروط صحّة الصّلاة، ما دام الله تعالى يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: من الآية ١١٥]؟ الجواب: هو أنّ الله ﷻ أراد انضباطاً في حركة الإنسان حين يقف بين يديه ويتوجّه إليه، ولا يريد أن يترك حركة الإنسان فوضويّة عشوائيّة. تصوّر أن تدخل مسجداً وترى كلّ مصلٍّ يتوجّه إلى جهة، فلا تتحقّق وحدة العبوديّة من خلال هذه التّفرقة ولا تتحقّق الوحدة إلّا بأن يتّجه الجميع إلى جهة واحدة، ولا تتحقّق وحدة العبوديّة إلّا بتوحيد الاتّجاه والانضباط، والله ﷻ يريد وحدة هذه الأمّة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء]، وعندما تصلّي عليك أن تكبّر وتقوم وتركع وتسجد ثمّ تسلّم... فلماذا كان للصّلاة شروط وأركان كالتّكبير والركوع والسّجود؟ لماذا كانت صلاة الفجر ركعتين وغيرها أربع ركعات؟ فلا بدّ من عمليّة انضباط في تأدية الفرائض لله. وهذه العمليّات يحدّدها الله والحكمة فيها تبقى لله وأنت تلتزم بأمره فصلاة الفجر فرضت ركعتين، فلا تقل: أنا أحبّ أن أزيد وأصلّي الفجر ثلاث ركعات والله ﷻ طلب منك ركعتين لحكمة يعلمها هو، وأنت حين تصلّي ركعتين فأنت تصلّي ليس منّة وتفضّلاً منك بل لإرضاء الله وتحقّق الالتزام بأوامر الله، فالالتزام انضباط وفق ما أمر الله. وقد حدّد الله تعالى اتّجاه الانضباط للنّاس عندما يريدون أن يقفوا بين يديه مصلّين، وعندما تريد أن تؤدّي فريضة أو تدخل فريضة الصّلاة لا بدّ من أن تنضبط وفق الضّوابط التي شرّعها الله، ومن ضمنها اتّجاه القبلة لتوحيد النّاس.

وعلامة الإسلام هو التّوحيد وليس التّفرقة؛ لأنّ الإسلام دين التّوحيد وكلمة التّوحيد (لا إله إلّا الله) هي توحيد الكلمة. ومن ضمن توحيد الكلمة صلاة الجماعة، ولها انضباط معيّن، يقول الإمام للمصلّين: "استووا إلى الصّلاة يرحمكم الله، اعتدلوا وسووا صفوفكم فإنّ تسوية الصّفوف من إقامة الصّلاة".. وبهذا يلتزم المأمومون. إذاً هي أوامر وضوابط سلوكيّة يحدّدها الله، وليست القضيّة فقط في المسجد، وفي أيّ مكان توجد تجليّات الله ﷻ وهي تتّسع لكلّ كونه ولكلّ ملكه وملكوته، وهو عليم بخلقه وأنت من ضمن خلقه.

(الآية ١١٦) – ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾:

قال مشركوا مكّة: إنّ الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النّصارى: المسيح ابن الله، فهناك أقوال متعدّدة واعتقادات متعدّدة، والقضيّة العقديّة تنضبط تحت عنوان احترام عقائد النّاس، وأراد الله تعالى أن يبيّن موقف الإسلام ممّا يقولون، وهذه قضيّة عقيدة، وكلّ دين له عقيدة، والإسلام له عقيدة. أنت لا تقاتل النّاس على عقائدهم، وقد ترك الله تعالى حريّة الاختيار للإنسان: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس]، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية]، ونحن حين ندعو إلى الله أو ندعو إلى عقيدتنا لا نحاسب النّاس على عقائدهم، بل العقيدة السّليمة التي نادى بها الإسلام

أن يكون الجواب على ما يقولون هو قولنا: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: من الآية ١١٦]، فالجواب كلمة واحدة لا أكثر: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، والتّسبيح هو تنزيه للذّات الإلهيّة في الأفعال وفي الصّفات، وهذا كلّه في مجال العقيدة. وكلّ شيء يخطر في بالك فالله بخلاف ذلك. وهذا معنى ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾: أي نزّه الله عن كلّ ما يخطر في بالك، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، وأنت لك سمع وبصر، والله تعالى سميع بصير، لكنّ سمع الله تعالى وبصره غير سمعك وبصرك، وحين يتحدّثون عن صفات لله، عن أولاد وبنات لله، عن أفعال تنسب لله يكون الجواب بالنسبة لعقيدة المسلم: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، وكلّ فعل وصِفَةٍ لله ﷻ تختلف عمّا هو عند البشر. والله ﷻ حيّ وأنت حيّ لكنّ حياته غير حياتك، فأنت تموت والله حيّ لا يموت، أنت قادر والله قادر، لكنّ قدرته تعالى تختلف عن قدرتك، وهذا معنى ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾.

وفي كلّ الأفعال التي فيها إعجاز ولا يستطيع البشر أن يأتوا بمثلها تسبقها كلمة: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [يس]، فهذا الخلق يحتاج إلى سبحان الله؛ لأنّه لا يستطيع أحد غير الله أن يخلق مثله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الرّوم]، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: من الآية ١]، وكلّ هذه الأفعال سبقتها كلمة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾، ففعل الإسراء يحتاج إلى كلمة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾، ولا يمكن أن ننسب لله تعالى ما ننسب للبشر، والله تعالى

يقول: ﴿بَلْ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: من الآية ١١٦]، إذن المِلْكية تنفي الوَلَديّة؛ ولأنّه يملك كلّ شيء لا يمكن أن يكون له بناتٌ ولا بنون، ولا يمكن أن يكون له يد، لكن نقول: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: من الآية ١٠]، سبحان الله.. ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطّور: من الآية ٤٨]، نقول: سبحان الله، ليس كمثله شيء. وهذا حديث في العقيدة، ونحن لا نجبر النّاس على عقيدتنا كما لا نرضى أن يجبرنا أحد على عقيدته، والحساب لا يكون على العقائد بل على السّلوكيّات، فمن يخالفني في العقيدة ليس عدوّاً لي، ولا تنشأ العداوة من العقائد بل من السّلوكيّات: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٤]، ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التّوبة: من الآية ٣٦]، فمن قاتلني أقاتله، ومن اعتدى عليّ أعتدي عليه، ولكن إن خالفني في العقيدة أقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، ولا نعتدي على عقائد الآخرين. فلهم حريّة الاعتقاد ولنا حريّة الاعتقاد.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: أي كلّ خلقه له خاضعون، عابدون.

(الآية ١١٧) – ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾:

وانظر إلى جمال وعظمة القرآن، والبديع يعني إتقاناً ليس له مثيل، خلق السّموات والأرض وخلق النّاس على غير مثال سابق. وأيّ خلق وأيّ صناعة على وجه الأرض فإنّما تصنع وفق مثال سابق، فلو أردت مثلاً أن

أصنع آنية من زجاج لا بدّ لي من مثال أصنع مثله وفق قالب معيّن كي أصنع مثله. والبديع ﷻ يخلق من غير قالب، يخلق بكلمة ﴿كُن﴾، وأكبر دليل على ذلك خلق سيّدنا آدم، فهو لم يخلقه على قالب، وقد خلق المليارات من ذرّيته كلّهم لهم وجه ورأس ويدان ورجلان... ولكن ليس هناك إنسان يشبه الآخر، وقد نقول: إنّ البشر متشابهون، ولكن هناك اختلاف في الجينات الوراثيّة، في بصمة الإصبع، في بحّة الصّوت، في بصمة العين.. فلا يوجد إنسان يشبه الآخر على الإطلاق، فهو مخلوق بكلمة ﴿كُن﴾ وليس بالقالب، وهذا هو البديع، ولو كان الخلق بالقالب لكان البشر مثل بعضهم بعضاً.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: اللّغة العربيّة وعاء لكلام الله تعالى، وفيها كلمات لها معان متعدّدة ومنها كلمة: ﴿قَضَىٰٓ﴾ لها معنى جامع وهو أنّه أمر مبرم، مأخوذ من القضاء، والقضاء حكم قاطع. وتأتي كلمة قضى بمعنى انتهى، ومنه قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: من الآية ٢٠٠]، وبمعنى حكم وأمر وقضى قضاءً مبرماً: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾[الإسراء: من الآية ٢٣]، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾[يس]، أي حكم بأمر، ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾[الزّخرف: من الآية ٧٧]، أي ليهلكنا، ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[طه: من الآية ٧٢]، أي افعل ما تريد حين قال سحرة فرعون له ذلك.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: وكيف يقول له

﴿كُن﴾ قبل أن يُخلق؟! كأن يقول له: يا أحمد كن، فكان أحمد، فهو مخلوق في علم الله، أنت لا تعلمه وهي أمور يبديها ولا يبتديها، وكلّ شيء في علم الله، رفعت الأقلام وجفّت الصّحف، وكلّ شيء موجود فهو معلوم في علم الله، وكلّ شيء كائن في علمه، وإنّما له وقت. سئل سيّدنا الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أبا الحسن، كيف يحاسب الله النّاس في وقت واحد؟ قال: كما يرزقهم في وقت واحد.

(الآية ١١٨) – ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾:

هذه الآية تذكّرنا باليهود الّذين قالوا: أرنا الله جهرة. وبكلّ الأقوام السّابقين الّذين طلبوا آيات شرطاً لإيمانهم، ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾ [الشّعراء: من الآية ١٥٤]، والله عز وجل لا يمكن أن يكلّم أحداً من البشر إلّا من وراء حجاب، والطّبيعة البشريّة لا تتلقّى عن الذّات الإلهيّة مباشرة، وحين طلب موسى عليه السلام رؤية ربّه تجلّى ربّه للجبل فجعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً، فلا بدّ من أن تتلقّى عن الله من وراء حجاب أو عن طريق مَلَك، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشّورى].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾: مثلما قالوا لجميع الأنبياء، ولم يقل: تشابهت أقوالهم، بل قال: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾؛ لأنّ القلب

منبع السّلوكيّات وهو مكان العقيدة، وقد قال النّبيّ ﷺ: «**ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**»[1]، فالقلب مناط العقيدة، والعقيدة تتوازن في العقل الّذي يفكّر فيها ثمّ يعتقد ثمّ تنزل على القلب الّذي يربط عليها فتصبح عقيدة، عُقدَ عليها فصارت عقيدة.

(الآية ١١٩) – ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾:

حين يتحدّث الله ﷻ عن أمر فيه أفعال يقول: ﴿إِنَّا﴾: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾[الحجر]، وهذه نون العظمة التي تجمع كلّ الصّفات التي يسخّرها الله ﷻ للفعل بقدرته وبعلمه وبحكمته وبعظمته.. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾[المؤمنون: من الآية ١٨]، أمّا حين يتحدّث عن العبادة يكون إفراد العبوديّة بالمفرد ﴿إِنَّنِيٓ﴾، قال ﷻ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه]، وحين يتحدّث عن الأفعال يكون بنون جمع الصّفات وهي نون العظمة: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ [الحجر: من الآية ٩].

وهنا يقول: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمّد، ما هي مهمّتك؟ لم يقل: مجبراً ومكفّراً وقاتلاً، ونحن نأخذ الإسلام من القرآن وأفعال رسول الله ﷺ وصحبه وآل بيته الكرام رضي الله عنهم.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، الحديث رقم (٥٢).

﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾: والحقّ هو الأمر الثّابت الّذي لا يتغيّر بمرور الزّمن، فإذا قلت إنّ كأس الماء هذا مصنوع من الزّجاج، ولو سألتني عنه بعد عام أقول لك الكلام نفسه. أرسلناك بالحقّ؛ لأنّك مبعوث من الحقّ إلى الخلق، ومهمّتك أن تبشّر النّاس وتنذرهم. والتّبشير يكون بشيءٍ سارٍّ قادم، والإنذار يكون بشيء غير سارٍّ قادم. فمهمّته ﷺ ليست هي الإجبار والإكراه، بل أن يبشّر المؤمنين بالجنّة وينذر الكافرين بالنّار جزاءً لأعمالهم، ومهمّتك أن تبلّغهم وتبشّرهم وتنذرهم، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم فهم يختارون ما يريدون. والصّاحب هو الّذي يختار صاحبه، وليست مهمّتك أن تجبرهم على الدّين والإيمان كما يفعل التّكفيريّون، بل أن تذكّرهم وتبشّرهم وتنذرهم: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾[الغاشية]، وهم يختارون ما يريدون، وهذا القول لسيّد الخلق وأتباع سيّد الخلق.

(الآية ١٢٠) – ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٢٠﴾:

حين نزل القرآن كان بعض النّاس على اليهودية وبعضهم على النّصرانيّة، وقد وضع الشّرع القواعد في التّعامل مع النّصارى واليهود. فلا يزاودنّ أحد على الإسلام وعلى هذا الدّين، واليهود أهل كتاب وهي التّوراة التي جاء بها سيّدنا موسى عليه السلام، والنّصارى أهل كتاب وهو الإنجيل الّذي جاء به سيّدنا عيسى عليه السلام، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ

﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ [المائدة: من الآية ٨٢]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: من الآية ٨٢]، فالعلاقة مع المسيحيين علاقة طيّبة، طبيعتها المودّة والرّحمة، والعداوة تكون مع اليهود، وهذا أمر مقطوع به. وكلّ إنسان يختار الدّين الّذي يقتنع به، وكانت علاقة النّصارى مع النّبيّ ﷺ علاقة ممتازة من خلال النّجاشيّ ووفد نصارى نجران. أمّا اليهود فقد مكروا ودمّروا وقتلوا ونقضوا العهود ودبّروا المكائد للإسلام وللمسلمين. وقال الله ﷻ لرسوله محمّد ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ ولم يقل له: اقتل، قل يا محمّد: إنّ هدى الله هو الهدى.

(الآية ١٢١) – ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾:

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هو التّوراة.

﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: يتّبعونه حقّ الاتّباع ويمتثلون أوامره، إضافة لقراءته حقّ القراءة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾: يؤمنون بما ورد في التّوراة عن الرّسول ﷺ.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: هم الّذين يجحدون ويخفون ما ورد في التّوراة، فأولئك هم الخاسرون.

(الآية ١٢٢) – ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾:

الخطاب للذين ينتسبون إلى نبيّ الله يعقوب عليه السلام، وقد فضّلهم الله

بذكر أوصاف محمّد عليه الصّلاة والسّلام في التّوراة، والدّليل على ذلك الآية التي قبلها، حيث لم تُذْكَر صفات النّبيّ محمّد ﷺ في أيّ من الكتب السّماويّة كما ذُكرت في التّوراة.

(الآية ١٢٣) – ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾: اجعلوا بينكم وبين ذلك اليوم حاجزاً.

ولن يُنصروا في ذلك اليوم؛ لأنّهم كذّبوا بمحمّد ﷺ.

(الآية ١٢٤) – ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾:

لمّا كان اليهود يشكّكون في موضوع القبلة عاد القرآن الكريم للحديث عن سيّدنا إبراهيم عليه السلام، وكيف أنّ الله ابتلاه وامتحنه. والامتحان كما يكون بالشرّ يكون بالنّعمة والخير، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٥]. والاصطفاء يكون بعد الابتلاء، فقد يبتليك ليصطفيك ويرفع مقامك عنده.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ﴾: وإذ امتحن.

امتحنه ليصطفيه، فالاصطفاء يكون من خلال امتحان وبعد ابتلاء ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾[النّجم].

﴿بِكَلِمَٰتٖ﴾: والكلمات تتضمّن أوامر، ووفّى إبراهيم فجعله الله تعالى إماماً وقائداً للبشريّة من بعده، فالإمامة لا تأتي إلّا بعد ابتلاء. وأهمّ

الابتلاءات التي واجهت إبراهيم هو ابتلاؤه بالحرق بالنّار، والابتلاء الآخر هو أمر الله له بذبح ابنه إسماعيل. وعندما انقاد إبراهيم واستسلم لأمر الله جعله الله للنّاس إماماً في الدّين والقيم، وهو يريد الخير لأبنائه وذريّته، شأنه في ذلك شأن كلّ أب.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾: فاستثنى الله الظّالمين من أولاد إسحاق عليه السلام.

(الآية ١٢٥) – ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾:

﴿ٱلْبَيْتَ﴾: البيتوتة: الرّاحة والسّكن والاطمئنان.

﴿مَثَابَةً﴾: المثابة: المرجع، وكلّ من يزور البيت يتمنّى أن يرجع إليه، والمعنى الآخر هو أنّ من يدخل البيت تتوق نفسه للعودة إليه.

﴿وَأَمْنًا﴾: هذا أمر تكليفيّ وليس أمراً إخباريّاً، فالله تعالى يأمرنا أن نؤمّن من دخل البيت، ولا يجوز أن يُعتدى عليه.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾: عندما أُمر سيّدنا إبراهيم عليه السلام برفع القواعد، وضع حَجَراً ليقف عليه، وضعه له ابنه إسماعيل عليه السلام ليرتفع عليه كلّما ارتفع البناء وجعل إسماعيل يناوله الحجر، وكان مقام إبراهيم مكاناً لا يصلّى فيه فيبقى في المكان فرجة وفسحة عند الطّواف، فطلب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه من النّبيّ صلى الله عليه وسلم أن يتّخذ من مقام إبراهيم مصلّى فنزلت الآية.

وهذا يدلّ على أنّ الّذي بنى البيت لأوّل مرّة ليس إبراهيم عليه السلام؛ لأنّ مكان البيت كان موجوداً، كما قال الله سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[إبراهيم: من الآية ٣٧]، فالبيت الحرام كان موجوداً، وليس إبراهيم عليه السلام هو أوّل من بناه.

والطّائفون هم الّذين يدورون حول البيت، ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾: الّذين يمكثون في البيت للعبادة، والرّكوع والسّجود.

(الآية ١٢٦) – ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾:

حيث لم يكن في موضع البيت أحد فسأل إبراهيم ربّه أن يجعل هذا المكان بلداً آمناً، فجعلها الله بلداً آمناً، وطلب من ربّه أن يرزق أهله من الثّمرات من آمن منهم، والتزم إبراهيم بقوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم﴾[البقرة: من الآية ١٢٦]، بناءً على ما قاله له ربّه في الآيات السّابقة: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾[البقرة: من الآية ١٢٤].

(الآية ١٢٧) – ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾:

ورد ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ﴾ بالمضارع وكأنّ رفع القواعد من البيت مستمرّ حتّى الآن، مع أنّ رفع القواعد تمّ من عدّة آلاف من السّنين، وكأنّ الله تعالى يضع المسلمين أمام المشهد ويكشف لهم حجب الزّمان، وكأنّ رفع القواعد

من البيت يحدث الآن.

(الآية ١٢٨) – ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾:

﴿مَنَاسِكَنَا﴾: المناسك هي طرق العبادة، والعبادة عطاء وليست للمشقّة والعنت.

(الآية ١٢٩) – ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾:

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾: أي القرآن.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: هي سنّة رسول الله، ويُوصَل للحكمة بالتّعلّم أيضاً.

﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾: يطهّرهم، ويقودهم إلى طريق الخير.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: العزيز هو الّذي لا يُغلب لجبروته، ولا يسأله أحد عمّا يفعل، بل هم يُسئلون.

(الآية ١٣٠) – ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾:

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: من يحيد وينحاز.

﴿عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: الملّة هي ما يميل إليه الإنسان.

﴿ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ﴾: ابتليناه وأتمّ.

(الآية ١٣١) – ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٣١﴾:

واكتفى بقوله أسلم؛ لأنّ الإسلام لا يكون إلّا لله. أمّا إبراهيم فقد قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا هو الفارق بين كلام الله جلّ وعلا وكلام عباد الله. والإسلام هو معنى جامع ويعني الخضوع لأوامر الله، وتسليم الأمر لله، نقول: خضع لأوامر الله أي سلّم أمره لله، وبهذا المعنى تكون جميع الأديان السّماويّة هي الإسلام.

(الآية ١٣٢) – ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾: أي بكلمة الإسلام والخضوع لأوامر الله والالتزام بها، وبعبادة الله تعالى، والوصية هي آخر كلام للإنسان في الدّنيا قبل موته، فيخلص فيها لمن يحبّ، مثل أن يوصي الأب أولاده عند الوفاة وصيّة يقدّم فيها خلاصة تجربته في الحياة، وعند الوفاة لا يكون هناك غشّ بل يوصي الإنسان بما فيه النّصح والمنفعة لأولاده أو لمن يخلفه.

﴿بَنِيهِ﴾: وبنو إبراهيم هم ابناه إسماعيل وإسحاق، وإسماعيل يكبر إسحاق بأربعة عشر عاماً، ومن إسحاق أتت ذريّة بني إسرائيل: و(يعقوب) هو ابن إسحاق، وأولاده هم الأسباط ومنهم يوسف، ومن ذريّتهم أنبياء بني إسرائيل موسى وهارون وزكريّا ويحيى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام. أمّا إسماعيل فقد جاء من ذريّته سيّدنا محمّد ﷺ، ولم يكن من ذريّة إسماعيل من الأنبياء والرّسل غير محمّد ﷺ.

وقد أوصاهم سيّدنا إبراهيم عليه السلام بالإسلام، أي وصّى إسماعيل وإسحاق عليهما السّلام بعبادة الله جلّ وعلا والامتثال له أي بالاستسلام وبالانقياد لأوامر الله والخضوع له، أمّا حين يُطلَق الإسلام كشريعة فيقصد به دين الإسلام وشريعته كما جاء في القرآن الكريم وفي سنّة نبيّه محمّد عليه الصّلاة والسّلام، أمّا حين نتحدّث عن الإسلام بالإطلاق فهو الامتثال والخضوع لله تبارك وتعالى.

وسار يعقوب عليه السلام على نهج جدّه إبراهيم عليه السلام فوصّى بنيه، وهنا أطلق القرآن القول على لسان يعقوب عليه السلام، وهو إسرائيل، وإسرائيل مؤلّف من (إسرا- ئيل) أي عبد الله المصطفى.

وقد أورد القرآن وصيّة يعقوب بالذّات؛ لأنّ المسلمين وغيرهم سيعانون أشدّ المعاناة فيما بعد من أحفاد يعقوب أي من شعب بني إسرائيل. والوصيّة هنا لأبناء يعقوب الأسباط وفيهم سيّدنا يوسف عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾: أي اختار لكم الدّين والقيم الإلهيّة والمنهج السّماويّ وكلّ الأديان السّماويّة بشكل عامّ.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾: ليس بيد الإنسان أن يختار متى يموت كي يموت مسلماً، فالموت والحياة ليسا بيد أحد من العباد، وما كان لأحد أن يعلم وقت موته، لكنّها إشارة إلى أنّ على الإنسان أن يبقى في كلّ أيّام عمره خاضعاً لأمر الله، ملتزماً بأوامره حتّى إذا فجأه الموت في أيّ وقت يموت على ملّة الإسلام وعلى دين الإسلام وعلى عبادة الله سبحانه وتعالى.

(الآية ١٣٣) – ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾:

الخطاب هنا موجّه ليهود المدينة، هل كنتم موجودين في ذلك الوقت، ويذكّرهم بمشهد يعقوب عليه السلام وهو على فراش الموت وحوله أبناؤه الأسباط. وقد حضر يعقوب الموت، والموت هنا فاعل مؤخّر، ويعقوب مفعول به، وكأنّ الموت يكون شيئاً منفصلاً عنّا ثمّ يأتينا، وكأنّه لا علاقة لنا به. يفاجئنا من غير اختيار منّا في أيّ مكان وزمان، ولا يستطيع أحدٌ أن يفرّ من الموت أو أن يطلب مهلة لأيّ سبب كان، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النّساء: من الآية ٧٨]، وقد سكن أبناء يعقوب مصر مع أبيهم بعد أن حضروا جميعاً إلى يوسف وخرّوا له سجّداً، وهاهم الآن مجتمعون حول أبيهم يعقوب ومعهم يوسف، فيقول لهم يعقوب: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون، وإبراهيم جدّ يعقوب وإسحاق والده، فلماذا أدخل اسم إسماعيل هنا؟ أي أنّه أطلق صفة الأب على العمّ، فالجدّ يقال عنه: أب، والأبُ أبٌ بطبيعة الحال، وكذلك العمّ يقال عنه أب، وإسماعيل هو عمّ يعقوب عليه السلام.

وقد كان سيّدنا إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام من أجداد النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان آزر عمّ إبراهيم عليه السلام، ومع ذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: من الآية ٧٤]، وعلم ذلك من أنّ آباء النّبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم وأجداده لم

يكن منهم من عَبَد صنماً أو كان مشركاً، ولـمّا كان إسماعيل وإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من أجداد النّبيّ ﷺ فكيف يكون آزر من أجداد النّبيّ ﷺ وهو من عبد الصّنم؟! والعمّ بمثابة الأب، وقد ألزم الشّرع العمّ بأن يكون أباً، وهو يرث أولاد أخيه في بعض الحالات؛ لأنّه ملزم بالنّفقة حين لا يكون لهم معيل، والغرم بالغنم والعكس، فلا نأخذ الإباحة ونترك الإلزام، ولا نطالب بالحقّ ونترك الواجب فمن طالب بالميراث عليه أن ينفق على من تلزمه نفقتهم.

فكما أبيح للرّجل أن يتزوّج بأكثر من واحدة فإنَّ الشّرع ألزمه بالعدل، فإن لم يعدل فواحدة.

(الآية ١٣٤) – ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٣٤﴾:

فلا داعي للشّجار والتّخاصم على قضايا مضت وانتهت، ﴿خَلَتْ﴾: مضى زمانها، وأمرها إلى الله ولسنا مسؤولين عن القضايا الماضية ولا يجوز أن نختلف على قضية حدثت قبل ألف أو ألفي عام أو أكثر، وهذه الآيات المتتابعة هي ردود على يهود المدينة الّذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ.

تلك أمّة مضى زمانها ولست مسؤولاً عمّا كانوا يعملون، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: من الآية ١٦٤]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾[المدّثر]، ولا يجوز أن نقضي حياتنا ونحن نتحدّث عن الماضي.. ونحن جالسون على تلال الماضي، ولا يُبنى المستقبل على أمراض الماضي، وإنّما نأخذ من قرآننا وسنّة نبيّنا ما أمرنا الله ورسوله به ونترك ما نهانا الله ورسوله عنه.

(الآية ١٣٥) – ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾:

الّذين قالوا هم اليهود في ذلك الوقت، أي في زمن محمّد عليه الصّلاة والسّلام وتنزُّلِ القرآن عليه. ويجب أن نفرّق في طريقة التّعامل بين اليهود والنّصارى، ولا يجوز لأحد أن يحتجّ بالقرآن الكريم في عدائه لأهل الكتاب؛ لأنّ القرآن حدّد العلاقة والمعاملة معهم، فاليهود أشدّ النّاس عداوة للذين آمنوا، والنّصارى أقربهم مودّة للذين آمنوا، بحسب نصوص القرآن الكريم، وقد حرّف أصحاب الحركات التّكفيريّة (داعش والنّصرة وغيرهم) تفسير كلام الله ﷻ وفسّروه وفق أهوائهم للإساءة إلى أهل الكتاب، ولا يجوز أن تُفسّر آيات كتاب الله مالم يُعرف السّياق الّذي جاءت فيه هذه الآيات، وهذا لا يعرفه إلّا العالمون بكتاب الله. وقد دعت الآية إلى ملّة إبراهيم الّذي هو جامع للجميع وهو يجمع الأديان كلّها.

﴿حَنِيفٗا﴾: مائلاً عن الشّرك إلى عبادة الله وحده.

(الآية ١٣٦) – ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾:

أي قولوا لمن يحاججكم من اليهود وغيرهم: نحن نؤمن بالله ﷻ وما أنزل إلينا: يعني القرآن الكريم، وما أوتي موسى وعيسى، أي التّوراة والإنجيل،

ونؤمن بكلّ الأنبياء عليهم السلام، ولا نفرّق بإيماننا بين الأنبياء، بل نحن خاضعون لله مؤتمرون بأمره.

(الآية ١٣٧) – ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾:

فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا إلى الحقّ، وإن أعرضوا وتولّوا فهم في خلاف معكم وجدل كبير، فلا تهتمّ يا محمّد بما يمكن أن يصدر عنهم فسوف يتآمرون عليك وسيدسّون لك السمّ وسيحرّضون عليك المشركين وسينقضون العهود وسيحاولون قتلك، لكن الله يعصمك منهم، فسيكفيكهم الله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزّمر: من الآية ٣٦]، وهو سميع بما يقولون عليم بما يفعلون.

(الآية ١٣٨) – ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

الصّبغة هي إدخال لون على لون، والصّبغة تختلف عن الدّهن، فالدّهن خارجيّ أمّا الصبغة فتدخل إلى المسام وصبغة الله هنا هي الفطرة التي فطر النّاس عليها وصبغ النّاس بها، وكلّ مولود يولد على الفطرة كما أخبر الصّادق المصدوق عليه الصّلاة والسّلام، ولكنَّ ما يحدث حوله يوجّهه إلى هنا أو هناك. أمّا صبغة الله فهي الاتجاه الحقيقيّ.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾: أي مداومون على عبادة الله تعالى، مطيعون لأوامره.

(الآية ١٣٩) - ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٩﴾:

المحاجّة هي الحوار بالحجّة، واليهود أهل جدل وكانوا يحاجّون رسول الله ﷺ، فقل لهم يا محمّد: إنّ الله ﷻ ربّ الجميع، وهو ربّ العالمين وليس ربّ المسلمين وحدهم ولا ربّ اليهود وحدهم، وليس ربّ دين من الأديان دون غيره، بدليل أنّنا نبدأ صلاتنا بقولنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة]، فالمسلمون ليسوا عنصريّين، ونحن نقبل بما جاء به القرآن الكريم، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾[البقرة: من الآية ١٣٩]، فالفارق بين النّاس هو العمل الصّالح الخالص لوجه الله، العمل بإخلاص، وهناك من يعمل الخير ولكن يحبّ أن يطّلع النّاس عليه وهو يقوم بهذا العمل، وهذا هو الرّياء، وقد قال شدّاد بن أوس رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أخوف ما أخاف على أمّتي الشّرك والشّهوة الخفيّة**» قلت: يا رسول الله، أتشرك أمّتك من بعدك؟، قال: «**نعم، أما إنّهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ولكن يراؤون بأعمالهم...**»[1]، أي مراءاة النّاس بالعمل، ونصف الدّين يتلخّص في قوله ﷺ: «**إنّما الأعمال بالنّيات، وإنّما لكلّ امرىء ما نوى**»[2]، أي يجب أن يقترن العمل بنيّة الإخلاص لوجه الله ﷻ.

---

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: ج٣، الحديث رقم (٥٢٢٦).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، الحديث رقم (١).

(الآية ١٤٠) - ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾:

زعمت اليهود أنّ أنبياء الله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا من اليهود أو من النّصارى، فقل لهم يا محمّد: أأنتم أعلم أم الله؟! ولا شكّ في أنّ الله أعلم، وهذا الكلام عن اليهود؛ لأنّ التّوراة كان فيها تفاصيل وصف النّبيّ ﷺ والبشارةَ برسالته فكتموا ذلك وأخفوا شهادة الحقّ وزوّروه حين جاء النّبيّ الخاتم من غير جنسهم وقومهم، أي ليس من اليهود وليس من سلالة يعقوب وإسحاق، وكتموا ما جاء في كتابهم عن وصف رسول الله محمّد ﷺ. فليس هناك من هو أظلم ممّن كتم ما أنزل الله في كتبه وليس الله غافلاً عن حقيقة ما يعملون.

(الآية ١٤١) - ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾:

ليس في القرآن الكريم تكرار ولكن لذلك أسرار، وعلينا أن نبحث عن السرّ في كلّ كلمة ترد في كتاب الله، وعن مناط الكلمة التي وردت وأسبابها، وهذه الآية سبق مثلها تماماً، ولكنّ المعنى يختلف بحسب السّياق، وعلينا أن نبحث فيما سبقها وما جاء بعدها، والآية التي سبقت جاءت في سياق الحديث عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال لهم الله تعالى: إنّ نسبكم

لن يشفع لكم عند الله، ولا يستطيع آباؤكم أن يدخلوكم الجنّة ما لم تعملوا بأنفسكم، أمّا الآية هنا فقد سبقت الحديث عن مزاعم اليهود بأنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كانوا هوداً أو نصارى فقال لهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: لا حجّة لكم يوم القيامة حتّى لو كان إبراهيم يهودياً فلا حجّة لكم في عدم إيمانكم؛ لأنّ لهم ما كسبوا ولكم ما كسبتم. والفارق كبير بين الآيتين ويُعرف ذلك من خلال محور الحديث الّذي صاحب الآية السّابقة والآية اللّاحقة، فالآية الأولى تعني أنّه لا شفاعة لكم، والآية الثّانية تعني أنّه لا حجّة لكم.

ولا تسألون عن أعمالهم إنّما تسألون عن أعمالكم أنتم.

❀ ❀ ❀

تمّ بفضل الله تعالى تفسير الجزء الأوّل

اللّهمّ لكَ الحمدُ كلّه ولكَ الشّكر كلّه، وإليكَ يُرجعُ الأمرُ كلّه علانيته وسِرّه، فأهلٌ أنت أن تُحمَد، وأهلٌ أنتَ أن تُعبَد، وأنتَ على كلِّ شيءٍ قَدير.

اللهمّ انفعنا وارفعنا بالقرآنِ العظيمِ، الّذي أعليتَ مكانَه، وأيَّدتَ سلطانَه، وبيّنتَ برهانَه، وقلتَ يا أعزَّ مَنْ قال -سبحانك-: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾، أحسنِ كُتُبكِ نِظاماً، وأفصَحِها كلاماً، وأبينِها حلالاً وحَراماً، مُحكَمِ البَيانِ، ظاهرِ البُرهانِ، محروسٍ منَ الزِّيادةِ والنُّقصانِ، لا يأتيهِ الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حَميد.

اللهمّ اجعلنا لكتابِكَ مِنَ التّالينَ، ولكَ مِنَ العامِلينَ، وبالأعمالِ مُخلِصينَ، وبالقسطِ قائمينَ، وعنِ النّيرانِ مُزَحزَحينَ، وفي الجِنانِ مُنَعَّمينَ، وإلى وجهكَ الكريم نَاظرينَ.

سبحان ربّك ربِّ العزّةِ عمَّا يصفونَ، وسَلامٌ على المرسَلينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

❀ ❀ ❀

فهرس

الموضوع رقم الصّفحة

- **بين يدي التّفسير:** ٩

القواعد الأساسيّة المعتمدة في هذا التّفسير: ٢٠

كيفيّة التّفسير وقواعده:

أوّلاً- تفسير القرآن بالقرآن: ٤٢

ثانياً- تفسير القرآن بالسنّة ٤٥

تفسير سورة (الفاتحة):

١- ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ ٦٠

٢-٣ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ ٦٢

٤- ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ ٧٤

٥- ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ ٧٥

٦-﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ ٧٦

٧- ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ ٧٧

تفسير سورة (البقرة) من الآية: (١-١٤١)

١- ﴿الٓمٓ ١﴾ ٨٥

جدول الحروف المقطّعة ٩٠

٢- ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ ٩١

٣- ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ ٩٤
٤- ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ ٩٦
٥- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ ٩٧
٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾
..... ٩٨
٧- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ٧﴾ ١٠٦
٨- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨﴾
..... ١٠٩
٩- ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾
..... ١١١
١٠- ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ
يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ ١١٢
١١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ ١١٣
١٢- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ ١١٤
١٣- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ
إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ ١١٤
١٤- ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا
نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ ١١٤

١٥- ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ ١١٤

١٦- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ ١١٥

١٧- ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾ ١١٦

١٨- ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ ١٢٠

١٩- ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ ١٢٠

٢٠- ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ ١٢١

٢١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ ١٢٣

٢٢- ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ ١٢٥

٢٣- ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ ١٢٩

٢٤- ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ ١٣٥

٢٥- ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ

كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ
وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ١٣٦

٢٦- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا
مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾
..... ١٤٢

٢٧- ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ١٤٣

٢٨- ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ
يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ١٤٥

٢٩- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ
سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ١٤٦

٣٠- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ
فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾
..... ١٤٨

٣١- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ
هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ١٥٣

٣٢- ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ١٥٤

٣٣- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ

غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ١٥٤
٣٤- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ١٥٥
٣٥- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ١٦٠
٣٦- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ ١٦٢
٣٧- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ١٦٦
٣٨- ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ١٧٠
٣٩- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾
..... ١٧٠
٤٠- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ
فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ١٧٢
٤١- ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي
ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ١٧٨
٤٢- ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ١٨٠
٤٣- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ١٨١

٤٤- ﴿ * أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ١٨٤

٤٥- ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ١٨٥

٤٦- ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ١٨٩

٤٧- ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ١٩٠

٤٨- ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ١٩٣

٤٩- ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ ١٩٦

٥٠- ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ٢٠٢

٥١- ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ٢٠٦

٥٢- ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ٢٠٩

٥٣- ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ٢١٠

٥٤- ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ ٢١١

٥٥- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ
تَنظُرُونَ ٥٥﴾ ٢١٤

٥٦- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦﴾ ٢١٧

٥٧- ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾ ٢١٨

٥٨- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ
سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٨﴾
..... ٢١٩

٥٩- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ٥٩﴾ ٢٢٠

٦٠- ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ٦٠﴾ ٢٢١

٦١- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا
تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى
هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ
وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ٦١﴾
..... ٢٢٣

٦٢- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

..... ٢٢٦

٦٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ٢٢٧

٦٤- ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ ٢٢٨

٦٥- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾

..... ٢٢٩

٦٦- ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

..... ٢٣٠

٦٧- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ٢٣١

٦٨- ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ٢٣٤

٦٩- ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ ٢٣٥

٧٠- ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ٢٣٥

٧١- ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ

فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ٢٣٥

٧٢- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٢٣٦

٧٣- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ٢٣٧

٧٤- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ٢٣٨

٧٥- ﴿*أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ٢٤١

٧٦- ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ ٢٤٢

٧٧- ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ ٢٤٣

٧٨- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ ٢٤٣

٧٩- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ٢٤٥

٨٠- ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا

فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ٢٤٦

٨١- ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّـَٔةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ٢٤٦

٨٢- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ٢٤٧

٨٣- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَذِي
ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ٢٤٨

٨٤- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ
ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ٢٥٦

٨٥- ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ
تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ
عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ
مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ٢٥٧

٨٦- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ٢٥٩

٨٧- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى
ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ

ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ٢٥٩

٨٨- ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ٢٦١

٨٩- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ٢٦٢

٩٠- ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾﴾ ٢٦٣

٩١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ ٢٦٤

٩٢- ﴿*وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ٢٦٥

٩٣- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ ٢٦٦

٩٤- ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ٢٦٨

٩٥- ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ ٢٦٨

٩٦- ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ
سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾
..... ٢٦٩

٩٧- ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ ٢٧٠

٩٨- ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ ٢٧٠

٩٩- ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾
..... ٢٧٢

١٠٠- ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾
..... ٢٧٢

١٠١- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ ٢٧٣

١٠٢- ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ
ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ
وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ
مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ
وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ
خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ٢٧٤

١٠٣- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟
يَعْلَمُونَ ١٠٣﴾ ٢٨٢

١٠٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ ٢٨٣

١٠٥- ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ
عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ ١٠٥﴾ ٢٨٤

١٠٦- ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ ٢٨٤

١٠٧- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ ٢٩٢

١٠٨- ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ
ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾ ٢٩٣

١٠٩- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا
حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ
بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٠٩﴾ ٢٩٤

١١٠- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٠﴾ ٢٩٦

١١١ - ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ ٢٩٩

١١٢ - ﴿بَلَىٰ ۚ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ ٣٠١

١١٣ - ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ
شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ٣٠١

١١٤ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ ٣٠٢

١١٥ - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾
..... ٣٠٤

١١٦ - ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ
قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ ٣٠٧

١١٧ - ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ ٣٠٩

١١٨ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾
..... ٣١١

١١٩- ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾
..... ٣١٢

١٢٠- ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ
ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا
نَصِيرٖ ١٢٠﴾ ٣١٣

١٢١- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ ٣١٤

١٢٢- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾
..... ٣١٤

١٢٣- ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا
هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ ٣١٥

١٢٤- ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن
ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ ٣١٥

١٢٥- ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ
إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ ٣١٦

١٢٦- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ
مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ ٣١٧

١٢٧- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ

ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ ﴾ ٣١٧

١٢٨ - ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ
عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ ﴾ ٣١٨

١٢٩ - ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾ ٣١٨

١٣٠ - ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ
وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ ﴾ ٣١٨

١٣١ - ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ ﴾ ٣١٩

١٣٢ - ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا
تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ ﴾ ٣١٩

١٣٣ - ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ
بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ
مُسۡلِمُونَ ١٣٣ ﴾ ٣٢١

١٣٤ - ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ١٣٤ ﴾ ٣٢٢

١٣٥ - ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ ﴾ ٣٢٣

١٣٦ - ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ

وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ
أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ٣٢٣
١٣٧- ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ
فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ ٣٢٤
١٣٨- ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾
..... ٣٢٤
١٣٩- ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ
وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ ٣٢٥
١٤٠- ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ
هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ ٣٢٦
١٤١- ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ ٣٢٦
تضرّع ودعاء ٣٢٩
فهرس: ٣٣١